قربان سعيد

علي ونينو

رواية



ترجمة:
أميمة البهلول

الكلمة

قربان سعيد

علي ونينو

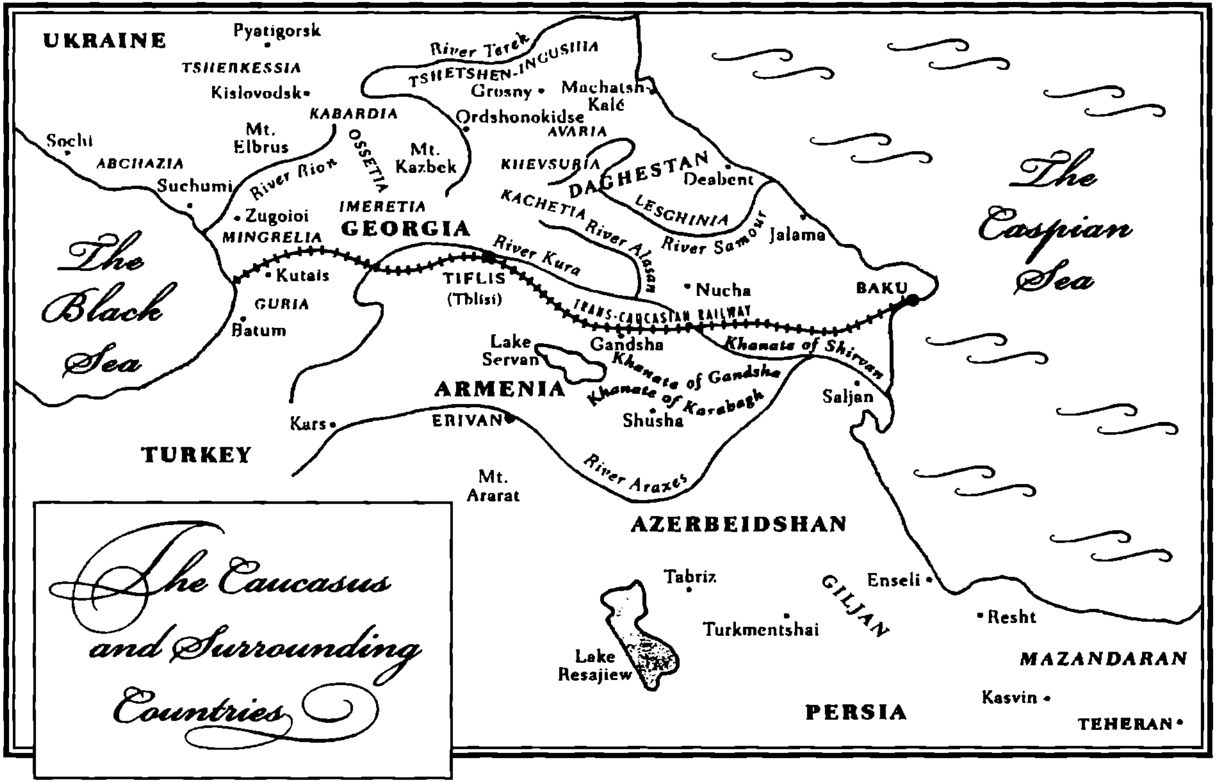
رواية

ترجمة: أميمة البهلول

* علي ونينو
* قربان سعيد
* الطبعة الثانية عام 2005
كمية الطبع 1000 نسخة

* دار الكلمة للنشر والتوزيع
سورية - دمشق - ص.ب: 2229
هاتف، فاكس: 2126326
* توزيع دار الكلمة ودار الحصاد
سورية - دمشق - ص.ب: 4490
هاتف، فاكس: 2126326
* موافقة وزارة الإعلام على الطباعة:
رقم 73283 تاريخ 3 - 9 - 2002

Alkalemah for publishing and Distribution
Baramikah - Damascus - Syria
P. O. Box : 2229. Telephone/Fax: 2126326



The Caucasus and Surrounding Countries
UKRAINE
Pyatigorsk
TSHERKESSIA
Kislovodsk
KABARDIA
Sochi
ABCHAZIA
Mt. Elbrus
Suchumi
River Rion
OSSETIA
Mt. Kazbek
River Terek
TSHETSHEN-INGUSHIA
Grosny
Machatsh-Kalé
Ordshonokidse
AVARIA
KHEVSURIA
DAGHESTAN
Deabent
LESGHINIA
River Samour
Jalama
KACHETIA
River Alasan
IMERETIA
Zugoioi
MINGRELIA
GEORGIA
River Kura
Kutais
GURIA
Batum
TIFLIS (Tblisi)
Nucha
BAKU
TRANS-CAUCASIAN RAILWAY
The Black Sea
The Caspian Sea
Lake Servan
Gandsha
Khanate of Shirvan
Khanate of Gandsha
Khanate of Karabagh
ARMENIA
Shusha
Saljan
Kars
ERIVAN
TURKEY
Mt. Ararat
River Araxes
AZERBEIDSHAN
Tabriz
GILJAN
Enseli
Turkmentshai
Resht
Lake Resajiew
MAZANDARAN
PERSIA
Kasvin
TEHERAN

مقدمة

تُعدُّ رواية «علي ونينو» واحدة من التحف الأدبية التي لا يجود الدهر بمثلها إلّا لماماً. إن هذه الرواية الرائعة، المفعمة بالحيوية، والمقنعة، قصة الحب هذه الغريبة والمألوفة في آنِ معاً، هي البرهان الحي على أن الفنَّ سامٍ وغير قابلٍ للتدمير. هي قصة حب ونتاج ثقافي في آن معاً. إن جزءاً من الرسالة التي تطرحها هي أن الحكومات تصعد وتتهاوى، الحروب تُشن، الناس ينتقلون، والكتاب يرحلون. فما الذي يبقى؟ الكلمات هي التي تبقى، وقد لا يعني كثيراً من الذي كتبها. وعلى الرغم من كل شيء فـ«علي ونينو» إنجاز رائع بارع وعرض للإثنوغرافيا العاطفية لعيشِ حياةٍ في منطقةٍ معيّنة. وهي في هذا السياق تشبه مثلاً «مدام بوفاري» و«موبي ديك» و«هاكل بيري فين» و«دون كيشوت» و«يوليسيس». وهي مليئةٌ بالمعارف والغرائب ومشبعةٌ بالإحساس بالمكان، فالقصص الطموح تحتوي على كل ما تحتاجه للتعرف على زمنها وثقافتها.

وعندما ينتهي المرء من قراءة «علي ونينو» يتعرف أشياء كثيرة عن منطقة القوقاز وشعوبها، عن تاريخها المعقد، وعن عاداتها ومعتقداتها. يتعرف الجِمال، والحرملك، وبيوت المسلمين من الداخل؛ على الأساطير والخرافات المحلية، أوقات الطعام وأصحاب الأملاك، وكذلك على أماكن النساء وواجبات المُحارب، كما على السخرية والتقوى اللذين يرافقان ليلة العرس. ولا يتعرف المرء غموض الدين عند المسلمين والمسيحيين وحسب، وإنما

يتعرف أيضاً الفروقات الدقيقة بين المسيحيين الأرثوذكس والمسلمين السُنَّة والشيعة.

تعجُّ الرواية بأمثلة تُمجِّدُ الشرق ويقابلها تمجيد الغرب، من الدين إلى الطعام، ومن الإيديولوجيا إلى القيم العائلية. ستتعرف على مخاوف علي من الأشجار التي يراها كشبح وكآفة زراعية أوروبية. «شعوري تجاه الصحراء هو شعوركِ نفسه تجاه الأشجار». ولكن الشبح الحقيقي الذي يُلقي بظلاله على المنطقة هو الحرب العالمية لأن الحرب الكبيرة (الحرب الأوروبية) كانت قد اندلعت في محيط هذه الغرابة وذلك خلال استمرار قصة الحب هذه. وأصبح دوي البنادق البعيد أقرب وأكثر صخباً ليثير عواطف أهل باكو وليصل أخيراً إلى علي بصفته ابن المنطقة وسليل البطل إبراهيم خان شيرفانشير؛ كذلك بصفته محارباً وعاشقاً. «أنت مجنون»، قال رفاق علي باللغة العربية عندما أعلن هذا الأخير أنه سيحارب وأنه لا يملك خياراً آخر. وقد علِمنا مُسبقاً في هذه الرواية أن كلمة مجنون العربية تعني مجنوناً وعاشقاً، وهكذا كانت النهاية المأساوية قويةً وحتمية.

نُشِرتْ «علي ونينو» للمرة الأولى في فيينا باللغة الألمانية عام 1937 وعَدَّها الكثيرون واحدة من أهم القصص الرومانسية.

وفي خضم الفوضى التي رافقت الحرب العالمية الثانية نُسِيَت الرواية، ثم اكتُشفت ثانية حين عثرت عليها جينا غرامان في مكتبةٍ للكتب المستعملة في برلين في فترة خراب ما بعد الحرب، وترجمتها بعدما أُخذتْ بجودتها وبالقصة نفسها التي لم تكن عادية. كما تدبرت أمر نشرها في إنكلترا ثم في الولايات المتحدة الأمريكية. ولعقودٍ عديدة، كان من المستحيل معرفة الاسم الحقيقي للكاتب ومازال الأمر كذلك، لكن من المؤكد أنه من أصل قوقازي، نشرَ الرواية تحت اسم مستعار، وكان على الأغلب لاجئاً سياسياً يعيش في أوروبا.

1

كنا مجموعة شديدة الاختلاف، نحن الأربعين تلميذاً الذين استمعنا إلى درس الجغرافيا في فترة ما بعد الظهر الحارّة في الثانوية الروسية الإمبراطورية للعلوم الإنسانية في باكو، في ما وراء القوقاز: ثلاثون مسلماً وأربعة من الأرمن وبولندیان وثلاثة متعصبون من طوائف أخرى وروسي.

لم نكن قد أولينا اهتماماً كبيراً لموقع مدينتنا الجغرافي المتميز. أما الآن فقد أخبرنا الأستاذ سانين بلهجته الباردة الخالية من الإلهام: «تتألف الحدود الطبيعية لأوروبا من البحر القطبي الشمالي شمالاً، ومن المحيط الأطلسي غرباً والبحر المتوسط جنوباً. أما الحدود الشرقية لأوروبا فتخترق الإمبراطورية الروسية وجبال الأورال من خلال بحر قزوين وما وراء القوقاز. يرى بعض العلماء أن منطقة جنوب جبال القوقاز تنتمي لآسيا بينما يعتقد البعض الآخر أن هذا البلد يجب أن يكون جزءاً من أوروبا بسبب التحول الثقافي لما وراء القوقاز. نستطيع القول إذاً، أبنائي، إن جزءاً من المسؤولية يقع على عاتقكم لتحديد ما إذا كان على مدينتكم أن تنتمي إلى أوروبا التقدمية أم إلى آسيا الرجعية».

ظهرت على شفتي الأستاذ ابتسامة توحي بالرضى عن النفس.

جلسنا صامتين لبرهة وقد أربكتنا هذه الحكمة الكبيرة وحجم المسؤولية التي أُلقيت فجأة على كاهلنا.

رفع محمد حيدر الذي كان يجلس في المقعد الخلفي يده وقال: «عفواً سيدي، أظن أنه علينا أن نبقى في آسيا».

ثم سُمع دوي من الضحك. كانت هذه هي السنة الثانية لمحمد حيدر في الصف الثالث. وكان يبدو أنه سيبقى فيه لسنة أخرى لو استمرت باكو في الانتماء إلى آسيا، بسبب مرسوم وزاري يسمح للآسيويين الروس بالبقاء في أي صف إلى المدة التي يرغبون بها.

الأستاذ سانين، الذي كان يرتدي زياً ذهبياً مطرزاً خاصاً بأساتذة الثانويات الروس، قطّبَ ما بين حاجبيه وقال: «إذاً، محمد حيدر، أنت تريد أن تبقى آسيوياً. أتستطيع أن تعطينا أسباباً لقرارك هذا؟».

تقدم محمد حيدر إلى الأمام وقد احمرَّ وجهه ولكنه لم يقل شيئاً. كان فمه مفتوحاً وجبينه مغضناً وعيناه فارغتان. وبينما كان الأرمن الأربعة والبولنديان والمتعصبون الثلاثة من الطوائف الأخرى والروسي يشعرون بمتعة كبيرة بسبب غبائه، رفعتُ يدي وقلت: «سيدي، أنا أيضاً أرغب بالبقاء في آسيا».

«علي خان شيرفانشير! أنت أيضاً! حسناً، تقدم».

دفع الأستاذ سانين بشفته السفلى إلى الخارج ولعنَ بصمتٍ القَدر الذي أبعده إلى شواطئ بحر قزوين. ثم تنحنح وسأل بغرور: «هل تستطيع أنت على الأقل أن تعطينا سبباً؟».

«نعم، أنا أحب آسيا».

«حقاً؟ حسناً، هل زرت إحدى الدول المتخلفة بحق؟ طهران مثلاً؟»

«أجل، الصيف الماضي».

«حقاً؟ وهل وجدت هناك شيئاً من المقتنيات الرائعة للحضارة الأوروبية، سيارة بمحرك مثلاً؟»

«نعم، كانت رائعة بالفعل. إنها تضم ثلاثين شخصاً أو أكثر. وهي لا تسير ضمن المدينة وإنما من مدينة إلى أخرى».

«إنها تدعى باصات وهي قيد الاستعمال لعدم وجود السكك الحديدية. هذا تخلُّف. اجلسْ شيرفانشير».

كنت أعلم أن الثلاثين آسيوياً مبتهجون وقد أظهروا ذلك من خلال الطريقة التي نظروا فيها إليَّ. غضب الأستاذ سانين في سرّه، فقد كان من المفترض أن يحوِّل تلاميذه إلى أوروبيين جيدين. ثم سأل فجأة: «حسناً، هل ذهب أحدكم إلى برلين مثلاً؟ لم يكن ذلك اليوم جيداً بالنسبة إليه فقد رفع المتعصب ميكوف يده وقال إنه ذهب إلى برلين عندما كان صبياً صغيراً. وتَذكّرَ جيداً سكة الحديد المريبة والقديمة تحت الأرض والتي كانت تعج بالضجيج كما تَذكّرَ شطيرة شرائح لحم الخنزير التي أعدتها له أمه. شعرنا نحن المسلمين الثلاثين بالسخط الشديد، حتى إن سيد مصطفى طلب الإذن بمغادرة الغرفة لأن كلمة شرائح لحم الخنزير جعلته يشعر بالمرض. وكان ذلك نهاية مناقشتنا عن باكو ووضعها الجغرافي.

قُرِعَ الجرس، فغادر الأستاذ سانين الغرفة وهو يتنفس الصعداء. واندفع التلاميذ الأربعون إلى الخارج. كانت تلك هي الاستراحة الكبيرة وكان باستطاعتنا فعل ثلاثة أشياء: الركض إلى الساحة وبدء الشجار مع تلاميذ المدرسة المجاورة لأن الأزرار وعقدة شريط القبعة في بزاتهم المدرسية الرسمية كانت مُذهَّبةً فيما كان علينا أن نكتفي بالفضية. كما كنا نستطيع التحدث فيما بيننا باللغة التترية بصوت عالٍ لأن الروس لا يفهمونها ولذلك كان ممنوعاً التحدث بها؛ أو نستطيع اجتياز الشارع بسرعة لننسَلَّ إلى مدرسة الملكة تامار المقدسة للبنات. وهذا ما قررتُ فِعله. كانت الفتيات تتنزهن في الحديقة مرتديات البزات النظامية الزرقاء المحتشمة والمرايل البيضاء. لوّحت ابنة عمي عائشة لي وكانت تمشي يداً بيد مع نينو كيبياني، أجمل فتاة في

العالم. وعندما أخبرتُ الفتيات عن معركتي الجغرافية، نظرتْ أجمل فتاة في العالم أسفل أجمل أنف في العالم وقالت لي: «علي خان، أنت غبي. شكراً لله أننا في أوروبا. لو كنا في آسيا لجعلوني أرتدي الحجاب من زمن طويل وما كان باستطاعتك رؤيتي». استسلمتُ، إذ بفضل موقع باكو الجغرافي الذي لم يُقرَّر بعد سنحت لي الفرصة إلى النظر إلى أجمل عينين في العالم. ثم تركتُ الفتيات مُغتمّاً وتغيبت عن الصف بقية النهار. نظرتُ إلى الجِمال وإلى البحر كما فكرتُ في أوروبا وآسيا وفي عيني نينو الجميلتين فشعرتُ بالحزن. اقترب مني أحد المتسولين وكان وجهه ويداه قد فسدا بسبب المرض. أعطيته نقوداً فحاول تقبيل يدي ولكنني سحبتها بشدة متخوفاً. وبعد عشر دقائق خطر لي أنني أهنته، فبحثت عنه لمدة ساعتين لأحاول إصلاح الأمر ولكنني لم أجده، فعدتُ إلى المنزل وضميري يؤنبني. كان ذلك منذ خمس سنوات.

حدثت أشياء كثيرة خلال هذه السنوات. أتى مدير مدرسةٍ جديدٍ وكان يهوى شدَّ ياقاتنا وهزنا لأن ضرب آذان الطلاب كان ممنوعاً منعاً باتاً. أما مُعلم الديانة فقد شرح لنا مُطوّلاً عن رحمة الله لأننا خلقنا في الدين الإسلامي. انضم إلينا اثنان من الأرمن وأحد الروس، بينما ترك الصف مسلمان. الأول بسبب زواجه وهو في سن السادسة عشرة أما الثاني فلأنه قُتل في عداء دم خلال العطلة. أما أنا، علي خان شيرفانشير، فقد ذهبت ثلاث مرات إلى داغستان ومرتين إلى تفليس ومرة إلى كيسلوفودسك ومرة إلى فارس حيث مكثت مع عمي وكدت أبقى سنة إضافية في المدرسة لأنني لم أكن أعرف الفرق بين صيغة الفاعل وصيغة المفعول في اللاتينية. وطلباً للنصيحة ذهب والدي لرؤية المُلّا في الجامع الذي أعلن أن اللاتينية مجرد تضليل عقيم. ثم ارتدى والدي جميع أوسمته التركية والفارسية والروسية وذهب لرؤية المدير وتبرّع ببعض المعدات الكيميائية وأشياء أخرى فنجحتُ. وُضِعَ إعلان في المدرسة يمنع منعاً باتاً دخول التلاميذ إلى حرم المدرسة

بمسدسات محشوة. كذلك تمّ تركيب التليفونات في المدينة. ومازالت نينو كيبياني أجمل فتاة في العالم.

أصبح ذلك كله في طريقه إلى النهاية، ولم يبقَ للامتحان النهائي سوى أسبوع واحد. جلست في المنزل أفكر في عبث تعلم اللغة اللاتينية على شواطئ بحر قزوين. أحببت الغرفة في الدور الثاني في منزلنا. كان يغطي الحائط سجاد قاتم من بخارى وأصفهان وكوشان وكانت الرسومات تمثل حدائق وبحيرات وغابات وأنهراً، كما رآها الحائك بعينه الداخلية، وهو شيء لا يستطيع الشخص العادي تمييزه، وكان جميلاً يأخذ بألباب الخبير. كانت البدويات في الصحارى البعيدة تجمعن الأعشاب لهذه الألوان من الشجيرات الشائكة ويعصرنها بأصابع نحيلة. يعود سر طريقة مزج هذه الألوان لمئة سنة خلت، وغالباً ما يحتاج الحائك لعقدٍ من الزمن لإنهاء قطعته الفنية. ثم تُعلّق هذه التحفة على الحائط، وتكون مليئة بالرموز السرية والإشارات الضمنية ومناظر الصيد وصراع الفرسان وبيت من شعر الفردوسي، أو بمقتطف من أعمال سعدي الشيرازي وعلى جوانبها نصوص مزخرفة. بدت الغرفة قاتمة بسبب كثرة السجاد والبسط. كانت هناك أريكة منخفضة وكرسيان مطعّمان بعرق اللؤلؤ والعديد من الوسادات الناعمة. وبين ذلك كله كُتب في المعارف الغربية مزعجة للغاية وغير ضرورية البتة: كيمياء وفيزياء وعلم المثلثات. أشياء سخيفة اخترعها البرابرة ليخلقوا انطباعاً بأنهم متحضرون. أغلقتُ الكتبَ وصعدتُ إلى سطح المنزل المنبسط حيث أستطيع رؤية عالمي: الحائط الكبير لقلعة المدينة وأطلال القصر والكتابات العربية على البوابة. كانت الجِمال تمشي خلال شبكة الطرق وكانت كواحلها دقيقة لدرجة أنني وددت مداعبتها. وقد جثم أمامي برج ميدن المحاط بالأساطير والأدلاء السياحيين. وخلف البرج يبدأ بحر قزوين، خالياً تماماً من أي مظهر، رصاصي اللون وعصياً على الفهم. ووراءه الصحراء ذات الصخور الخشنة والأشجار المنخفضة ساكنةً، صامتةً لا تُقهر، وهي أجمل منظر طبيعي في

العالم. جلستُ بهدوء على السطح. ماذا يعنيني وجود مدن أخرى وسطوح ومناظر طبيعية أخرى. أحببت البحر والصحراء المنبسطين والمدينة القديمة بينهما. أما الجموع الصاخبة التي أتت للبحث عن النفط والإثراء ثم المغادرة فلا يمثلون شعب باكو، فهم لا يحبون الصحراء.

أحضر الخادم الشاي فشربتُه وفكّرت في الامتحان الذي لم يكن ليقلقني فأنا سأنجح حتماً، ولكن حتى لو لم أفعل فالأمر سيان. سيقول المزارعون في أراضينا إنني لم أستطع الابتعاد عن بيت الحكمة. وبالفعل فمن المؤسف ترك المدرسة. فالبزة الرمادية بأزرارها الفضية والكتافيات وعقدة الياقة توحي بالذكاء. سأشعر بأنه قد حُطَّ من قدري في الملابس المدنية التي لن ألبسها لفترة طويلة بل لصيفٍ واحد، ثم أذهب إلى معهد لازاريف للّغات الشرقية. قررت ذلك بنفسي لأنني هناك سأكون متقدماً على الروس بأشواط كثيرةٍ. سيكون من الصعب عليهم تعلُّم جميع الأشياء التي تعتبر بديهية بالنسبة لي. كما أن البزة الرسمية لمعهد لازاريف التي نرتديها حتى في عطلة نهاية الأسبوع هي الأفضل: معطف أحمر، ياقة ذهبية، خنجر نحيل مُذهّب، وقفازات مصنوعة من جلد الجدي. على الرجل أن يرتدي بزة رسمية وإلّا احتقره الروس. وإذا احتقرني الروس فلن تقبلني نينو زوجاً لها. ولكن يجب أن أتزوج نينو حتى لو كانت مسيحية. الجورجيات أجمل نساء العالم. ولكن ماذا لو رفضت الزواج؟ حسناً، سآتي ببعض الرجال الأنيقين ليلقوا بها على صهوة جوادي ثم ننطلق عبر الحدود الفارسية إلى طهران. هناك ستستسلم إذ ماذا بإمكانها أن تفعل؟ كانت الحياة جميلة وبسيطة وأنا أراها من سطح بيتنا في باكو.

لَمَسَ كريم، الخادم، كتفي وقال: «حان الوقت»، فنهضتُ. ستظهر سفينة بخارية في الأفق وراء جزيرة نارجين. وسيكون عمي وزوجاته الثلاث ومخصيّاه الاثنان على متن المركب، هذا إن استطاع المرء الوثوق بقصاصة ورق مطبوعة ومرسلة من آلة التلغراف المسيحية. كان عليَّ لقاؤه، لذا

ركضت أسفل الدرج إلى عربة الانتظار وانطلقنا إلى المرفأ الذي يعجُّ بالضجيج.

كان عمي رجلاً مميزاً. منحه شاه نصر الدين لقب أسد الدولة ولم يعد باستطاعة أي امرئ مناداته الآن بغير ذلك اللقب. كان لديه ثلاث زوجات والعديد من الخدم بالإضافة إلى قصرٍ في طهران وعقار كبير في مازنداران. ذهب إلى طهران لأن زينب الصغيرة، إحدى زوجاته كانت مريضة. لم تكن تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها وقد أحبها عمي أكثر من زوجاته الأخريات. لكنها لم تستطع الإنجاب وكان عمي يرغب بوريثٍ منها فقط. لم يستطع الحجاب الذي أعطاها إياه درويشُ كربلاء مساعدتها ولا حتى كلمات حكيم مدينة مشهد السحرية ولا المرأة العجوز في طهران الخبيرة بفنون الحب. حتى إنها ذهبت في رحلة إلى هَمَذان حيث ينتصب تمثال الأسد العملاق المصنوع من الحجر الأحمر يحدق بعينيه الغريبتين الغامضتين عبر الصحراء إلى ما لا نهاية، وقد شيّده ملوكٌ قدماء أوشكَ أن يطويهم النسيان. حجّت النساء إلى هذا الأسد لعدة قرون وقبّلن جسده القوي على أمل أن يَهبهُنَّ الأمومة ويبارك أطفالهن. أما المسكينة زينب فلم يساعدها الأسد.

لقد أتت الآن إلى باكو تطلب مهارات الأطباء الغربيين. مسكينٌ عمي، اضطر لإحضار زوجتيه الأخريين المتقدمتين في السن، واللتين لا يشعر تجاههما بالحب، لأن العرف يقتضي: «تستطيع الزواج بامرأة أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة إن عاملتهن بمساواة». معاملتهن بمساواة تعني إعطاءهن الشيء نفسه، كرحلة إلى باكو مثلاً.

لكن كل ذلك لا يعنيني. فمكان النساء في الأندرون، الجزء الداخليّ من المنزل. والرجل ذو النشأة الصالحة لا يتكلم عنهن ولا يسأل عن أحوالهن أو ينظر إليهن. إنهن ظل الرجل حتى لو كان الرجل لا يشعر بالسعادة إلا في هذا الظل. ذلك شيء جيد وحكيم. لدينا في بلدنا مثل يقول: «لا تملك

المرأة عقلاً إلا بمقدار ما تملك البيضة شَعراً». على تلك المخلوقات بلا عقل أن يخضعن للمراقبة خشية أن يجلبن الدمار لأنفسهن وللآخرين. أعتقد أن هذه القاعدة حكيمة.

اقتربت السفينة البخارية الصغيرة من مرحلة الإرساء. أنزلَ بحّار عريض المنكبين ذو شعر كثيف عند الصدر سُلّم الركاب الذين اندفعوا إلى الخروج. سارع الركاب الروس والأرمن واليهود إلى الخروج كما لو أنهم حريصون على ألّا يخسروا حتى دقيقة واحدة. لم يُظهر عمي نفسه، فهو سيقول «العجلة من الشيطان». لم يظهر أسد الدولة بشكله الأنيق إلا بعد نزول جميع الركاب. كان يرتدي معطفاً ذا طية حريرية عند صدر السترة ويعتمر قبعة صغيرة من الفرو الأسود وخُفّين. أما لحيته وأظافره فهي مصبوغة بالحنّاء لذكرى دم الشهيد حسين الذي سُفِكَ قبل ألف عام في سبيل عقيدة الحق. كانت عيناه صغيرتين متعبتين وحركاته بطيئة. وقد مشت خلفه ثلاثة أشكال للزوجات الثلاث مغطاة بالحجاب الأسود، وتبدو عليهن الإثارة. ثم أتى المخصيان، وكان لأحدهما وجه يشبه السحلية الذابلة، أما الآخر فكان صغير الجسم وممتلئاً بالغرور، لأنه حارس شرف سعادته. نزل عمي بهدوء فعانقتُه وقبلتُ كتفه الأيسر بوقار رغم أن ذلك لم يكن ضرورياً في مكان عام. نظرتُ إلى الزوجات نظرة خاطفة، ثم صعدنا إلى العربة. تبعتنا الزوجات والمخصيّان في العربة المغطاة. كان منظر بطانتنا مؤثراً لذا أمرتُ السائق أن ينعطف إلى المتنزه لتُبدي المدينة إعجابها بفخامة عمي.

وقفتْ نينو في المتنزه تنظر إليَّ بعينين ضاحكتين. مرّر عمي يديه الأرستقراطيتين خلال لحيته وسألني عن أخبار المدينة، فأجبته بأن لاشيء يُذكر. كنت أعلم أنه من واجبي أن أبدأ بالأشياء غير المهمة ثم أنتقل فيما بعد إلى الأخبار المهمة بالفعل. «داداش بيغ طعنَ آشوند سادي حتى الموت في الأسبوع الماضي لأن هذا الأخير عاد إلى المدينة مع علمه بالخطر الذي يحدق به لأنه خطف زوجة داداش بيغ منذ ثمانية أعوام. الشرطة الآن

تبحث عن داداش بيغ لكنها لن تعثر عليه رغم أن الجميع يعلم أنه في قرية ماردا كجاني. أما الحكماء فيرون أنه قد أحسن صنعاً». هز عمي برأسه موافقاً. هل هناك أخبار أخرى؟ نعم، وجد الروس نفطاً كثيراً في بيبي إيبات. أحضرتْ شركة نوبل العملاقة الآلات الألمانية إلى البلاد لملء جزء من البحر وللحفر بحثاً عن النفط. كان عمي مندهشاً جداً، فقلب شفتيه وكشر مقطباً وهو يردد «الله، الله». أما في المنزل فكل شيء على ما يرام وبمشيئة الله سأترك بيت التعلُّم خلال أسبوع.

تابعت التحدث والرجل العجوز يصغي بانتباه. ولمّا اقتربت العربة من منزلنا نظرتُ جانباً وقلت بلهجة لا مبالية: «وصل إلى المدينة طبيب مشهور من روسيا، يقول الناس إن علمه غزير وإنه يرى في وجوه الناس ماضيهم وحاضرهم وبناءً على ذلك يستطيع التنبوء بالمستقبل. كانت عينا عمي مغلقتين بنبل. ثم سأل بتجرد عن عنوان الرجل الحكيم، ولاحظت أنه قد سُرَّ مني لأن ذلك ما ندعوه بالسلوك الحسن والتربية الأرستقراطية.

2

كانت البسط الناعمة والمتعددة الألوان ذات أنماط الغرتسك(*) تنتشر على السطح المستوي حيث جلستُ القرفصاء مع أبي وعمي نختبئ من الريح. وقف الخدم خلفنا ممسكين بالمصابيح، بينما وُضِعت أمامنا على البساط مجموعة من الأطعمة الشرقية تثير إغراءنا: كعكة العسل وفاكهة ملبسة بالسكر وشيش كباب وأرزاً بالدجاج والكشمش. أعجبتُ كما في السابق بأناقة أبي وعمي فقد قسما قطعة كبيرة من الخبز الأسود من دون استعمال اليد اليسرى ثم حوّلاها إلى شكل مخروطي ورفعاها إلى فميهما. وبكياسة نموذجية، وضع عمي إصبعيه وإبهام يده اليمنى في الأرز المدهن الذي يتصاعد منه البخار فأخذ بعضاً منه وضغطه ليحوله إلى كرة ووضعه في فمه من دون أن يفقد حبة واحدة. لماذا يتبجح الروس بتناولهم للطعام بالشوكة والسكين؟ يستطيع أغبى شخص أن يتعلم ذلك بغضون شهر واحد. أستطيع الأكل بسهولة بالشوكة والسكين كما أعلم كيف أتصرف على الموائد الأوروبية ولكنني رغم بلوغي سن الثامنة عشرة لا أستطيع تناول ألوان الأطباق الشرقية المتتابعة بتلك الكياسة الأرستقراطية المثالية كما يفعل والدي وعمي باستعمالهما إصبعين وإبهام اليد اليمنى من دون أن يُسقطا حبة واحدة حتى في راحتي كَفّيهما. يأكل أفراد منزل آل كيبياني على المائدة

(*) غرتسك: قطعة من الفن الزخرفي تتميز بأشكال بشرية وحيوانية غريبة أو خيالية متناسخة عادة مع رسوم أوراق نباتية أو نحوها مما يحيل كل ما هو غير طبيعي إلى بشاعة أو إحالة إلى كاريكاتور. (قاموس المورد).

بالطريقة الأوروبية، أما في منزلي فلا نفعل ذلك إلا عندما يكون لدينا زوّار من الروس. تشعر نينو بالهلع عندما تفكر بأنني جالس على الأرض وآكل بيدي. لقد نَسِيَتْ أن والدها كان في العشرين من عمره عندما وضع أول شوكة في يده.

انتهت الوجبة فغسلنا أيدينا وتلا عمي صلاةً صغيرةً. ثم رُفع الطعام عن المائدة وقُدِّم إلينا شاي قوي قاتم في كؤوس صغيرة. بدأ عمي بالكلام مطنباً ومثرثراً كما يفعل الكبار بعد وجبة طعام جيدة. لم يتكلم أبي كثيراً، أما أنا فلم أقل شيئاً على الإطلاق احتراماً للتقاليد. وكعادته عندما يأتي إلى باكو، تحدث عمي عن أيام حكم ناصر الدين شاه العظيم وعن نفسه حين لعب دوراً مهماً جداً في البلاط، وإن يكن ذلك الدور غير واضح تماماً بالنسبة لي. قال عمي: «جلست على بساط الحظوة للشاهنشاه لمدة ثلاثين عاماً. اصطحبني جلالته ثلاث مرات في أسفاره إلى الخارج والتي من خلالها عرفت عالم الكفّار أفضل من أي شخص. زرنا معاً قصور الملوك والقياصرة وقابلنا المسيحيين الأكثر شهرة في ذلك الزمان. إنه عالم غريب والأكثر غرابة فيه هو الطريقة التي يعاملون بها نساءهم. فالنساء بما فيهن نساء القياصرة والملوك يمشين في القصور عاريات ولا يشعر أحد بالاشمئزاز. ربما يحدث ذلك لأن المسيحيين ليسوا رجالاً حقيقيين أو ربما لسبب آخر، الله أعلم. وعلى العكس من ذلك يشعر الكفار بالاشمئزاز من أشياء لا تضر البتة. في أحد الأيام دُعي جلالته إلى مأدبة في قصر القيصر وجلست القيصرة بجانبه. كان على طبق جلالته قطعة دجاج شهية جداً فأمسك جلالته بأناقة بقطعة الدجاج بإصبعين وإبهام ووضعها في طبق القيصرة لإظهار كياسته. انقلب وجه القيصرة أبيض وبدأت بالسعال وهي تشعر بالرعب الشديد. ثم سمعنا فيما بعد أن عدداً كبيراً من رجال الحاشية الملكية وأمراء القصر الملكي قد روّعهم تودد الشاه. ما أقل ما يقدر الأوروبيون نساءهم.

«إنهم يظهرون عريهن للعالم أجمع ولكنهم لا يحاولون معاملتهن

بدماثة. حتى إنه سُمِح للسفير الفرنسي، بعد انتهاء وجبة الطعام، بمعانقة زوجة القيصر والدوران بها في الصالة على أنغام الموسيقا الرهيبة. كان القيصر نفسه وضباط حرسه ينظرون ولكن لم يتحرك أحد للدفاع عن شرف القيصر. أما في برلين فرأينا شيئاً أكثر غرابة فقد دُعينا إلى أوبرا تدعى «الإفريقية». ظهرت على خشبة المسرح امرأة بدينة جداً تغنّي بشكل مُفزِع. كرهنا صوت المرأة كثيراً. لاحظ القيصر ولِيَمْ ذلك فعاقبها على الفور، ففي المشهد الأخير شيّد عدد كبير من الزنوج محرقة وقيدوا يدي وقدمي المرأة وأحرقوها ببطء حتى الموت. أخبرنا أحدهم فيما بعد أن النار لم تكن إلا رمزيةً لكننا لم نصدق ذلك لأن المرأة صرخت بشكل رهيب كما فعل الهرطقي هورييت اللعين الذي أحرقه الشاه في طهران حتى الموت مباشرة قبل بدء رحلتنا».

جلس عمي برهة غارقاً بصمت في أفكاره وذكرياته ثم تنهد بعمق وقال: «هناك شيء لا أفهمه عن المسيحيين. لديهم أفضل الأسلحة والجنود والمعامل التي تنتج كل ما يحتاجونه لقهر العدو. إنهم يثنون على من يخترع شيئاً لقتل الآخرين بسهولة وبسرعة وبأكبر عدد ممكن. يصبح شخص كهذا غنياً وتُعلّق على صدره الأوسمة. هذا شيء جيد وصحيح فهكذا هي الحرب. ولكن الأوروبيين من جهة أخرى يبنون العديد من المستشفيات، والرجل الذي يشفي ويطعم جنود الأعداء خلال الحرب يلقى كذلك الثناء والأوسمة. كان الشاه، سيدي الشهير، محتاراً على الدوام لرؤية رجال يحصلون على المكافآت المجزية بشكل متساو لقيامهم بأعمال معاكسة لبعضها. لقد تناقش مرة بهذا الخصوص مع الإمبراطور في ڤيينا ولكن كان من المستحيل الحصول على تفسير لهذه التصرفات السخيفة. ورغم ذلك يزدرينا الأوروبيون لأنه يحق لنا الزواج بأربع نساء مع أنهم غالباً ما يحظون بأكثر من أربعة. كما يكرهوننا لأننا نعيش ونحكم بالطريقة التي أمرنا بها الله».

ثم صمتَ عمي. كانت الليلة حالكة الظلمة وبدا خياله كالطائر العجوز النحيل. ثم شد ظهره وسعل كما يفعل كبار السن وقال بحماس: «رغم ذلك، ومع أننا نفعل كل ما يأمرنا به الله، والأوروبيون لا يفعلون شيئاً مما يأمرهم به الله، فقوتهم وجبروتهم تتعاظم باستمرار، بينما تتناقص قوتنا وجبروتنا. من يستطيع أن يقول لي لِمَ ذلك؟ لم نستطع أن نجيبه على ذلك. ثم وقف على قدميه، رجلاً متقدماً في السن ومُتعباً ونزل الدرج باضطراب نحو غرفته فتبعه والدي. أتى الخدم لأخذ فناجين الشاي وبقيتُ وحدي على السطح ولكنني لم أشعر برغبة في النوم.

لفَّ الظلام مدينتنا التي بدت كحيوان في كمين جاهز للانقضاض أو اللعب. كانت هنالك في الواقع مدينتان، الواحدة داخل الأخرى كاللب داخل البندق. فخلْفَ السور كانت المدينة الخارجية بشوارعها العريضة وبيوتها الكبيرة، أهلها صاخبون وشرهون للمال. بُنِيتْ هذه المدينة الخارجية بسبب النفط في صحرائنا الذي يجلب الثراء. كانت هناك مسارح ومدارس ومستشفيات ومكتبات ورجال شرطة ونساء جميلات عاريات الأكتاف. وإذا حصل إطلاق نار في المدينة الخارجية فبسبب المال. تبدأ حدود أوروبا الجغرافية في المدينة الخارجية حيث تعيش نينو. أما في المدينة الداخلية فالبيوت ضيقة ومنحنية كالخناجر الشرقية. والمآذن التي يعلوها الهلال مختلفة تماماً عن روافع النفط التي شُيّدها الأغنياء. يرتفع برج ميدن في الجانب الشرقي من الحائط الشرقي للمدينة القديمة، وقد بناه محمد يوسف خان، حاكم باكو، على شرف ابنته التي أراد الزواج بها. لكن زواج سفاح القربى هذا لم يكتمل فقد رمت الفتاة بنفسها من البرج بينما هرع والدها المصاب بجنون الحب إلى غرفتها. وقد سُمِّيت الصخرة، التي سقطت عليها الفتاة البِكْر وماتت، بصخرة العذراء. تغطى أحياناً الصخرة بالزهور، تقدمةَ العروس في الليلة التي تسبق زواجها.

جرت دماء كثيرة في أزقة مدينتنا خلال العصور، وهذه الدماء هي التي تجعلنا أقوياء وشجعان. تقع بوابة زيزياناشفيلي مقابل منزلنا وهنا أيضاً سُفكت دماء نبيلة لتصبح جزءاً من تاريخ أسرتنا. حدث ذلك منذ سنين طويلة مضت، عندما كان بلدنا أذربيجان ما يزال ينتمي لفارس حيث كان حسن خولي خان يحكم باكو، عاصمة أذربيجان. حاصرَ مدينتنا الأمير زيزياناشفيلي وهو جنرال جورجي في جيش القيصر. أعلن حسن خولي خان أنه سيستسلم للقيصر الأبيض العظيم ففتح البوابة ودخل الأمير زيزياناشفيلي. طاف هذا الأخير المدينة مصحوباً ببضعةٍ من الفرسان فقط. أُقيمت مأدبة في الساحة خلف البوابة، وأُضرمت النار في الرُّكام لتُشوى عليها ثيران بأكملها. أسرف الأمير زيزياناشفيلي بالشرب فمال برأسه المتعب على صدر حسن خولي خان. فأخرج جدي، إبراهيم شيرفانشير خنجره المعقوف وأعطاه لحسن خولي خان الذي بدأ ببطء بحز رقبة الأمير زيزياناشفيلي. ثم تدفّقَ الدم فجأة على ثوبه لكنه تابع القطع حتى صار رأس الأمير في يده. وضع الرأس بكيس مليء بالملح فأخذه جدي إلى الشاهنشاه في طهران. لكن القيصر قرر الثأر للجريمة فأرسل جيشه إلى باكو. أغلق حسن خولي خان القصر على نفسه مُصلياً ومفكراً بالأيام القادمة. وعندما تسلق رجال القيصر الحائط، هرب بواسطة ممر تحت الأرض إلى البحر ومن هناك انطلق إلى فارس. لكنه قبل دخوله إلى الممر تحت الأرض كتب على الباب جملة واحدة، لكنها حكيمة جداً، تقول: «من يفكر بالغد، لن يكون شجاعاً أبداً».

كنت غالباً ما أتنزه خلال القصر المدمر في طريقي من المدرسة إلى المنزل. كانت قاعة العدل بصفوف أعمدتها الإسلامية الضخمة فارغة ومقفرة. يُفترض بالمواطنين الذين يطلبون العدالة الذهاب إلى القاضي الروسي، لكن من يفعل ذلك يلقى الاحتقار من الرجال الحكماء، ويمد الأطفال في الشوارع ألسنتهم نحوه. لم يكن ذلك لأن القضاةَ الروس كانوا سيئين أو غير عادلين، بل على العكس تماماً، كانوا حياديين وعادلين ولكن

بطريقة يكرهها الناس. فالسارق يوضع في السجن بزنزانة نظيفة يشرب الشاي ويوضع له فيه السكر، ولكن لا أحد يأخذ شيئاً من ذلك، وخصوصاً الرجل المسروق. تهزُّ الناس أكتافها استهجاناً وتطبق العدالة بطريقتها. يأتي المدعي إلى الجامع بعد الظهر حيث يجلس الرجال الحكماء في شكل دائري وينطقون بالحكم بحسب الشريعة، القانون الإلهي «العين بالعين والسن بالسن». وفي بعض الليالي تنزلق الأكفان في الأزقة، يضرب الخنجر كالبرق، صرخة صغيرة، فتتحقق العدالة وتجري عداءات الدم من بيت إلى آخر. في بعض الأحيان تُحمل الأكياس خلال الأزقة عندما تكون الظلمة على أشدها. ويُسمع أنين مكبوت ثم ارتطام خفيف بالمياه ويختفي الكيس. وفي اليوم التالي يجلس أحد الرجال على أرضية منزله وثوبه ممزق وعيناه مغرورقتان بالدموع، لقد نُفِّذت تعاليم الله: الموت للزانية. مدينتنا القديمة مليئة بالأسرار والغموض والزوايا المخبأة والأزقة الصغيرة. أُحب همهمات الليل الناعمة والقمر فوق السقف المستوي وفترة بعد الظهر الهادئة في ساحة الجامع بجوِّها الصامت المتأمل. ربي اجعلني مولوداً هنا كمسلم في المذهب الشيعي، دين الإمام جعفر. لتكن رحيماً وتدعني أموت هنا في الشارع نفسه والمنزل نفسه الذي ولدتُ فيه، أنا ونينو، المسيحية التي تأكل بالشوكة والسكين وتملك عينين ضاحكتين وترتدي الجوارب الحريرية الشفافة.

3

كان زي التخرُّج الاحتفالي ذا ياقة وشريط فضي، كما كان إبزيم الحزام فضياً كذلك والأزرار الفضية تلمع. كُوِيَ القماش الرمادي وكان ما يزال ساخناً. وقفنا في ساحة المدرسة الكبيرة بهدوء وبلا قبعات، ثم بدأ الجزء المهيب من الامتحان وتضرعنا جميعنا إلى إله الكنيسة الأرثوذكسية ليساعدنا، نحن الأربعين تلميذاً الذين لا ينتمي سوى اثنين منا إلى الكنيسة الحكومية.

ارتدى القس الأرثوذكسي، ذو الشعر الطويل المعطر، الذهب الثقيل فوق حلته الاحتفالية ثم بدأ الصلاة والصليب الذهبي الكبير في يده. كان الهواء معبقاً بالبخور ثم جثا الأساتذة وتابعو الكنيسة الحكومية على أقدامهم. كانت كلمات القس المرتلة برتابة تبدو جوفاء لأسماعنا، فكم مرة سمعنا هذا الكلام الممل والخالي من الترنيم: «ليبارك الله القيصر نيقولا ألكسندروفيتش الحاكم المسيحي الأكثر ورعاً والأكثر قوة وليبارك الله البحارة والمسافرين والمتعلمين والمعذبين وجميع المحاربين الذين فقدوا حياتهم في ساحة الشرف في سبيل دين الحق. ليبارك الله القيصر والبلاد وجميع المسيحيين الأرثوذكس». حدقت في الحائط بملل، كانت هناك صورة بإطار كبير مُذهب للحاكم الأكثر ورعاً والأكثر قوة بالحجم الحقيقي تبدو كأيقونة بيزنطية تحت النسر المزدوج. بدا وجه القيصر طويلاً بعض الشيء. كان شعره أشقر وهو ينظر إلى لأمام بعينيه الهادئتين الوامضتين، وبدا عدد الأوسمة المعلقة على صدره كبيراً جداً. حاولت عَدَّها لمدة ثماني سنوات ولكنني

كنت أخطئ على الدوام بسبب عددها الكبير. كانت صورة القيصرة معلقة إلى جانب صورة القيصر سابقاً لكنها نُزِعتْ لأن المسلمين استاؤوا من فستانها ذي الياقة المنخفضة وتوقفوا عن إرسال أطفالهم إلى المدرسة.

بدأنا نشعر بالمهابة بينما كان القس يصلي، فعلى الرغم من كل شيء كان ذلك اليوم من أكثر الأيام إثارة. بدأتُ منذ الصباح الباكر بفعل كل ما في وسعي للنجاح بطريقة تلائم المناسبة الكبيرة. فقبل كل شيء عزمت أن أكون لطيفاً مع جميع من في المنزل، لكن معظمهم كانوا نياماً. وفي طريقي إلى المدرسة أعطيت نقوداً لجميع المتسولين الذين قابلتهم، فقط لأضمن النتيجة. وكنت أشعر بالإثارة لدرجة أنني أعطيت أحدهم روبلاً كاملاً بدلاً من خمسة كوبيكات(*). وعندما أجزلَ في شكره لي قلت له بوقار: «لا تشكرني، بل اشكر الله الذي استعمل يدي لتوزيع الحسنات». طبعاً لا يمكنني الرسوب بعد استشهادي بهذه المقولة الورعة.

انتهت الصلاة فشكّلنا صفاً وتقدمنا باتجاه طاولة أعضاء لجنة الامتحان الذين كانوا يبدون كوحوش ما قبل التاريخ بذقونهم السوداء ونظراتهم الكئيبة وبزاتهم الاحتفالية الذهبية وهم جالسون خلف الطاولة الكبيرة. كان كل شيء مهيباً ومخيفاً رغم أن الروس يكرهون أن يُرسبوا مسلماً لأننا جميعاً لدينا أصدقاء أقوياء يحملون الخناجر والمسدسات. يعرف الأساتذة ذلك ويخافون من تلامذتهم، قطاع الطرق المتوحشين، بقدر ما يخاف التلاميذ من أساتذتهم. وينظر معظم الأساتذة إلى تعيينهم في باكو كعقوبة من الله، فحوادث الاعتداء على الأساتذة في الأزقة المظلمة لم تكن بالحدث النادر، كما لم يحدث أن عُثر على المذنب قط، ثم يعيّن المدرس في مكان آخر. ولهذا السبب نظروا إلى الجهة الأخرى عندما نَقَلَ التلميذ علي خان شيرفانشير حل امتحان الرياضيات بوقاحة من جاره ميتالنيكوف. مرة واحدة

(*) كوبك: جزء من مئة روبل. م.

حين فعلت ذلك اقترب مني الأستاذ وهمس بيأس: «ليس علناً هكذا شيرفانشير فنحن لسنا وحدنا».

وهكذا تم امتحان الرياضيات الكتابي بشكل جيد، فتمشينا بسرور في شارع نيقولاي ونحن نشعر للتو بنفحة من الحرية. وفي اليوم التالي كان امتحان اللغة الروسية الكتابي، وأتى الموضوع كما هي العادة في رزمة صغيرة مختومة من تفليس. فتح المدير الظرف وقرأ بجلال: «شخصيات تورغينيف النسائية كتجسيد للأنوثة». هذا سهل فسأنجح طالما أثنيت على النساء الروسيات. أما امتحان الفيزياء الكتابي فكان أكثر صعوبة ولكن قصاصات الغش ساعدتني حيث لم تنفع المعرفة. وهكذا مرَّ امتحان الفيزياء بشكل جيد أيضاً، ثم أعطت اللجنة يوم استراحة للمقصِّرين قبل أن يبدأ الامتحان الشفهي حيث عليك الاعتماد على نفسك وإعطاء الأجوبة المعقدة للأسئلة البسيطة. كان امتحان الديانة أولاً. يجلس الملا، أستاذ الديانة غالباً في الخلف بعباءته الطويلة الفضفاضة مرتدياً الوشاح الأخضر الخاص بالمنحدرين من سلالة الرسول، لكنه اليوم جلس فجأة في الأمام. كان الملا رقيقاً تجاه تلاميذه، فقد سألني عن أركان العقيدة وأعطاني علامة كاملة بعد أن رددت التشهد على المذهب الشيعي كولدٍ طيب: «لا اله إلا الله، محمد رسول الله وعلي خليفة الله». كان ذلك المقطع الأخير بالغ الأهمية لأنه الشيء الوحيد الذي يُفرِّق الشيعة الورعين عن إخواننا الضائعين من المذهب السُّنِّي الذين لم يُحرموا بدورهم من رحمة الله، هكذا علمنا الملا لأنه كان ذا آراء تحررية.

وللتعويض عن ذلك لم يكن أستاذ التاريخ متحرراً. سحبتُ الورقة التي كُتِبَ عليها الموضوع الذي لم يكن جيداً تماماً. قرأت الورقة: «انتصار ماداتوف في غاندشا». لم يشعر الأستاذ بدوره بارتياح، ففي معركة غاندشا قتل الروس الغادرون جدي الشهير إبراهيم خان شيرفانشير الذي ساعد حسن خولي خان في جزِّ رأس الأمير زيزياناشفيلي. قال الأستاذ بلهجة

معتدلة: «شيرفانشير لديك الحق بطلب سؤال آخر». نظرت بريبة إلى الزبدية الزجاجية التي تحتوي على قصاصات ورق كُتبت عليها أسئلة، اختيار واحدة منها أشبه بسحب ورقة يانصيب. يملك كل تلميذ الحق في تغيير القرعة مرة واحدة ولكنه يخسر حقه في الحصول على علامة أفضل. لم أرغب بتجريب الاعتماد على العناية الإلهية، على الأقل أنا أعلم كل شيء عن موت جدي، أما الزبدية الزجاجية فتحتوي على أسئلةٍ مُربكةٍ للغاية عن فريدريك فيلهلم البروسي أو عن أسباب الحرب الأهلية الأمريكية. كيف يمكن للمرء أن يعرف هذه الأشياء؟ هززت رأسي مجيباً بالنفي، ثم أخبرته بكل أدب عن الأمير الفارسي عباس ميرزا الذي انطلق من تبريز بجيشٍ مؤلفٍ من أربعين ألف رجل لمطاردة الروس في أذربيجان كما أخبرته كيف قابل جنرال القيصر الأرميني ماداتوف الأمير الفارسي في غاندشا بخمسة آلاف رجل وأطلق النار على الفرس الذين لم يروا المسدسات من قبل، وكيف سقط الأمير عباس ميرزا من على صهوة جواده وزحف في خندق وقد هرب الجيش بأكمله، وأُسر جدي ابراهيم خان شيرفانشير وأُطلقت عليه النار عندما حاول الهرب خلال النهر مع حشد من الفرسان. ثم قلت: «لا يعود سبب انتصار الروس إلى شجاعة قواتهم بقدر ما يُعزى سبب الانتصار إلى التفوق التقني لماداتوف. كانت نتيجة هذا الانتصار توقيع معاهدة تركمنتشاي للسلام التي وافق الفرس بموجبها على دفع أتاوة أدت إلى تدمير خمس مقاطعات». وبهذا القول رميت جانباً «النجاح بمرتبة الشرف». كان عليَّ أن أقول: «يُعزى الانتصار إلى شجاعة الروس الكبيرة الذين أجبروا جيشاً أكبر منهم بثماني مرات على الهروب. وكانت النتيجة هي توقيع معاهدة تركمنتشاي للسلام التي تمكنت فارس بموجبها بالاتصال بالأسواق والحضارة الغربية». لم أبالِ، فقد كان شرف جدي من الأهمية بحيث يعني لي أكثر من الفرق بين «النجاح بمرتبة الشرف» و«النجاح».

كان ذلك نهاية الامتحانات. ألقى المدير خطاباً آخر مليئاً بالكبرياء

والوقار وأعلن أننا قد نجحنا في الامتحان. ثم ركضنا أسفل سلم الدرج كالمساجين الذين أُطلقَ سراحهم. كانت الشمس متوهجة ورمال الصحراء الصفراء الرقيقة تغطي الشوارع. هنَّأنا رجل الشرطة القابع في الزاوية والذي اهتم بنا لمدة ثمانية أعوام فأعطاه كلٌ منا خمسة كوبيات. ثم انطلقنا مندفعين نحو المدينة نصرخ ونصيح كعصابة لصوص. أسرعتُ بالعودة إلى المنزل فاستقبلوني كاستقبال الاسكندر بعد انتصاره على الفرس. نظرَ إليَّ الخدم برهبة وغمرني والدي بالقبلات ومنحني ثلاث أمنيات (أي شيء أرغب به). بينما فكر عمي بأنّ على رجل حكيم مثلي الذهاب إلى طهران حيث لابد أن تعلو به المراتب.

وبعد أن انتهت أولى مشاعر الحماسة، تسللت إلى الهاتف، فأنا لم أتحدث إلى نينو لمدة أسبوعين لأن الحكمة تتطلب أن يبتعد الرجل عن النساء عندما يقف على مفترق الطرق في هذه الحياة. أمسكت بقبضة الجهاز الضخمة وأدرت القرص ثم صرخت في السماعة: «3381!» فأجابت نينو: «هل نجحت ياعلي؟»

«نعم يا نينو».

«مبروك يا علي».

«أين ومتى يا نينو؟»

«الساعة الخامسة في بحيرة حديقة الحاكم يا علي».

لم أكن أستطيع الاستمرار في الكلام حيث تختبئ خلفي آذان أقاربي الفضولية والخدم والمخصيون. أما نينو فتكمن خلفها آذان أمها الأرستقراطية. من الأفضل أن نتوقف فالأصوات بلا أجساد، غريبة لدرجة أن المرء لا يتمتع بها.

صعدت الدرج إلى غرفة أبي الكبيرة حيث جلس والدي على الديوان

وعمي بجانبه يشربان الشاي. وقف الخدم على طول الحائط محدقين بي. لم ينته الامتحان حقاً فمازال أمامي الكثير. وبما أنني الآن على وشك البدء بالعيش كالبالغين، فعلى الأب أن يوجه ابنه إلى حكمة الحياة بطريقة رسمية وعلنية. كان ذلك مؤثراً وتقليدياً بعض الشيء: «بُنَيَّ، تبدأ الآن حياتك وعليَّ أن أذكرك مرة أخرى بواجبات المسلم. نحن نعيش هنا في بلاد الكفار وعلينا المحافظة على العادات القديمة إذا أردنا البقاء. بُنَي، صلِّ ولا تعاقر الخمر أو تقبّل النساء الغريبات. كن محسناً إلى الفقير والضعيف ومستعداً على الدوام لتجريد سيفك في سبيل عقيدتك. إن متَّ في ساحة القتال فسأندبك أنا الرجل العجوز، ولكنني سأشعر بالخجل أنا الرجل العجوز إن عشتَ بلا شرف. لا تسامح أعداءك فنحن لسنا مسيحيين، ولا تفكر بالغد لئلا تصبح جباناً. ولا تنسَ عقيدة محمد بالتأويل الشيعي للإمام جعفر». بدا عمي والخدم وكأنهم في نشوة مهيبة فقد استمعوا لكلمات والدي كما لو كانت وحياً. ثم وقف والدي وأخذ يدي وقال بصوته الذي ارتجف فجأة واصبح متكلفاً: «أود أن أرجو منك شيئاً... لا تدخل معترك السياسة. افعل ما شئت ولكن ليس السياسة». أستطيع بسهولة أن أقسم على ذلك بضمير حي فالسياسة بعيدة عن تفكيري، وأما نينو فليست قضية سياسية. احتضنني والدي مرة أخرى وصرت الآن بالغاً بالفعل.

في الرابعة والنصف تجولتُ قرب القلعة باتجاه المتنزه وكنت ما أزال متألقاً في بزتي الاحتفالية. ثم انعطفت إلى اليمين متجاوزاً قصر الحاكم إلى الحديقة التي بُذلت جهود جبارة لإنشائها في أرض باكو الصحراوية. أحسست بشعور غريب. تجاوزني حاكم المدينة في عربته، ولم أحييه تحية عسكرية لأنني لم أعد مضطراً لفعل ذلك كما كنت في السنوات الثماني الماضية. كنت قد نزعت عن معطفي عقدة الشريط الفضية لثانوية باكو معلناً أنني أحد المتخرجين. إذاً أنا أتجول الآن كمواطن عادي وللحظة مجنونة

لهوْتُ بفكرة أن أشعل سيجارة ليراني الجميع. ولكن كرهي للتبغ كان أقوى من إغراء الحرية فتخليت عن فكرة التدخين وعدت باتجاه المتنزه.

كان المتنزهُ حديقةً مغبرّة ذات أشجار صغيرة يبدو عليها الحزن. تحتوي على ممرات إسفلتية. يقع حائط القلعة القديم إلى اليمين وفي الوسط تبدو أعمدة نادي المدينة الرخامية البيضاء، ويصطف بين الأشجار عدد لا يحصى من المقاعد. وقفت ثلاثة من طيور النحام بين شجر النخيل المغبر تحدِّق بتركيز بقرص شمس الغروب. وبالقرب من النادي توجد البحيرة وهي خزان ضخم دائري وعميق بُنيَ من الحجارة. كانت فكرة مجلس المدينة أن يُملأ بالماء وتوضع فيه بجعات لتسبح فيه. ولكن هذا أقصى ما استطاعوا فالماء غالي الثمن ولم يكن في البلاد كلها بجعة واحدة. وهكذا حدق الخزان عالياً في السماء بلا نهاية كعملاق السيكلوب(*) المُحجَّر العينين.

جلستُ على المقعد والشمس تسطع خلف البيوت الرمادية وسقوفها المنبسطة المتشابكة بفوضى. صار خيال الأشجار خلفي أكثر طولاً. ثم مرّت قربي امرأة ترتدي حجاباً مخططاً وخفّاً يطقطق كحافر الحصان. ظهر خلف الحجاب أنف منحن ناتئ يزدريني، فنظرت بعيداً. ثم بدأ شعور غريب بالارتخاء يدب في أوصالي. إنه أمر جيد أن نينو لا ترتدي الحجاب وليس لديها أنف طويل منحنٍ. كلا، لن أجعل نينو ترتدي الحجاب، أم هل سأفعل؟ لم أعد أذكر. رأيت وجه نينو في وهج شمس الغروب. نينو كيبياني، اسم جورجي جميل وأهل محترمون لديهم ذوق الأوروبيين. ماذا يهمني من ذلك؟ فنينو تملك بشرة صافية وعينين قوقازيتين كبيرتين ضاحكتين تحت رموش طويلة ودقيقة. الجورجيات وحدهن يملكن عيوناً بهذه العذوبة والمرح. أما الفتيات الأخريات كالأوروبيات أو الآسيويات فلا يملكن عيوناً

(*) سيكلوب: عملاق من جيل من العمالقة (في الأساطير اليونانية) ذو عين واحدة في وسط الجبين. (قاموس المورد).

كهذه، ولا يملكن كذلك الحواجب الدقيقة بشكل الهلال وصورة جانبية تشبه المادونا. كنت حزيناً لأن المقارنة أشعرتني بالاكتئاب. هنالك الكثير من المقارنات لرجل يعيش في الشرق. لكن هؤلاء النسوة لا يمكن إلا أن تشبهن مريم المسيحية، رمز عالم غريب عَصِي على الفهم.

نظرتُ أسفل الممر الإسفلتي إلى حديقة الحاكم المغطاة بالرمل المتوهج القادم من الصحراء الكبيرة. أغلقتُ عيني فسمعت ضحكة لا مبالية بجانبي: «يا للقديس سانت جورج، انظروا إلى روميو يغلبه النعاس وهو ينتظر حبيبته جولييت». قفزت لأرى نينو واقفة تنظر إليَّ وهي ما تزال مرتدية الزي الأزرق المحتشم لمدرسة القديسة تامار. كانت نحيلة جداً، بل أكثر نحافة مما يتطلبه الذوق الشرقي، لكن عيبها هذا كان يجعلني أشعر برغبة حنونة في حمايتها. كانت في السابعة عشرة من عمرها وقد عرفتها منذ مشت في شارع نيقولاي في يومها الأول في المدرسة. جلست نينو ولمعت عيناها: «إذاً نجحتَ رغم كل شيء، كنت أشعر بالخوف عليك».

وضعت يدي حول كتفيها وقلت لها: «كان الأمر مثيراً. ولكن ألا ترين أن الله يساعد من يخافه».

ابتسمت نينو وقالت: «خلال سنة من الآن عليك أن تلعب دور الله بالنسبة لي فأنا لا أستطيع الاستغناء عن جلوسك تحت مقعدي خلال الامتحان لتهمس لي بأجوبة امتحان الرياضيات».

حدث ذلك منذ عدة سنوات عندما كانت نينو في الثانية عشرة من عمرها تستحم في دموعها، عندما ركضت في الشارع خلال فترة الفرصة وسحبتني إلى صفها حيث جلستُ تحت مقعدها خلال كامل الحصة لأهمس لها بحل مسائل الرياضيات. ومنذ ذلك اليوم صرت بطلاً في نظرها.

سألتْ نينو «كيف هي أحوال عمك وحريمه؟ فتجهمتُ لأن الحديث

عن شؤون الحريم تُحفظ عادة سراً. لكن جميع قواعد اللياقة الشرقية تتلاشى أمام فضول نينو البريء. ضاعت يدي في شعرها الداكن ثم قلت: «حريم عمي على وشك العودة إلى المنزل، المدهش في الأمر أن الطب الغربي قد نفع على ما يبدو وإن لم يتأكد ذلك حتى الآن، يبدو أن عمي هو الذي ينتظر المولود وليست الخالة زينب».

تغضن حاجب نينو الطفولي: «ذلك ليس بالأمر الجيد، إن والدي ضد هذا الأمر فالحريم أمر شائن». كانت تتحدث كطالبة مدرسة حفظت درسها. لمستْ شفتي أذنها فقلت لها: «لن يكون لديّ حريم يا نينو، أبداً».

«لكنني أفترض أنك ستجعل زوجتك ترتدي الحجاب».

«ربما، الحجاب مفيد، إنه يحمي من الشمس والغبار ونظرات الغرباء».

تَوَرّدَ وجه نينو: «ستظل آسيوياً على الدوام يا علي، ما الخطأ في نظرات الغرباء؟ فالمرأة ترغب في إرضاء الغير».

«عليها فقط أن ترضي زوجها. فالوجه المكشوف والظهر العاري والصدر نصف المكشوف والجوارب الشفافة على الساقين النحيلتين وعُودٌ على المرأة أن تفي بها. الرجل الذي يرى كل ذلك يرغب برؤية المزيد، لذلك على المرأة أن تلبس الحجاب لتحمي الرجل من هذه الرغبات».

نظرت إليَّ نينو بدهشة. «هل تظن أن الفتيات في السابعة عشرة والفتية في التاسعة عشرة في أوروبا يتكلمون عن هذه الأشياء؟».

«لا أعتقد ذلك».

«إذاً، لن نتكلم عن ذلك نحن أيضاً»، قالت نينو بحزم وضغطت على شفتيها. انزلقت يداي على شعرها ثم رفعت نينو رأسها. انعكس آخر شعاع من غروب الشمس في عينيها، انحنيت باتجاهها ففتحت شفتيها بحنان وإذعان فقبلتها لفترة طويلة جداً وبطريقة غير مناسبة. تنفّست نينو بصعوبة ثم

ابتعدت عني. جلسنا صامتين نحدّق في الشفق، ثم وقفنا بعد برهة ونحن نشعر بالخجل وغادرنا الحديقة يداً بيد. «بالفعل عليَّ أن أرتدي الحجاب»، قالت نينو بينما كنا نغادر. «أو أفي بوعدك»، ابتسمتْ بخجل. صار كل شيء على ما يرام ثانية ورافقتها إلى المنزل.

«سأحضر حفلتكَ بالطبع»، قالت نينو.

«ماذا ستفعلين في الصيف يا نينو؟»

«في الصيف؟ سنذهب إلى شوشا في كاراباخ. لكن لا تكن مغروراً لأن هذا لا يعني أنك ستأتي إلى شوشا أيضاً».

«حسناً، سأراك في شوشا في الصيف».

«أنت فظيع، لا أعلم لماذا تعجبني»، ثم أغلقت الباب خلفها.

ذهبت إلى المنزل. ابتسم مخصي عمي ذو الوجه الذكي الذي يشبه السحلية الذابلة ابتسامة عريضة وقال: «النساء الجورجيات جميلات ياخان، لكن لا ينبغي تقبيلهن علناً في الحدائق العامة فالكثير من الناس يمرون قربكم». قرصته في أذنه الشاحبة، فالمخصي يستطيع أن يكون وقحاً كما يشاء، فهو ليس بالذكر ولا بالأنثى. ثم ذهبت لأرى والدي. «كنتَ قد مَنَحتني ثلاث أمنيات، أنا أعلم الآن ما الأمنية الأولى: أريد قضاء الصيف وحدي في كاراباخ». نظر والدي طويلاً إليَّ ثم ابتسم وهو يهز رأسه موافقاً.

4

كان سِيْنالْ آغا فلاحاً بسيطاً من قرية بينيجادي قرب باكو. وكان يملك قطعة أرض صحراوية، جافة ومغبرّة يزرعها إلى أن أدت الهزات الأرضية الخفيفة التي تحدث يومياً إلى حدوث شق في أرضه تدفقت منه أنهار من النفط. ومنذ ذلك الحين لم يعد سِيْنالْ آغا بحاجة لأن يكون ماهراً أو ذكياً، ولم يستطع الهرب من ذلك المال فأنفقه بكرم وسخاء. لكن المزيد من المال تراكم أكثر فأكثر وكان ذلك يشكل عبئاً عليه إلى أن دمّره. كان يشعر أن العقاب لا بد أن يتبع ذلك الحظ السعيد إن عاجلاً أم آجلاً، فعاش حياته ينتظره كما ينتظر المحكوم إعدامه. بنى المساجد والمستشفيات والسجون وحج إلى مكة كما بنى داراً للأيتام. لكن القدر لا يقبل الرشوة، ففي سن السبعين تزوج بفتاة في الثامنة عشرة ألحقت به العار، فانتقم لشرفه بقسوة ووحشية كما ينبغي، ثم أصبح رجلاً مُتعباً. تمزقت أسرته، فتركه أحد أولاده. أما الآخر فقد جلب له العار الذي لا يمكن الحديث عنه، عندما اقترف خطيئة الانتحار. وهو الآن يعيش في باكو في قصره ذي الأربعين غرفة كئيباً ومحدوداً. كان إلياس بيغ، الولد الوحيد الذي بقي لديه، أحد تلامذة صفنا. وهكذا أُقيم الحفل في منزل سِيْنالْ آغا في الصالة الكبيرة ذات السقف المصنوع من الكريستال الصخري.

وصلتُ في الساعة الثامنة إلى الدرج الرخامي العريض حيث وقف إلياس بيغ مستقبِلاً الضيوف. وكان مثلي مرتدياً اللباس الشركسي ويضع في حزامه خنجراً أنيقاً نحيلاً. فمن الآن فصاعداً صار بإمكاننا التمتع بهذا

الامتياز. أمسكتُ قبعتي بيدي اليمنى وحييته قائلاً: «السلام عليكم، إلياس بيغ». ثم تصافحنا بالطريقة المحلية القديمة وأنا أضغط بيدي اليمنى على يمناه وهو بدوره يضغط بيسراه على يدي اليسرى. همس في إذني قائلاً: اليوم سنغلق بيت الجذام فأومأت برأسي مبتهجاً.

كان بيت الجذام اختراع صفنا الذي بقي سراً فيما بيننا. لم تكن لدى الأساتذة الروس أية فكرة عما يجري في مدينتنا أو في الريف المجاور حتى لو استمرت إقامتهم وعملهم هنا لسنوات، فبالنسبة إليهم لم نكن سوى جماعة من المحليين المتوحشين بإمكانهم فعل أي شيء. لذلك أخبرناهم بوجود بيت للجذام قرب باكو، وعندما يرغب أحدنا بالهرب من المدرسة، يذهب المتحدث بلسان الصف إلى الأستاذ ويهمس له أن بعض المرضى أصيبوا بطفح جلدي وأصبحوا في مدينتنا وأن الشرطة تبحث عنهم. ثم يخبر المتحدثُ باسم الصف الأستاذَ أنه من المفترض أن يختبئ هؤلاء في الجزء من المدينة حيث يعيش التلاميذ الذين يرغبون بالغياب عن المدرسة لبعض الوقت. حينذاك يغدو وجه الأستاذ أبيضَ ويعطي التلاميذ الإذن بالبقاء بعيداً حتى يتم إلقاء القبض على المرضى وقد يستمر ذلك الوقت أسبوعاً وأحياناً أكثر من ذلك. لم يفكر أي أستاذ بالتقصي في مكتب مكافحة الأمراض عما إذا كان هناك حقاً بيت للجذام في الجوار. أما الليلة فسيُغلق بيت الجذام.

ذهبت إلى الصالة المزدحمة حيث يجلس الأساتذة والمدير وقد رسموا على وجوههم نظرة مهيبة تتكلف العظمة والجلال لتتناسب مع هذه المناسبة. تقدمت من المدير وانحنيت له باحترام. كنت الناطق بلسان الطلاب المسلمين عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع المدير لأنني أمتلك موهبة محاكاة اللغات واللهجات. وبينما كان يظهر على معظمنا أنه لا ينتمي إلى جذور روسية عندما ينطق أول جملة بالروسية، كنت أستطيع تقليد اللهجات المختلفة. كان مديرنا من بطرسبورغ لذلك كان علي التحدث بلهجة مدينته فألثغ الأحرف الساكنة وأبتلع الأحرف الصوتية. لا يبدو وقع ذلك جميلاً على الأذن لكنه

يعتبر ذا منزلة غاية في الرفعة. لم يكن المدير حتى ليتخيل أنني أمازحه وكان سعيداً من التقدم الذي تحرزه عملية التحول إلى الروسية في هذه المنطقة الحدودية البعيدة.

«مساء الخير سيدي»، قلت بتواضع.

«مساء الخير شيرفانشير، هل تعافيت من خوف الامتحانات؟»

«أجل سيدي، ولكنني عانيت منذ ذلك الحين من صدمة رهيبة».

«لم ذلك؟»

«حسناً، الأمر يتعلق ببيت الجذام. كان ابن عمي سليمان هناك، أنت تعلم أنه ملازم في فوج سالجان. لقد مرض بسبب ذلك الأمر واضطررت للاعتناء به».

«ما مشكلة بيت الجذام هذا؟»

«أوه، ألا تعلم يا سيدي؟ البارحة أصيب جميع المرضى بطفح جلدي ومشوا نحو المدينة. اضطرَّتْ سريتان من فوج سالجان إلى العودة لتتكفل بأمرهم. احتل المرضى قريتين فحاصرهم الجنود وأطلقوا النار على الجميع سواء كانوا مرضى أم أصحاء والآن تم حرق جميع المنازل. أليس ذلك رهيباً يا سيدي؟ زال بيت الجذام. سقطت منهم قطع من اللحم المريض والمتعفن والحناجر المجلجلة خارج بوابة المدينة ويتم الآن إغراقها بالنفط ببطء وحرقها حتى الموت. ظهرت قطرات من العرق على جبين المدير. كان على الأغلب يفكر فيما إذا حان الوقت ليطلب من الوزير نقله إلى مكان أكثر تحضراً.

«بلد رهيب، شعب رهيب»، قال بصوت مبحوح. «ولكن أترون يا أبنائي مدى أهمية وجود حكومة كفوءة وحكام يتصرفون بسرعة». تجمع تلامذة الصف حول المدير واستمعوا مبتسمين إلى محاضرة عن نعمة النظام. وهكذا انتهى بيت الجذام وأصبح على خلفائنا ابتكار أفكار جديدة بأنفسهم.

«هل يعلم سيدي أن ابن محمد حيدر في سنته الثانية في مدرستنا؟» سألتُ ببراءة.

«ماذذا؟ جحظت عينا سيدي، فقد كان محمد حيدر لعنة المدرسة إذ كان يبقى على الأقل ثلاث سنوات في كل صف. تزوج في سن السادسة عشرة ولكنه استمر في الذهاب إلى المدرسة. كان ولده في التاسعة من عمره ودخل إلى المدرسة نفسها. حاول الأب السعيد إبقاء الأمر طي الكتمان في بداية الأمر، لكن في أحد الأيام تقدم منه طفل صغير وبدين خلال فترة الاستراحة الكبيرة وقال له باللهجة التترية وهو ينظر إليه بعينيه الكبيرتين البريئتين: «بابا، إن لم تعطني خمسة كوبيات لأشتري الشكولاته فسأخبر أمي أنك نقلت وظيفة الرياضيات من أحدهم». شعر محمد حيدر بالخجل الشديد فضرب الطفل المزعج على أذنيه وطلب إلينا إخبار المدير بأبوته في وقت مناسب.

«هل تعني أن محمد حيدر الطالب في الصف السادس لديه ولد في الصف الثاني؟ سأل المدير.

«انه كذلك. وهو يطلب مغفرتك ويريد لولده أن يكون تلميذاً مثله. إنه لأمر مؤثر كيف تنتشر الرغبة في العلم الغربي». احمر وجه المدير وتساءل بصمت عما إذا كان وجود أب وابنه في المدرسة نفسها مخالفاً للقوانين والأنظمة، لكنه لم يصل إلى قرار. وهكذا فسيُسمح للأب والولد بإقامةٍ متواصلة في قلعة الحكمة الغربية.

فُتِحَ باب صغير ودفع طفل في العاشرة من عمره بالستارة الثقيلة جانباً ليقود أربعة من الموسيقيين المكفوفين السمر القادمين من فارس. ذهبوا إلى زاوية في الصالة وهم ممسكون بأيديهم معاً ثم جلسوا على السجادة وكانت آلاتهم الغريبة قد صُنعت في فارس منذ عدة قرون. سمعت نغمة حزينة

ووضع أحد الموسيقيين يده على أذنه وهي الوضعية الكلاسيكية للمُغنّي الشرقي. أصبحت الصالة هادئة ثم ضرب موسيقي آخر على الدف بحماس وبدأ المغني بالغناء بصوت عالي الطبقة:

قوامكِ كالخنجر الفارسي

فمك كالزمردة المتوهجة

ولو كنت سلطاناً تركياً لجعلتك زوجتي

ولخطتُ اللؤلؤ في ثنيات ثوبك

وقبّلت عقبي قدميك

وأحضرتك في وعاء ذهبي

يا قلبي.

صمتَ المغني ثم ارتفع صوت زميله عالياً، قاسياً وممتلئاً بالكره:

وفي كل ليلة

تعدو كالجرذ

خلال الساحة إلى منزل الجيران.

أصبحت نغمة الدف وحشية ونشجَ الكمان ذو الوتر الواحد ثم صرخ المغني الثالث بانفعال:

إنه شخص حقير وكافر

واأسفاه، يا لسوء الحظ، يا للعار.

عم الصمت للحظة وبعد ثلاثة أو أربعة فواصل موسيقية بدأ المغني الرابع بالغناء برِقّة ورومانسية وحتى بحنان:

بقيت ثلاثة أيام أشحذ خنجري.

وفي اليوم الرابع طعنت عدوّي حتى الموت

وقطعته إرباً

ورميت بك يا حبيبتي فوق صهوة جوادي

وغطيت وجهي بملابس الحرب

وذهبت وإياك إلى الجبال.

وقف المدير ومعلم الجغرافيا قربي. ثم قال المدير بهدوء: «يا لها من موسيقا رهيبة، إنها كحمار قوقازي يصرخ في الليل. أتساءل ماذا تعني الكلمات؟»

«ربما لا شيء. إنها فقط كالموسيقا».

كنت على وشك الذهاب بعيداً على رؤوس أصابعي عندما لاحظت تحرك الستارة الدمقسية(*) الثقيلة خلفي. نظرتُ حولي بحذر، كان رجلاً ذا شعر أبيض كالثلج وعينين فاتحتين غريبتين، يقف خلف الستارة يستمع إلى الموسيقا ويبكي: إنه صاحب السعادة سِيْنالْ آغا، والد إلياس بيغ. ارتجفت يداه الناعمتان ذات العروق الزرقاء العريضة. بالكاد تستطيع هاتان اليدان كتابة اسم صاحبها ولكنها تسيطر على أكثر من سبعين مليون روبل. نظرتُ بعيداً، كان سِيْنالْ آغا فلاحاً بسيطاً ولكنه أكثر معرفة بفن الغناء من هؤلاء الأساتذة الذين أعلنوا أننا أصبحنا بالغين. انتهت الأغنية وبدأ الموسيقيون بعزف رقصة قوقازية. تمشيتُ في الصالة، كان الطلاب واقفين في مجموعات وكانوا يشربون الخمر حتى المسلمون منهم، لكنني لم أشرب. كانت الفتيات والأخوات وأصدقاء تلامذة صفنا يتحادثون في الزوايا. وكانت هناك بعض الفتيات الروسيات بضفائر ذهبية، وأعين رمادية أو زرقاء

(*) دمقسي: لون أحمر ضارب إلى الرمادي. م.

ووجوه تغمرها البودرة. كن لا يتحدثن إلا للروس وربما للأرمن والجورجيين. ولكنهن يشعرن بالإحراج إذا حاول أحد المسلمين الاقتراب منهنّ فيقهقهن وينطقن ببعض الكلمات ثم يذهبن بعيداً. فتح أحدهم البيانو وبدأ يعزف الفالس فرقص المدير مع ابنة الحاكم.

وأخيراً سمعتُ صوتها قادماً من الدرج «مساء الخير إلياس بيغ، أنا متأخرة بعض الشيء ولكن ذلك ليس خطئي»، فأسرعتُ بالخروج. لم تكن نينو ترتدي ثياب السهرة أو البزة النظامية لمعهد القديسة تامار. بل تدلى على كتفيها معطف مخملي قصير لغاية خصرها ذو أزرار ذهبية وكان خصرها معقوداً برباط محكم ويبدو نحيلاً لدرجة أنني أستطيع قياسه بيد واحدة. وكانت ترتدي كذلك تنورة مخملية سوداء تصل أسفل قدميها وتظهر النقط المذهبة في خفها المصنوع من جلد الجدي. وعلقت على شعرها قبعة دائرية تدلّى منها على جبينها صفان من الليرات الذهبية الثقيلة. كان ذلك الثوب الاحتفالي القديم لأميرة جورجية وكان وجه نينو كوجه سيدة بيزنطية. ضحكت السيدة: «كلا علي خان يجب ألّا تغضب، فعقد هذه التنورة قد يستغرق ساعات وقد حشرت نفسي في داخلها من أجلك».

«الرقصة الأولى لي»، قال إلياس بيغ.

نظرتْ نينو إليَّ فهززت رأسي موافقاً فأنا راقص سيء، حتى إنني لا أحب الرقص كما أنني أثق بإلياس بيغ مع نينو فهو يحسن التصرف. «ابتهال شامل»، صاح إلياس بيغ بالموسيقيين فعلَت على الفور نغمات عاصفة. قفز إلياس بيغ إلى منتصف الساحة وسحب خنجره، بينما تحركت قدماه على النغم الناري للموسيقا القوقازية الجبلية. لمعت شفرة الخنجر في يده وبدأت نينو ترقص متقدمة باتجاهه، بدت قدماها كلعبة صغيرة غريبة، وبدأ سر شامل وصفّقنا على نغمات الموسيقا. كانت نينو العروس التي ستُخطف. وضع إلياس بيغ الخنجر بين أسنانه وفرد يديه كالطائر المفترس وبدأ بالدوران حول

الفتاة. بدأت نينو بدورها بالدوران حول الصالة وكانت يداها المطواعتان تصور جميع مراحل الخوف واليأس والإذعان. كانت تحمل منديلاً في يدها اليسرى، ثم ارتجف جسدها بكامله وبقيت الليرات الذهبية وحدها ثابتة على جبينها وهي الطريقة الصحيحة للرقص وأصعب جزء من الرقصة. النساء الجورجيات وحدهن من يستطعن الدوران بهذه الطريقة السريعة والرائعة دون أن ترن أية قطعة نقدية على قبعتهن. جرى إلياس بيغ خلفها وطاردها بلا هوادة حول الحلقة. صارت حركات يديه القاسية أكثر هيمنة وحركات نينو الدفاعية أكثر فأكثر لطفاً. ثم توقفت أخيراً كالأيل الذي باغته الصياد. بدأ إلياس بيغ بالدوران أقرب فأقرب، وغدت عينا نينو أكثر لطفاً وتواضعاً وارتجفت يداها. ثم علتْ وتيرة الموسيقا بصرخة وحشية قصيرة ففتحت نينو يدها اليسرى ليتهاوى منها المنديل مرفرفاً في الهواء. وفجأة طار خنجر إلياس بيغ ليثبت المنديل الحريري على الأرض وهكذا انتهت الرقصة الرمزية.

وبالمناسبة هل ذكرتُ أنني وإلياس بيغ تبادلنا الخناجر قبل الرقصة؟ كان خنجري هو الذي ثقب منديل نينو. من الأفضل أن يأخذ المرء احتياطاته لأن هناك قاعدة حكيمة تقول: «اربط جملك إلى السياج قبل أن تتركه في حماية الله».

5

«عندما وضع أجدادنا الشهيرون، يا خان، أقدامهم في هذا البلد للمرة الأولى حيث كان عليهم أن يكوّنوا لأنفسهم اسماً كبيراً يدعو للخوف، صرخوا «كاراباك» أي «انتبه هناك ثلج»، ولكنهم عندما وصلوا إلى الجبال وشاهدوا الأدغال صاحوا «كاراباخ» أي «الحديقة السوداء» ومنذ ذلك اليوم أصبح هذا البلد يُدعى كاراباخ. وكان يُدعى قبل ذلك سونيك وقبله أيضاً كان يُدعى أغوار. يجب أن تعلم ياخان أننا في بلد قديم جداً وشهير»، قال في صمت جليل مضيفي العجوز مصطفى الذي استأجرت منه بضعة غرف. ثم شرب مصطفى العجوز كأساً صغيراً من خمر فواكه كاراباخ وقطع قطعة صغيرة من الجبنة الغريبة على نمط جدائل لا تحصى تشبه جدائل الفتيات. تابع مصطفى العجوز قائلاً: «يعيش الكاروليك (الأشباح السوداء) في جبالنا وهم ـ كما يعلم الجميع ـ يحرسون كنوزاً هائلة. هناك أحجار نادرة في الغابات وينابيع مقدسة تتدفق مياهها. لدينا كل شيء؛ تنزّهْ في المدينة وانظر حولك، هل يعمل أحد؟ بالكاد لا أحد. هل ترى من هو حزين؟ لا أحد. هل هناك من هو صاحٍ؟ لا أحد. ستصاب بالدهشة يا سيدي.

دهشتُ بالفعل من هذه المقدرة الرائعة لهؤلاء الناس على الكذب، فهم قد يخترعون أية قصة لتمجيد بلدهم، ففي البارحة حاول أرمني بدين أن يخبرني أن كنيسة ماراس المسيحية في شوشا تعود إلى خمسة آلاف سنة خلت. «لا تتفوه بتلك القصص التي لا يمكن تصديقها»، قلت له، «فالعقيدة

المسيحية لم يمض على وجودها ألفا عام حتى الآن، ولا يمكن أن تُبنى كنيسة مسيحية قبل وجود الدين المسيحي». جُرِح شعور الرجل البدين وقال لي بملامة: «أنت بالطبع رجل مثقف ولكن دع الرجل العجوز يقول لك: إن الدين المسيحي يمكن أن يكون قد وُجِد بالفعل منذ ألفي عام أما بالنسبة لنا أهل كاراباخ فالمُخلّص أنار شعاعه عندنا قبل الآخرين بثلاثة آلاف عام. هكذا هو الأمر». وبعد خمس دقائق قال لي الرجل نفسه دون أن يطرف له جفن أن الجنرال الفرنسي مورات كان أرمنياً من شوشا وأنه قد ذهب إلى فرنسا عندما كان طفلاً ليرفع اسم كاراباخ في فرنسا أيضاً. حتى إنني عندما كنت في طريقي إلى شوشا أشار حوذي عربتي بإصبعه إلى جسر حجري صغير كنا على وشك أن نعبره وأخبرني أن الاسكندر المقدوني هو من بناه عندما انطلق وصنع انتصاراته الخالدة في فارس. رأيت الرقم 1897 منقوشاً على حاجز الجسر بأحرف كبيرة فأشرت بذلك للحوذي، فلَوّح بيده قائلاً: «لقد حفرها الروس لاحقاً بسبب غيرتهم من أمجادنا».

شوشا مدينة غريبة تقع على علو خمسة آلاف متر تحيط بها الغابات والأنهار، ويعيش فيها الأرمن والمسلمون بسلام. كانت لعدة قرون الجسر الذي يصل بلاد القوقاز بفارس وتركيا. كان للنبلاء المحليين: ناتشارارس والمليك من الأرمن والبيغ والأغارار من المسلمين منازل في الهضاب والوديان حول المدينة. وغالباً ما يطلق الناس بافتراضاتهم الصبيانية المحببة اسم قصور على أكواخهم الطينية، وهم لا يتعبون من الجلوس على الأدراج المؤدية إلى منازلهم، يدخنون الغليون ويخبرون بعضهم البعض كم مرة أنقذ جنرالات كاراباخ الإمبراطورية الروسية حتى القيصر نفسه، وكم سيكون القدر رهيباً لو أنيط بغيرهم أمر الدفاع عنهم. بقيتُ وخادمي (الكوتشي) سبع ساعات على الطريق المهتز لنصعد إلى شوشا. والكوتشي هم خدم مسلَّحون لديهم نزعة نحو اللصوصية، يملكون وجوه المحاربين وهم مدججون بالخناجر

والسيوف والمسدسات والذخيرة وغالباً ما يغرقون في صمتٍ مطبق. ربما كانوا يتأملون في حياة السلب واللصوصية البطولية، وربما كانت هذه طريقتهم ولا تعني شيئاً. أصرَّ والدي على استخدام الكوتشي، ربما لحمايتي من الغرباء أو لحمايتهم مني. لكن لم يكن الأمر مشكلة بالنسبة إليَّ فقد كان الكوتشي رجلاً طيباً ويرتبط بطريقة ما بأسرة شيرفانشير ويُعتمد عليه بقدر الاعتماد على الخدم الشرقيين.

مضت خمسة أيام على وصولي إلى شوشا وأنا أنتظر نينو وأستمع إلى جميع من قابلتهم يحدثونني طوال النهار عن أن جميع الأغنياء والشجعان والأشخاص المميزين في العالم قد قدموا من شوشا. رأيت حدائق المدينة وعددت أبراج الكنائس والمآذن. من الواضح أن شوشا مدينة شديدة التدين فالسبع عشرة كنيسة والمساجد العشرة عدد أكثر من كافٍ للستين ألف ساكن. كما كان هناك عددٌ لا يحصى من الأماكن المقدسة قرب المدينة، لكن القبور المشهورة والكنائس وشجرتي طريق سانت ساري بيغ كانت أهمها بلا ريب. سحبني أصدقائي الجدد المتباهون إلى هناك منذ اليوم الأول. كان قبر القديس على مسافة ساعة من شوشا، وفي كل عام تحج المدينة بأسرها إلى هناك وتُقام المآدب في الأيكة المقدسة. أما شديدو الورع فيقطعون المسافة إلى هناك على ركبهم، إن ذلك ليس بالأمر المريح ولكنه يشدد على تقدير مكانة الحجاج الورعين. تنمو شجرتان قرب قبر القديس ويعتبر لمسهما تدنيساً للمقدسات. وإن حاولت لمس ورقة واحدة فستُشل في الحال. كانت قوة القديس عظيمة، بيد أنه ليس من الممكن القول ما إذا كان ذلك أو أية معجزات أخرى للقديس قد حصلت بالفعل. وللتعويض عن ذلك، حدثوني بأدق التفاصيل عن القديس الذي طارده الأعداء فصعد إلى الجبال ثم إلى القمة حيث تقع شوشا اليوم. ثم اقترب منه أعداؤه فقفز حصانه قفزة رائعة متجاوزاً الجبال والصخور ومدينة شوشا بأكملها. وعند مكان هبوط الحصان

يستطيع الورعون رؤية علامات حافر الحصان النبيل مطبوعة عميقاً حتى يومنا هذا. تلك كانت قصتهم وعندما تجرأتُ وأثَرْتُ بعض الشكوك حول إمكانية حصول مثل هذه القفزة أجابوني ساخطين: «ولكن يا سيدي، إنه حصان من كاراباخ..!!؟».

ثم حدثوني عن قصة حصان كاراباخ قائلين: «كل شيء في البلد جميل، لكن الأجمل على الإطلاق هو حصان كاراباخ، هذا الحصان الأسطوري الذي عرض شاه فارس آغا محمد مقايضته بجميع حريمه». (هل يعلم أصدقائي أن آغا محمد كان مخصياً؟). «كان هذا الحصان شبه مقدس»، تابعوا قائلين. «فكّر الرجال الحكماء ملياً بأمر تزاوجه لعدة قرون قبل أن يولد معجزة التناسل هذا: أفضل حصان في العالم، حصان كاراباخ الأحمر الذهبي النبيل». ثار فضولي بعد سماع هذا القدر من المديح فطلبت منهم رؤية أحد هذه الأحصنة الرائعة فنظر إليَّ رفاقي بإشفاق قائلين: «الدخول عنوة إلى حريم السلطان أسهل من الدخول إلى إسطبل كاراباخ. لا يوجد سوى اثني عشر حصاناً أحمر ذهبياً أصيلاً في المدينة، ولرؤيتها على المرء أن يصبح سارق خيول. ومالك الحصان لا يمتطيه إلا إذا اندلعت الحرب». كان عليَّ إذاً الاكتفاء بالحكايات التي قصوها عليَّ عن الحصان الأسطوري.

جلستُ على الشرفة في شوشا أنتظر نينو وأستمع إلى ثرثرة مصطفى العجوز وقد أحببتُ هذا البلد ذا الحكايات الخرافية. «آه يا خان، لقد شن أجدادك الحرب ولكنك جلستَ في بيت الحكمة وغدوتَ رجلاً متعلماً، إذاً أنت سمعت بالفنون الجميلة. الفارسيون يفخرون بسعدي وحفيظ والفردوسي والروس يفخرون ببوشكين وفي الغرب البعيد هناك شاعر يدعى غوته كتب قصيدة عن الشيطان».

قاطعته قائلاً: «وهل كل هؤلاء الشعراء من كاراباخ أيضاً».

«لا يا سيدي النبيل، لكن شعراءنا أفضل، حتى إن كانوا يرفضون أسرَ كلماتهم في الطباعة الميتة. إن اعتزازهم بأنفسهم يمنعهم من تدوين قصائدهم، هم فقط يلقونها».

«من هم هؤلاء الشعراء؟ الآشوك؟»

«أجل، الآشوك»، قال العجوز وهو يفكر ملياً. إنهم يعيشون في القرى المجاورة لشوشا ولديهم مسابقة غداً، هل ستذهب وتتعجب لشعرهم؟ يعيش الشعراء المحليون في جميع قرى شوشا تقريباً، وهم ينظمون الشعر في الشتاء ويخرجون في الربيع إلى العالم لقراءة أشعارهم في الأكواخ والقصور. لكن هناك ثلاث قرى لا يقطنها سوى الشعراء، ولإظهار مدى تقدير الشرق للشعر أُعفِيتْ هذه القرى الثلاث من جميع الضرائب والأتاوات. وطشقندا هي إحدى هذه القرى.

لا يحتاج المرء سوى لنظرةٍ عابرةٍ ليتيقن أن الرجال في هذه القرى ليسوا بالفلاحين العاديين. كانت شعورهم طويلة ويرتدون الحرير وينظرون إلى بعضهم بشك. مشت النساء خلفهم يحملن الأدوات الموسيقية ويبدون كئيبات. كان في القرية الكثير من الأرمن والمسلمين الأغنياء الذين قدموا من جميع أرجاء البلاد لإبداء إعجابهم بالآشوك. تجمّع حشد متلهف في الساحة الرئيسية الصغيرة ووقف في منتصف الساحة اثنان من سادة الغناء البواسل ليبدأا مبارزتهما العنيفة وهما ينظران إلى بعضهما بازدراء وشعرهما يتأرجح في النسيم. صاح أحدهما: «ثيابك متعفنة من الروث، ووجهك يشبه وجه الخنزير، وموهبتك رقيقة كالشعر على بطن العذراء، وقد تنظم شعراً تذم به نفسك من أجل حفنة من المال».

أجاب الآخر وهو يعوي بشكل مُروِّع: «أنت ترتدي ثوب القوّاد، وصوتك كصوت المخصي، ولا تستطيع بيع موهبتك لأنك لا تمتلكها أصلاً، وأنت تعيش على الفتات الذي يسقط عن مائدة العيد التي تفرشها عبقريتي».

وهكذا استمرا بحماس يهاجم أحدهما الآخر بألفاظ نابية مقززة والجمهور يصفق. ثم أعلن العجوز ذو الشعر الرمادي والوجه الحواري موضوع المنافسة: «القمر فوق نهر آراكس»، و«موت آغا محمد شاه». نظر الشاعران عالياً إلى السماء ثم بدأا بالغناء. غنيا عن المخصي الشرس آغا محمد شاه الذي سافر إلى تفليس لاستعادة رجولته الضائعة في ينابيع الكبريت. وعندما فشلت الينابيع في مساعدته، دمَّرَ المخصي المدينة، أعدم بوحشية جميع رجالها ونسائها. لكن القدر عاجله في طريق عودته إلى كاراباخ حيث طُعن حتى الموت في خيمته وهو نائم ليلاً. لقد عانى خلال حملته الجوع، أكل خبزاً أسود وشرب الحليب الفاسد، كما غزا عدداً لا يحصى من البلدان ولكنه كان أفقر من المتسوِّل في الصحراء. غنّى الشعراء ذلك كله في أبيات كلاسيكية. وَصَفَ أحدهما مطولاً معاناة المخصي في بلد أجمل نساء العالم، بينما وصف الآخر مطولاً كذلك إعدام تلك النساء. كان الجمهور راضياً ونضحت قطرات من العرق على جبين الشاعرين. ثم صاح الشاعر ذو الكلام الأرق: «ما الذي يشبه القمر فوق أراكس؟»

قاطعه الشاعر المتجهم قائلاً: «وجه محبوبتك».

صاح ذو الكلام الأرق: «إن وجه القمر الذهبي معتدل».

«كلا، إنه كترس المحارب المهزوم»، أجاب الشاعر المتجهم. ثم خلا كلاهما من التشابيه مع مرور الوقت وغنى كل منهما أغنية عن جمال القمر ونهر آراكس الذي ينعطف في السهول كجديلة العذراء، كما غنيا عن العشاق الذين يأتون إلى ضفافه ليلاً لينظروا إلى انعكاسات القمر على مياه آراكس. أُعْلِن الشاعر المتجهم فائزاً، فأخذ عود خصمه وهو يبتسم ابتسامة شريرة. ذهبتُ إليه. كان يبدو كئيباً، بينما كان وعاؤه ممتلئاً بقطع النقود. فسألته: «هل أنت سعيد بانتصارك؟».

بصق على الأرض باشمئزاز: «هذا ليس انتصاراً يا سيدي، في الماضي

كانت هناك انتصارات. فقبل مئة سنة كان يُسمح للمنتصر أن يقطع رأس المهزوم. كانوا يقدرون الفن عالياً في تلك الأيام أما الآن فقد أصبحوا ليّنين ولم يعد أحد مستعداً للتضحية بدمه من أجل قصيدة».

«هل أنت الأفضل في البلاد؟»

«لا، أنا مجرد هاوٍ فلست بآشوك حقيقي»

«وما هو الآشوك الحقيقي؟»

أجاب الشاعر المتجهم: «هناك ليلة في رمضان تدعى ليلة القدر. وفيها تنام الطبيعة لمدة ساعة فتتوقف الأنهار عن الجريان ولا تحرس الأرواح الشريرة كنوزها ويمكن سماع حديث العشب والأشجار. كما تظهر الحوريات في الأنهار ويصبح المولودون خلال الليل رجالاً حكماء وشعراء. وفي تلك الليلة على الشاعر أن يدعوَ النبي إلياس، القديس حامي الشعراء. ويظهر النبي في الساعة المناسبة ويسقي الشاعر من وعائه ويقول له: «من الآن فصاعداً أنت آشوك حقيقي. سترى كل ما في هذا العالم بعيني. ومن تناله هذه البركة يسيطر على جميع العوامل: فالحيوانات والرجال والرياح والبحار تطيع أمره لأن كلماته هي سلطة النبي». جلس الشاعر المتجهم على الأرض واضعاً رأسه بين يديه ثم بكى بسرعة وبمرارة وقال: «لكن لا أحد يعلم أية ليلة هي ليلة القدر أو أية ساعة هي ساعة النوم ولم يعد هناك آشوك حقيقيون». ثم وقف وذهب بعيداً وحيداً، سوداوياً وكئيباً كذئب من السهوب في جنة كاراباخ الخضراء.

6

همس نبع بيشابور بقاعه الحجري الضيق وبدت الأشجار حوله تنظر عالياً إلى الجنّة كالقديسين المتعبين. كان المنظر بهياً، ففي الجنوب تمتد مروج أرمينيا الخضراء كالمراعي الإنجيلية، ناعمة ومليئة بالوعود بمحصول وفير، وكانت شوشا تختبئ خلف الهضبة. وتختفي في الشرق حقول كاراباخ في صحارى أذربيجان المغبرة. أما النسائم المتألقة لنار زاراثوسترا فقد جرفت السهول على أجنحة رياح الصحراء، ومع ذلك لم يتحرك أي غصن حولنا في البستان، وكأن آلهة العصور الكلاسيكية رحلت منذ برهة ليبقى الافتتان. قد يكون دخان النار التي أشعلناها منحدراً من النيران العديدة المخصصة لهذا المكان المقدس. كنت مع جماعة من الجورجيين الجالسين أو المستلقين على البسط المتعددة الألوان حول لهيب النار وقد رُتِّبتْ كؤوس الخمر وأطباق الفواكه الكبيرة والخضار والجبنة حول النار حيث كانت اللحمة تدور على النار أيضاً. جلس الساساندريون، المغنون الجوالون، قرب النبع، وكان لآلاتهم الموسيقية اسماء كالموسيقا، مثل: ديرا، آنوري، ثارا، وديليبيتو. بدؤوا بأغنية على مقام البيات وهي أغنية حُب بالإيقاع الفارسي، بناء على طلب الجورجيين من أهل المدن لإغناء سحر المشهد الغريب. لو كان أساتذة اللاتينية معنا لأطلقوا اسم «المزاج الديونيسي»(*) على هذه الطريقة المرحة

(*) ديونيس: إله الخمر. م.

حيث يغدو المرء جزءاً من عادات البلد. دعت عائلة كيبياني، التي قدِمَتْ أخيراً، جميع الذين يضْفون جواً مرحاً في العطل إلى هذا الاحتفال الليلي في بستان شوشا.

جلس والد نينو قبالتي وقد عُيِّنَ كـ«تامادا» لهذه الليلة مما يعني بحسب القوانين الصارمة أنه من يدير الاحتفال. كانت عيناه تومضان وله شارب أسود كثيف على وجهه الأحمر. أمسك بكأس في يده ورفعه إليَّ قبل أن يشربه. رشفتُ بعضاً من كأسي رغم أنني لا أشرب عادة ولكن والد نينو كان تامادا الحفلة وسيكون من غير اللائق الامتناع عن الشراب بعد أن دعاني. أحضرَ الخدمُ الماء من النبع الذي كان إحدى عجائب كاراباخ التي لا تُحصى، فبعد أن تَشرب منه بإمكانك أن تأكل قدر ما تشاء دون أن تشعر بالأعراض المزعجة الناجمة عن التخمة. وبينما كنا نشرب الماء راحت جبال الطعام تصغر. جلستْ والدة نينو قرب زوجها حول النار المشتعلة، وكان منظر وجهها الجانبي قاسياً لكن عينيها كانتا تضحكان. تأتي هذه العيون من مينغريلا من سهول ريون حيث التقت الساحرة ميدا بأرغونوت جيسون. رفع التامادا كأسه وقال: «في نخب سُموّه دادياني»، فشكره رجل عجوز له عيون كعيون الأطفال وبدأت الجولة الثالثة من الشراب. أفرغ الجميع كؤوسهم ولم يسكر أحد، لأن الجورجيين يشعرون خلال الحفلات بالسعادة الغامرة في قلوبهم وتبقى رؤوسهم صافية كمياه بيشابور التي تملك المقدرة على إبقاء المرء صاحياً بالإضافة إلى مزاياها الأخرى الرائعة.

لم تكن حفلتنا هي الوحيدة في ذلك المكان، فقد كان البستان مضيئاً بالنور الذي يشع من حلقات النار المتعددة، ففي كل أسبوع تحج شوشا بأكملها إلى البئر وتستمر الحفلات حتى الصباح حيث يحتفل المسيحيون والمسلمون معاً في العتمة البدائية للبستان المقدس.

نظرتُ إلى نينو التي كانت تجلس قربي والتي بادلتني النظرات بدورها. كانت تتحدث إلى دادياني ذي الشعر الأشيب وهو أمر جيد ومناسب، إذ

يجب إظهار التبجيل للكبير والمحبة للصغير. قال الرجل العجوز: «يجب أن تأتي يوماً ما وتزورني في قلعتي في زوغديدي على نهر ريون حيث اعتاد عبيد ميديا اصطياد الذهب بصوف الغنم في قديم الزمان. أنت أيضاً علي خان، ستشاهد الأشجار القديمة في غابات مينغريلا الاستوائية».

«بكل سرور يا صاحب السمو، ولكنني سأفعل ذلك من أجلك لا من أجل الأشجار».

«ما الذي تحمله ضد الأشجار؟ إنها بالنسبة لي تجسيد لحياةٍ ذات إنجازات».

«علي خان يخاف من الأشجار بقدر ما يخاف الطفل من الأشباح»، قالت نينو.

أجبتُ قائلاً: «الأمر ليس بهذا السوء، لكن شعوري تجاه الأشجار هو شعورك نفسه تجاه الصحراء».

ومضت عينا داديان الطفولية: «الصحراء حيث الشجيرات الواطئة والرمل الساخن!!؟».

«يحيرني عالم الأشجار يا صاحب السمو، إنها مليئة بالمخاوف والغموض، بالأشباح والعفاريت. أنت لا تستطيع النظر أمامك لأنك محاصر ولأنها معتمة فأشعة الشمس تضيع في شفق الأشجار، ففي الشفق لا شيء حقيقي. كلا، أنا لا أحب الأشجار فخيال الغابات يقمعني وإنه ليحزنني سماع حفيف الأغصان. أنا أحب الأشياء البسيطة: الرياح والرمال والأحجار. الصحراء بسيطة كطعنة الخنجر أما الغابة فمعقدة كالعقدة الغوردية(*). إنني أضل طريقي في الغابة يا صاحب السمو».

(*) العقدة الغوردية: عقدة أحكم شدها غورديوس ملك فرنجيا، وقد زعموا أنه لن يقطعها إلا سيد آسية المقبل فجاء الاسكندر الكبير وقطعها بسيفه. (قاموس المورد).

نظر دادياني إليّ وهو مستغرق في التفكير ثم قال: «أنت تملك روح رجل الصحراء، ربما يكون ذلك الفرق الحقيقي بين الرجال: رجال الغابات ورجال الصحراء. تأتي حالة الثمل الشرقي الجاف من الصحراء حيث الرياح والرمال الحارة التي تحول الرجال إلى سكارى، وحيث العالم بسيطٌ وبلا مشاكل فالغابات مليئة بالأسئلة، أما الصحراء فوحدها التي لا تسأل ولا تعطي ولا تقطع الوعود، لكن وقود الروح يأتي من الغابة. رجل الصحراء كما أراه لديه وجه واحد ولا يعرف سوى حقيقة واحدة وهذه الحقيقة ترضيه. أما رجل الغابة فله عدة وجوه. المتعصب يأتي من الصحراء أما المبدع فيأتي من الغابة. ربما كان هذا هو الفرق الأساسي بين الشرق والغرب».

«لهذا السبب يحب الأرمن والجورجيون الغابات»، قاطعه مليك ناتشاراريان، وهو رجل بدين من أرقى العائلات الأرمنية ذو عينين ناتئتين وحاجبين كثين، لديه ميل نحو الفلسفة والشرب. شرب نخبي ثم صاح: «علي خان! الصقور تأتي من الجبال والنمور من الأدغال فما الذي يأتي من الصحراء؟».

أجبته: «الأسود والمحاربون»، صفقت نينو بسعادة.

ثم وُزِّعَ لحم الضأن المشوي في الأعواد، وملئتْ الكؤوس المرة تلو الأخرى. ملأت السعادة الجورجية الغابة. غرق دادياني في نقاش عميق مع ناتشاراريان، ونظرتْ إليَّ نينو خلسة وفي عينيها سؤال خفي فأومأت لها. ثم خيَّم الظلام وبدا الناس من خلال النور كأشباح أو كقاطعي طُرق. لم يكن أحد يعيرنا انتباهاً فنهضتُ ومشيتُ ببطء نحو النبع. انحنيتُ نحو الماء وشربت بيدي. كان ذلك لذيذاً. حدقتُ بانعكاس النجوم فوق الماء لفترة طويلة، ثم سمعت وقع خطوات خلفي وانكسار غصن جاف تحت قدمٍ صغيرة، مددتُ يدي فأمسكت نينو بها. ذهبنا إلى الغابة. ولم يكن تركُنا لحلقة النار، ولا جلوس نينو على حافة المرج الأخضر وشدها لي للجلوس

بقربها بالأمر الصحيح، فالتقاليد صارمة في كاراباخ السعيدة، فقد أخبرني العجوز مصطفى، والرعب يغمره، عن حالة زِنى في البلاد منذ ثمانية عشر عاماً؛ ومنذ ذلك الوقت لم يعد فصل حصاد الفواكه كما كان. نظر كل منا إلى لآخر وبدا وجه نينو شاحباً وغامضاً تحت ضوء القمر. قلت لها: «يا أميرة»، فنظرت إليَّ نظرة جانبية. أصبحت نينو أميرة منذ أربع وعشرين ساعة، في حين احتاج والدها لأربع وعشرين سنة ليحوز على لقبه الذي تم إقراره في بطرسبورغ. فقد استلم والد نينو هذا الصباح تلغرافاً يخبره بالموافقة على طلبه، فشعر الرجل العجوز بالسعادة كالطفل الذي وجد أمه الضائعة وتم الاحتفال في تلك الليلة. ردّدتُ قائلاً: «يا أميرة»، وأمسكتُ بوجه نينو بين يديَّ فلم تقاوم، ربما احتست كمية أكثر من اللازم من خمر كاشيتيان. قبّلتها. وقد كانت راحتا يديها ناعمتين ودافئين وكان جسدها مستسلماً. انكسرت الأغصان الجافة، حيث كنا مضجعين على الطحالب الناعمة ونينو تنظر إلى وجهي. لمستُ صدرها الدائري الصغير المشدود، فانتقل شعور جديد وغريب من نينو إليَّ وغمرنا نحن الاثنين، وتوحّدتْ نينو ورغبات الأرض لتعيش بإحساسها فقط، وأصبح وجهها الصغير في غاية الجدِّية. فتحتُ فستانها فلمع جلدها كحجر الأوبال الكريم في ضوء القمر. كان قلبها يخفق وقد تمتمتْ ببعض الكلمات الحنونة والمشتاقة فدفنت وجهي بين نهديها الصغيرين. كان جلدها معطراً ويشبه طعم الملح الباهت. ارتجفت ركبتاها وجَرَت الدموع على خديها، فمسحتها بقبلاتي وجففت خديها المبتلين. ثم وقفتْ وأصبحتْ صامتة وغير واثقة من غموضها الداخلي وأحاسيسه، فصغيرتي نينو لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ولا زالت تذهب إلى معهد الملكة القديسة تامار. قالت لي:

«أظن أنني أحبك بالفعل، علي خان، رغم أنني أصبحت أميرة».

«ربما لن تكوني كذلك لوقت طويل»، قلت لها.

نظرت إليَّ بدهشة متسائلة: «ماذا تعني؟ هل سيسحب القيصر اللقب منا ثانية؟»

«ستخسرين اللقب عندما تتزوجين، ولكن لا تأبهي فلقب خان جميل أيضاً».

وضعتْ نينو يديها خلف رقبتها بشكل متعاكس وضحكت: «خان، ربما ولكن خانة؟ لا يوجد شيء كهذا. وبالمناسبة طريقتك مضحكة في عرض الزواج. هذا إذا كنتَ تعني ذلك؟»

«نعم، أنا أعني ذلك».

عبثتْ أصابع نينو في وجهي ثم استقرتْ في شعري.

«وإذا وافقتُ فهل ستشعر بالامتنان على الدوام لغابة شوشا وتتصالح مع الأشجار؟».

«أظن أنني سأفعل».

«ولكنك ستذهب إلى عملك في طهران في شهر عسلنا، وتلبية لدعوة خاصة قد أزور جناح الحريم الملوكي فأشرب الشاي فيه وأتحدث مع النساء البدينات».

«حسناً».

«وعندها سيُسمحُ لي بالنظر إلى الصحراء لأنه لن يكون هناك أحد حولي لينظر إلي».

«لا يا نينو، ليس من الضروري أن تنظري إلى الصحراء فأنت لن تحبيها».

وضعتْ نينو ذراعيها حول عنقي وضغطت بأنفها على جبيني وقالت: «ربما سأتزوجك، علي خان، ولكن هل فكرت في جميع الأشياء التي علينا تجاوزها، غير الأشجار والصحراء؟»

«أية أشياء؟»

«أولاً، سيموت أبي وأمي من الحزن إذا تزوجت مسلماً، كما أن والدك سيلعنك وسيطالب بأن أصبح مسلمة، وإن فعلتُ هذا فسيرسلني أبونا القيصر الصغير إلى سيبيريا لأنني خنت العقيدة المسيحية، وأنت أيضاً ستذهب معي لأنك من جعلني أفعل ذلك. وسنجلس حينذاك على جبل جليدي في منتصف بحر القطب الشمالي، وستأكلنا الدببة الكبيرة البيضاء».

ضحكتُ: «لا يانينو، لن يكون الأمر أبداً بهذا السوء. ليس من الضروري أن تصبحي مسلمة، ولن يموت والداك من الحزن، وسنذهب إلى باريس وبرلين في شهر العسل حيث تستطيعين النظر إلى الأشجار في غابة بوبونيا والتيرغارتن. ما رأيك بهذا؟»

قالت بذهول: «أنت لطيف معي، أنا لم أقل لا ولكن مازال هنالك الكثير من الوقت لقول نعم. لا تقلق فأنا لن أهرب بعيداً. لنتحدث إلى أهلنا عندما أكمل الدراسة، لكن لا تخطفني. افعلْ ما شئت، لكن لا تخطفني. أنا أعلم طُرقكم، فعلى صهوة الجواد ثم إلى الجبال ليبدأ بعدها عداء دم طويل مع آل كيبياني. ثم امتلأتْ فجأة بمرح تصعب السيطرة عليه، بدت وكأن كل ما فيها يضحك: وجهها، يداها، قدماها، وبشرتها. كانت متكئة على شجرةٍ ورأسها محني، ثم نظرت إليَّ وأنا أقف مواجهاً لها وقد بدت كحيوان غريب مختبئ في الغابات خائفاً من الصياد. «لنعد»، قالت نينو. وبينما كنا نمشي خلال الغابة باتجاه النار الكبيرة، خطرت لها فكرة فجأة فتوقفتْ ونظرتْ عالياً إلى ضوء القمر وسألتْ بلهفة: «ولكن ماذا عن أولادنا؟ أي دين سيتبعون؟»

«دين جميل ومناسب، أنا واثق من ذلك»، قلت لها مراوغاً. نظرتْ إليَّ بريبة وصمتت لبرهة وهي تفكر، ثم قالت بحزن: «على أية حال، ألستُ كبيرة جداً عليك، سأبلغ السابعة عشرة قريباً وأظن أن عروسك في المستقبل

ستكون قد بلغت الآن الثانية عشرة». طَمْأنتها بهذا الخصوص. كلا، لم تكن بالطبع كبيرة جداً، ربما ذكية جداً. أهو أمر جيد أن يكون المرء ذكياً جداً؟ يبدو لي في بعض الأحيان أننا الَشرقيين نصبح بالغين وكباراً في السن وأذكياء قبل الأوان بكثير، وأحياناً يخطر لي أننا فقط أغبياء وبسطاء. لم أدرِ حقاً ماذا أفكر؟ كنت مرتبكاً بسبب الأشجار وبسبب نينو، وما أربكني أكثر من الجميع هو أنا شخصياً. فربما أكون أنا أيضاً قد شربت الكثير من خمر كاشيتيان وأدخلت نفسي في حديقة الحب الهادئة عنوة كلص الصحراء، ليس لأن نينو بدت وكأنها ضحية لص الصحراء فقد بدت هادئة وساكنة. اختفت كل آثار الدموع والضحك والاشتياق من على وجهها، أما أنا فقد احتجت إلى وقت أطول لأبدو طبيعياً ثانية.

عدنا إلى نبع بيشابور ولم يكن قد لاحظ غيابنا أحد. ملأتُ كأسي بالماء وشربت بشراهة. وعندما وضعت كأسي أرضاً التقتْ عينايَ بعيني مِليك ناتشاراريان الذي نظر إليَّ بتفهم وبطريقة ودية فيها شيء من الحماية.

7

اضطجعتُ على الأريكة هناك على سطح المنزل وأنا أحلم بالحب. لكن حبي يختلف عن الحب الذي عاشه أبي وأعمامي وأجدادي، كما يختلف عن الطريقة التي ينبغي أن تحصل. فبدلاً من لقاء نينو على البئر حيث تملأ جرتها بالماء، قابلتها في شارع نيقولاي وهي في طريقها إلى المدرسة. تبدأ قصص الحب الشرقية عند البئر، ففي كل مساء تذهب الفتيات إلى البئر وهن يحملن جرات الفخار على أكتافهن، بينما يجلس الشبان بشكل دائري قرب النبع يتحدثون عن الحرب والسرقات دون أن يلحظوا الفتيات. تبدأ الفتيات بملء جرّاتهن بتمهل ويعدن أدراجهن بتمهل أيضاً. تكون الجرار ممتلئة حتى حافتها وقد تتعثر الفتيات فيدفعن حجابهن إلى الخلف وينظرن إلى لأسفل بحشمة. في كل مساء تذهب الفتيات إلى النبع وفي كل مساء أيضاً يجلس الشبان على حافة الساحة، وهكذا تبدأ قصص الحب في الشرق. بهدوء وبمحض المصادفة ترفع إحدى الفتيات نظرها بشكل خاطف إلى الشبان ولا يلحظ أحد ذلك، ولكن عندما تعود الفتاة ثانية يستدير أحد الشبان وينظر إلى السماء. قد تتقاطع أحياناً نظرات الشاب والفتاة وقد لا يحصل ذلك، ثم يجلس أحد آخر مكانه في اليوم التالي. ولكن عندما تتقاطع نظرات شاب وفتاة لعدة مرات عند البئر فالجميع يعلم حينذاك أن قصة حب قد بدأت. أما الباقي فيتتابع بشكل طبيعي: يهيم الحبيب المحروم من حبيبته على وجهه في الأرياف مغنياً الأغاني العاطفية، بينما يتفاوض أقاربه على المهر، ويبدأ الرجال الحكماء بحساب عدد المحاربين الذين

سينجبهم هذا الزواج. كل شيء بسيط وكل خطوة مخطط لها ومحسومة مسبقاً.

ولكن ماذا عني؟ أين بئري؟ وأين الحجاب على وجه نينو؟ إنه لأمرٌ غريبٌ: أنت لا تستطيع رؤية المرأة خلف الحجاب ولكنك تعرفها بعاداتها وأفكارها ورغباتها، فالحجاب يخفي العيون والأنف والفم ولكنه لا يخفي الروح. ليس هناك من مشكلة في روح النساء الشرقيات، أما النساء غير المحجبات فالأمر مختلف تماماً، فأنت تستطيع رؤية عيونهن وأنفهن وفمهن وحتى أكثر وأكثر بكثير، لكنك لا تعرف ماذا يختبئ خلف تلك العيون حتى عندما تظن أنك تعرفها جيداً. أنا أحب نينو، ورغم ذلك فإنها تحيرني، فهي تشعر بالرضا عندما ينظر إليها رجال آخرون في الطريق، أما الفتاة الشرقية فيشعرها ذلك بالاشمئزاز. وهي تُقبلني وتسمح لي بلمس صدرها ومداعبة فخذيها رغم أننا لم نُخطب بعد، وعندما تقرأ قصص الحب تصبح عيناها رقيقتين وحالمتين كما لو كانت تتوق إلى شيء ما. وعندما أسألها ما الذي تتوق إليه تهز رأسها مندهشة فهي لا تعرف، لكنها عندما تكون معي لا أرغب بأي شيء آخر. أظن أنها ذهبت إلى روسيا مرات عديدة فوالدها كان يأخذها إلى بطرسبورغ والجميع يعلم أن النساء الروسيات مجنونات. فأعينهن مليئة بالشوق وغالباً ما يخنَّ أزواجهن ورغم ذلك فنادراً ما ينجبن أكثر من طفلين، فهكذا يعاقبهن الله. ولكنني أحب نينو، أحب عينيها وصوتها وطريقة كلامها وتفكيرها. سوف أتزوجها وستصبح زوجة صالحة كالنساء الجورجيات حتى لو كن مرحات ولا مباليات وحالمات، إن شاء الله.

تقلبتُ على الأريكة فقد أشعرني هذا التفكير بالتعب ومن الأنسب أن أغمض عيني وأفكر بالمستقبل، أي نينو، لأن المستقبل يبدأ عندما تصبح نينو زوجتي. سيكون يوماً مثيراً، ولن يُسمح لي برؤيتها لأنه ليس مسموحاً أن يرى العروسان بعضهما في ليلة الزفاف لأن ذلك سيكون خطأً مميتاً.

سيذهب أصدقائي لإحضار نينو التي ستكون مثقلة بالحجاب إذ عليها في هذا اليوم ارتداء الفستان الشرقي. ثم سيطرح الملا الأسئلة ويقف رفاقي في زوايا الصالة الأربعة يهمسون بتعويذة ضد العجز الجنسي. هكذا تقضي العادات لأن كل رجل لديه أعداء يخرجون خناجرهم من أغمدتها في ليلة عرسه ويوجهون وجوههم نحو الغرب ويهمسون: «آنيساني بانيساني ماماويرلي كانياني» أي «إنه لا يستطيع فعلها، إنه لا يستطيع فعلها، إنه لا يستطيع فعلها». ولكن حمداً لله أنه لدي أصدقاء جيدون فإلياس بيغ يحفظ غيباً جميع التعويذات التي تقي من الشر. ثم نفترق أنا ونينو بعد الزفاف فأذهب إلى أصدقائي وتذهب إلى صديقاتها لنقيم حفلة وداع لشبابنا. وعندها؟ عندها؟

أفتح عيني للحظة وأرى السطح الخشبي والأشجار في الحديقة ولكنني أغلقهما ثانية لأستطيع رؤية ما الذي سيحدث بعد ذلك. ليلة الزفاف هي أهم ليلة وربما هي الليلة الوحيدة المهمة في حياة المرء. لكنها ليلة صعبة جداً كذلك، لأنه ليس من السهل الدخول إلى الحجرة الزوجية في ليلة العرس. فعند كل باب في الممر الطويل ستقف أشكال ملثمة ولن يسمح للعريس بالمرور إلا بعد أن يضع نقوداً في أيديهم. وفي الحجرة الزوجية نفسها يضع الأصدقاء الذين يضمرون الخير ديكاً أو قطة أو أشياء أخرى غير متوقعة. عليَّ أن أنظر جيداً فيما حولي، فأحياناً نجد عرّافة تقهقه في السرير، وهي أيضاً تريد بعض النقود قبل أن ترحل. وأخيراً أصبحُ وحدي، ثم يُفتح الباب وتدخل نينو. وهنا يبدأ أصعب جزء في ليلة الزفاف؛ تنظر نينو إليَّ بترقب وجسدها محشور في مَشد نسوي صُنع من جلد الماعز وقد ثُبِّت بحبال أوثقت عقدها أيد خبيرة ترمي إلى إرباك العريس. عليَّ أن أفك هذه العُقد بنفسي ولا يسمح لنينو بمساعدتي، ولكنها ربما ستفعل لأن هذه الحبال معقدة بشكل مخيف وسأجلب العار والخزي على نفسي إذا ما قصصتها. على الرجل إظهار مقدرته على ضبط النفس، ففي اليوم التالي سيأتي أصدقاء

العريس لرؤية العقد المفكوكة، والويل للبائس الذي لا يستطيع إظهارها، فستضحك المدينة بأسرها عليه. وخلال يوم الزفاف يبدو المنزل كركام النمل، ففي الممرات يقف الأصدقاء وأقارب الأصدقاء وأصدقاء أصدقاء الأقارب في الممرات وعلى السطح وحتى في الشوارع ينتظرون ويفقدون صبرهم إذا استمر الأمر طويلاً. فيدقون على الأبواب ويموؤون ويعوون إلى أن تُطلق أخيراً البنادق المتلهفة النار مباشرة في الهواء والكل يشعر بحماس. ثم يهرعون خارج المنزل وينظمون أنفسهم بتشكيلة تشبه حرس الشرف ولا يسمحون لي ولنينو بالخروج من المنزل حتى يقرروا أن الوقت أصبح مناسباً. نعم، سيكون زفافاً رائعاً بالطريقة القديمة كما تقتضي أعراف آبائنا.

يبدو أنني قد غفوت، فبمجرد أن فتحت عيني رأيت الكوتشي جالساً القرفصاء ينظف أظافره بخنجره الطويل. لم أكن قد سمعته قادماً، سألته بكسل وأنا أتثاءب: «ما الأخبار يا أخي الصغير؟»

«لا شيء مميز يا سيدي الصغير»، أجابني بضجر. «تشاجرت نسوة الجيران، هرب الحمار راكضاً إلى النبع وما زال هناك». ثم أعاد الخنجر إلى غمده وتابع بلا مبالاة: «تنازل القيصر فأعلن الحرب على عدة ملوك أوروبيين».

«ماذا؟ أية حرب؟» قفزت ونظرت إليه بحيرة.

«أوه، إنها مجرد حرب عادية».

«ماذا تعني؟ ضد من؟»

«عدة ملوك أوروبيين. لا أستطيع تذكر أسمائهم فهناك الكثيرون منهم ولكن مصطفى دوَّنَ تلك الأسماء».

«أحضرهُ في الحال».

هز الكوتشي رأسه كعلامة على عدم الاستحسان إذ لم يكن من اللائق إظهار ذلك الفضول. ثم اختفى خلف الباب وعاد مصطحباً مضيفي خلفه.

ابتسم مصطفى ابتسامة عريضة لأنه شعر بالفوقية وبدا مشرقاً لأنه يعرف كل شيء. القيصر بالطبع أعلن الحرب والمدينة بأسرها تعلم ذلك ولكنني كنت نائماً عل السطح. لا عليك، لا أحد يعلم بالضبط لماذا أعلن القيصر الحرب، فقد قرر أنه من الحكمة فعل ذلك.

«ولكن ضد من أعلن القيصر الحرب»، صرخت بسخط. غاصَت يد مصطفى في جيبه وأخرج قطعة ورق دوّن عليها ملاحظاته. ثم تنحنح وقرأ بكبرياء ولكن بصعوبة: «على القيصر الألماني والإمبراطور النمساوي وملك بافاريا وملك بروسيا وملك ساكسونيا وملك فورتمبرغ وملك هنغاريا بالإضافة إلى أسياد وأمراء كثيرين آخرين».

«كما أخبرتك، سيدي الصغير، لم أستطع تذكر كل ذلك»، قال الكوتشي بتواضع. طوى مصطفى قصاصة الورق وقال: «ومن جهة أخرى، فجلالة الخليفة، سلطان الإمبراطورية العثمانية محمد رشيد وجلالة شاهنشاه إيران السلطان أحمد شاه أعلنا أنهما لن يشتركا في هذه الحرب حتى إشعار آخر. هي إذاً حرب يخوضها الكفار ضد بعضهم البعض وليس لنا كبير شأنٍ بها. أما الملا في جامع محمد علي فيعتقد أن الألمان سيربحون». لم يستطع مصطفى إكمال كلامه. فقد سُمعت أجراس الكنائس السبعة عشر قادمة من المدينة لتحجب جميع الأصوات الأخرى. ركضتُ خارجاً، كانت سماء آب المتوهجة معلقة فوق المدينة مهددة وساكنة. ومن بعيد بدت الجبال الزرقاء تنظر إلى المدينة كشاهد لامبالٍ. سُمع صوت الأجراس ثانية وهي تضرب على الصخور الرمادية. امتلأت الشوارع بالناس وكانت الوجوه المليئة بالإثارة تنظر عالياً باتجاه قبب الكنائس والمساجد، كما كان الغبار يتطاير في الهواء وأصبحت أصوات الناس مبحوحة. نظرتْ جدران الكنائس العديدة الخرساء والبالية بفعل العوامل الجوية إلينا كعين الأبدية الحجرية، وارتفعت الأبراج فوقنا كالتهديد الصامت، وتوقفت الأجراس عن الرنين وصعد الملا البدين بثوبه الفضفاض ذي الألوان المتعددة إلى مئذنة الجامع المجاور لنا

ووضع يديه على فمه بشكل قُمْع ونادى بفخرٍ وحزن: «حي على الصلاة، حي على الصلاة، الصلاة خير من النوم». هرعتُ إلى الإسطبل حيث أسرج الكوتشي حصاني فامتطيته وعدوتُ في الشوارع والناس تفسح لي الطريق بنظرات خائفة. ارتفعت عينا الحصان عالياً بتوقع سعيد عندما اتجهتُ إلى المدينة. امتد أمامي الطريق العريض الذي يشبه الشريط الملتوي وعدوتُ متجاوزاً منازل نبلاء كاراباخ ولوّحَ لي مُلّاك الأرض البسطاء: «هل أنت مسرع إلى المعركة علي خان؟» نظرت أسفل الوادي، كان هناك منزل صغير في منتصف الحديقة ذو سقف مستوٍ. وعندما رأيت ذلك المنزل نسيت كل قواعد الفروسية وعدوت بقفزات عنيفة أسفل الهضبة حيث بدا المنزل أكبر واختفت وراءه الجبال والسماء والمدينة والقيصر والعالم بأسره. انعطفت إلى الزاوية باتجاه الحديقة. خادم من المنزل نظر إليَّ بعينين خامدتين، وقال: «الأسرة النبيلة غادرت المنزل منذ ثلاث ساعات». ذهبت يدي تلقائياً إلى خنجري، فوقف الخادم جانباً وقال: «الأميرة نينو تركت رسالة إلى سمو علي خان»، واتجهت يده إلى جيب في صدره. ترجلتُ وجلستُ على درجات السطح. كان الظرف ناعماً، أبيض ومعطراً، ففتحته وقد نفد صبري. كتبت نينو بأحرف كبيرة طفولية:

«عزيزي علي خان! ها هي الحرب قد اندلعت فجأة وعلينا العودة إلى باكو. لم يكن هناك وقت لأرسل إليك برسالة. لا تغضب فقد بكيتُ، أنا أحبك. كان الصيف قصيراً، اتبعنا بسرعة فأنا أنتظرك ومشتاقة إليك، ولن أفكر بسواك في رحلة العودة. يعتقد والدي أن الحرب ستنتهي قريباً وأن جانبنا سيربح المعركة وأنا أشعر بالغباء في وسط هذه الفوضى. أرجو أن تذهب إلى سوق شوشا وتشتري لي بساطاً، لأنه لم يُتح لي الوقت لأفعل هذا. أريده بنمط رؤوس الأحصنة الصغيرة وبألوان كثيرة. قبلاتي. سيكون الجو حاراً للغاية في باكو!».

طويتُ الرسالة فكل شيء على ما يرام. لكنني، أنا علي خان

شيرفانشير، قفزت على صهوة الجواد كولد سخيف بدلاً من فعل ما هو صواب ومناسب: أي تهنئة حاكم المدينة بمناسبة الحرب، أو على الأقل الصلاة في أحد جوامع شوشا والدعاء لجيوش القيصر بالنصر. جلست على الدرج الذي يقود إلى السطح وحدّقت أمامي شارداً. كنت أحمق! فما الذي باستطاعة نينو أن تفعله سوى العودة إلى مدينتها مع أبويها وطلبها مني العودة بأسرع وقت ممكن. ولأكون متأكداً: فعندما تندلع الحرب في البلاد على المحب الذهاب إلى المحبوب لا كتابة الرسائل المعطرة إليه. لكن ليست هناك حرب في بلدنا، فالحرب في روسيا ولم يكن ذلك ليعنينا نينو وأنا. ومع ذلك كنت غاضباً بجنون من الحرب، ومن كيبياني العجوز الذي كان في غاية العجلة للوصول إلى مدينته، ومن معهد القديسة تامار الذي لم يُعلِّم الفتيات كيفية التصرف. لكن معظم غضبي انصب على نينو التي ذهبت بعيداً بينما لم أستطع الوصول إليها بالسرعة الكافية وقد نسيت واجبي وكرامتي. فجأة سحبت خنجري ورفعت يدي، لمع وميض قصير وبصوت كالنشيج طار الخنجر إلى لحاء الشجرة الجاثمة أمامي. نزع الخادم الخنجر من الشجرة ونظر إليه بعيني الخبير، ثم أعاده إليَّ وقال بحياء: «إنه من فولاذ كوباتشين الأصيل ويدك قوية».

امتطيتُ صهوة حصاني وعدتُ إلى المنزل متمهلاً. وقد بدت لي قبب المدينة من بعيد. لم أعد غاضباً فقد تركت غضبي في لحاء الشجرة. كانت نينو على حق، إنها ابنة صالحة وستصبح زوجة طيبة. شعرت بالخجل وتابعت مسيري ورأسي منحنٍ، كانت الشوارع مغبرة والشمس الحمراء تغرق في الغرب. فجأة سمعت صهيل جواد فرفعت رأسي ووقفت مذهولاً ولوهلة نسيت نينو والعالم بأسره، فقد وقف أمامي جواد برأس صغير ضيق وعينين متعجرفتين وردف نحيل وأرجل تشبه ساقي راقصة الباليه. كانت بشرته تتلألأ باللون الأحمر المذهب تحت أشعة الشمس المائلة. وقد امتطاه رجلٌ ذو شارب متدلٍّ وأنف معقوف: إنه الكونت مليكوف، سيد مزرعة تقع في

الجوار. ماذا أخبروني عن خيول سانت ساري بيغ الرائعة في بداية إقامتي في شوشا؟ إنها حمراء مُذهّبة ولا يوجد سوى اثني عشر منها في كاراباخ بأسرها، وتتم حراستها كالسيدات حريم السلطان. والآن تقف أمامي المعجزة الحمراء المذهبة.

«إلى أين أنت ذاهب يا كونت؟»

«إلى الحرب يا بني».

«يا له من حصان يا كونت».

«نعم، أنت مندهش، أليس كذلك؟ لم ير هذا الأحمر المذهّب سوى بضعة رجال». أصبحت عينا الكونت رقيقتين. «يزن قلبه ستة باوندات وعندما تسكب الماء فوق جسده، يلمع كخاتم ذهبي. لم ير ضوء الشمس مطلقاً، وعندما أخرجته اليوم لمعت أشعة الشمس في عينيه فتألقتا كنبع خرج لِتوّه من بين الصخور. هكذا لمعت عينا الرجل الذي اخترع النار عندما رأى أول شعلة. إنه سليل الحصان ساري بيغ ولم أظهره لأحد، ولا أمتطي المعجزة الحمراء المذهبة إلا عندما يدعو القيصر إلى الحرب». ثم حيّاني بفخر وتابع مسيره وسيفه يطقطق برقة. اندلعت الحرب في البلاد حقاً.

عندما عدتُ إلى المنزل كان الظلام قد حلَّ، وكانت المدينة بأسرها تضجُّ برغبة الحرب، وكان النبلاء المحليون يركضون بجلبة وهم سكارى مطلقين أعيرتهم النارية في الهواء ويصرخون: «ستتدفق الدماء، ستتدفق الدماء، أه يا كاراباخ، سيُمَجّدُ اسمك».

كانت تنتظرني في المنزل برقية من والدي تقول: «عُدْ إلى المنزل في الحال». قلت للكوتشي: «وضِّب أغراضنا فسنرحل في الغد، ثم ذهبت إلى الشوارع لأراقب الشغب. كنت أشعر بالقلق من دون معرفة أي سبب لذلك. نظرت عالياً إلى النجوم وفكرت مطولاً وبعمق.

8

«قل لي علي خان، من هم أصدقاؤنا؟» سأل الكوتشي ونحن ننزل أسفل المنحدر الملتوي من شوشا. لا يتعب رجل الريف البسيط من طرح أغرب الأسئلة حول كل ما يتعلق بالحرب والسياسة. هناك ثلاثة مواضيع يتحدث بها الناس العاديون في بلادنا: الدين والحرب والتجارة. الحرب تمس هذه المواضيع الثلاثة، ويستطيع المرء التحدث عن الحرب متى يشاء وحيثما يشاء وقدر ما يشاء ولا يكون قد استنزف الموضوع.

«أصدقاؤنا يا كوتشي هم إمبراطور اليابان وإمبراطور الهند وملك إنكلترا وملك صربيا وملك بلجيكا ورئيس الجمهورية الفرنسية».

مطَّ شفتيه غير موافق. «ولكن رئيس الجمهورية الفرنسية مدني، فكيف يمكنه الذهاب إلى المعركة وشن حرب؟»

«ربما يُرسل أحد الجنرالات».

«على المرء أن يخوض معركته بنفسه ولا يترك الأمر للآخرين وإلا فلن تكون نافعة»، نظر بقلق إلى ظهر حوذينا ثم تكلم كالحِرفي: «قيصرنا رجل صغير ونحيل، لكن القيصر جيلجوم رجل ضخم وقوي وسيتغلب على القيصر ربما حتى في الجولة الأولى». كان الرجل الطيب مقتنعاً أنه على الملكين العدوين أن يتقاتلا على صهوة الجواد لكي تبدأ الحرب، ولم يكن من المجدي إقناعه بعكس ذلك. «عندما يرمي جيلجوم قيصرنا أرضاً فعلى ابن

القيصر أن يذهب إلى المعركة، ولكنه صغير السن ومريض أما جيلجوم فلديه ستة أولاد أصحاء وأقوياء».

قلت له محاولاً طمأنته: «لكن جيلجوم لا يستطيع القتال سوى بيده اليمنى فاليسرى معطوبة».

«آه، إنه لا يحتاج يسراه إلا لمسك لجام الحصان بينما تستعمل اليد اليمنى للقتال». ظهرت تجاعيد على جبهته بتأثير التفكير العميق ثم سأل فجأة: «أصحيح أن الإمبراطور فرانز جوزيف في المئة من عمره؟».

«لست متأكداً، لكنه رجل مسن جداً».

قال الكوتشي: «إنه لأمر رهيب أن يضطر رجل مسن كهذا لامتطاء جواده وتجريد سيفه».

«ليس مضطراً لفعل ذلك»

«بالطبع عليه أن يفعل ذلك، فهناك رابطة دم بينه وبين الصربي كرالج، وهم الآن أعداء دم وعلى الإمبراطور أن ينتقم لدم ولي عهده. لو كان مزارعاً من قريتنا لأمكن دفع ثمن الدم مقابل منزل ومئة بقرة. لكن الإمبراطور لا يستطيع أن يغفر إراقة الدماء، لأنه لو فعل ذلك، فسيحذو الجميع حذوه، ولن يكون هناك عداء دم بعد ذلك وسيعم الخراب البلاد». كان الكوتشي على حق، فعداء الدم أهم قواعد نظام الدولة والتصرف الجيد، مهما كان رأي الأوروبيين حيال ذلك. فمن المؤكد أن غفران سفك الدماء أمر حسن إذا توسل الرجال الحكماء من صميم قلوبهم لأجل ذلك. ثم يُطلب ثمناً باهظاً لذلك وتتم المغفرة. لكن يجب المحافظة على مبدأ عداء الدم وإلا فكيف سينتهي الأمر؟ تُقسم البشرية إلى عائلات لا إلى أمم، وتحافظ الأسر على توازن معيَّن فيما بينها ـ بما أعطاها الله ـ وهو قائم على قوة الرجال. فإذا ما اختل هذا التوازن بفعل قوة مجرمة فعلى العائلة التي أذنبت ضد إرادة الله أن تخسر عضواً منها أيضاً، وهكذا تتم إعادة التوازن. وبالطبع فإن تنفيذ عداء

الدم قد يتم بصورة خرقاء فتخطئ الطلقات ويموت عدد من الناس أكثر مما ينبغي ثم يستمر عداء الدم أكثر فأكثر. لكن المبدأ جيد وواضح والكوتشي يفهمه جيداً، لذلك هز رأسه موافقاً: «نعم، الإمبراطور ذو المئة عام الذي يمتطي جواده لينتقم لدم ابنه هو رجل صالح وعادل».

«علي خان، إذا كان على الإمبراطور وكرالج أن يقاتلا من أجل الدم فأين موقع الملوك الآخرين من ذلك؟»

هذا سؤال صعب، ولم أكن أعلم الإجابة. «انظر»، قلت له، «قيصرنا والصربي كرالج لديهما الرب نفسه، لذلك سيساعدهما. أما الأعداء: القيصر غليوم والملوك الآخرون فأعتقد أنهم ينتمون بصلة قربى إلى الإمبراطور. وبالنسبة لملك إنكلترا فهو يمت بصلة قربى إلى القيصر، وهكذا فكل شيء يفضي إلى شيء آخر». لم يكن الكوتشي راضياً على الإطلاق بهذه الإجابة، فقد كان متأكداً أن رب إمبراطور اليابان مختلف تماماً عن الرب الذي يعبده القيصر، أما ذلك المدني الغامض الذي يحكم فرنسا فلا يمكن أن يكون قريباً لأي ملك. عدا عن ذلك، لم يكن هناك رب في فرنسا، على حدِّ زعم الكوتشي، ولذلك يدعى ذلك البلد بالجمهورية. ولم يكن ذلك واضحاً بالنسبة لي أيضاً، فأجبته بشكل مبهم وانتهى بنا الأمر إلى أن سألته عما إذا كان ينوي الذهاب إلى الحرب. نظر إلى أسلحته بطريقة حالمة وقال: «بالطبع سأذهب إلى الحرب».

«أنت تعلم أنك لست مضطراً، فنحن المسلمين معفوون من الخدمة في الميدان».

«أعلم ذلك ولكنني أرغب بالذهاب». وفجأة أصبح الرجل البسيط ثرثاراً للغاية: «الحرب جيدة. سأسافر بعيداً في هذا العالم الرائع، سأسمع الرياح تصفر في الغرب وأشاهد الدموع في أعين أعدائي، سيكون لي حصان وبندقية وسأجول مع أصدقائي في القرى التي غُزِيت، وعندما أعود سيكون لدي الكثير من المال وسيثني عليَّ الجميع لأنني سأكون بطلاً، وإن مِتُّ

فسيكون موت رجل حقيقي، حينذاك سيتكلم الجميع عني بتقدير وسيُكرمون ولدي أو والدي. نعم إن الحرب شيء رائع ولا يهم ضد من تُشن، على الرجل أن يذهب إلى الحرب ولو مرة في حياته». ثم استمر بلا توقف وبدأ بِعَدِّ الجراح التي سيذيقها لأعدائه والغنائم التي كان يراها أمامه منذ تلك اللحظة. لمعتْ عيناه بالرغبة المستيقظة إلى القتال وبدا وجهه الأسمر كوجهِ محاربٍ من كُتب «شاه نامه» الدينية. حسدتُه لأنه كان رجلاً بسيطاً يعلم ما الذي عليه فعله، بينما كنت أنظر إلى الأمام بتفكير وتردد. لقد أمضيت وقتاً طويلاً في المدرسة الروسية الإمبراطورية، فأصابتني عدوى طرق الاستبطان الروسية.

وصلنا إلى المحطة حيث حاصر المبنى نساء وأطفال وعجائز ومزارعو جورجيا وبدو من ساكاتالي. كان من المستحيل معرفة إلى أين يرغبون الذهاب وسبب ذلك، ولم يكن يبدو أنهم أنفسهم على علم بذلك. كانوا مستلقين في الحقول كقطعِ الطين أو كانوا يهجمون كالعاصفة على القطارات القادمة بغض النظر عن مكان ذهابهم. جلس رجل عجوز، يرتدي معطفاً ممزقاً من جلد الغنم وعيناه مليئتان بالقيح قرب باب غرفة الانتظار وهو ينشج، لقد أتى من لينكورانج التي تقع على الحدود مع فارس وكان مُقتنعاً أن منزله قد دُمِّر وأن أولاده قد قتلوا. أخبرتُه أن فارس لم تكن في حرب معنا، لكنه كان غير قابل للعزاء: «كلا يا سيدي، صدِئَ سيف إيران منذ زمن طويل وهم الآن يشحذونه. سيهاجمنا البدو وسيدمر الشاهسيفان منازلنا لأننا نعيش في بلاد الكفار. سيدمر أسد إيران بلدنا وستصبح بناتنا إماءً وأبناؤنا صبيان متعة. استمر نواحه اللامنطقي إلى ما لا نهاية. دفع الكوتشي بالحشود إلى الخلف وتدبرنا أمرنا بحيث نقف على رصيف المحطة. بدت القاطرة كقناع وحش من عصور ما قبل التاريخ، وهي واقفة بلونها الأسود وشكلها الشرير على أرض الصحراء الصفراء. صعدنا إلى القطار وأعطانا السائق مقصورة كاملة خاصة بنا بعد أن حصل على بخشيش كبير. جلس

الكوتشي على مقعد مغطّى بالمخمل الأحمر حِيكت عليه الأحرف SJD (سكة حديد ما وراء القوقاز). بدأ القطار بالتحرك خلال منظر الصحراء الطبيعي. امتدت رمال صفراء بعيداً كالهضاب الصغيرة الجرداء، ناعمة ودائرية، وصخور بالية بفعل الزمن أخذت تشع باللون الأحمر. وأتى من البحر نسيم بارد عبر مئات الأميال، وتدحرجت هنا وهناك أعشاب مغبرة حول المنحدرات الصخرية المنخفضة. ثم دخلت إلى المنظر قافلة مؤلفة من مئة جمل أو أكثر بسنام أو بسنامين بعضها صغير وبعضها كبير، وقد نظرت جميعها بقلق إلى القطار. تحركت بخطوات كبيرة ومتراخية، ورأسها يهتزُّ متناسباً مع الرنين الرتيب للأجراس المعلقة حول أعناقها. فإذا تعثر أحدها، يصدر الجرس النغمة الخاطئة وتتعكر نغمة القافلة، فتشعر بقية الحيوانات في القافلة بذلك وتحرن حتى تُعاد وحدة القافلة إليها. إنه رمز الصحراء: هذا الكائن الغريب الهجين من حيوانٍ وطائر، رشيق وأخرق، مخلوق من أحلام الصحراء الحارة ولأجلها.

أما بالنسبة لي، فكان ذلك بمنزلة الجرس الخاطئ، كانت ردة فعلي الأولية الذهاب إلى الحرب بأقصى سرعة ممكنة. أما الآن فقد سمح لي الوقت بالتفكير. انعطفت القافلة باتجاه الشرق فوق الرمال الناعمة وتاهت في الأحلام، بينما كان القطار يتجه غرباً فوق سككهِ الحديدية بميكانيكية تخلو من التفكير. لماذا لم أرفع يدي وأقطع خط الاتصال؟ فهنا انتمائي، إلى الجمال والرجال الذين يقودونهم والرمال. ماذا يعنيني ذلك العالم وراء الجبال؟ هؤلاء الأوروبيون بحروبهم ومدنهم وقياصرتهم وأباطرتهم وملوكهم؟ ماذا تعنيني أحزانهم وأفراحهم، نظافتهم وقذارتهم؟ فنحن لدينا طرق مختلفة لنكون نظيفين أو وسخين، جيدين أو سيئين، لدينا نغم مختلف ووجوه مختلفة. ليسرع القطار إلى الغرب ما يشاء، فقلبي وروحي كلاهما ينتميان إلى الشرق.

فتحت النافذة على مصراعيها واتكأت عليها لأبعد ما يكون، ثمّ تابعتْ

عينايَ القافلة التي ابتعدت الآن. أصبحتُ هادئاً ورصيناً فقد وصلتُ إلى قرار: لا.. ليس هناك من أعداء في بلدي، وليس ثمة من يهدد منحدرات ما وراء القوقاز، إذاً هذه ليست حربي. كان الأمر مختلفاً بالنسبة للكوتشي، فهو لا يعبأ إن كان يقاتل من أجل القيصر أو من أجل الغرب، فقد كان عبداً لرغبته في المغامرة، ككل الآسيويين الذين أرادوا إراقة الدماء ليروا أعداءهم ينتحبون. أنا أيضاً أرغب في الذهاب إلى الحرب فروحي تتشوق من أعماقها إلى حرية القتال ودخان ميدان المعركة في المساء. الحرب كلمة رائعة، رجولية وقوية كطعنة رمح، لكن عليَّ الانتظار. ولهذا أشعر بالظلام في نفسي، فبِغضِّ النظر عمن سيربح الحرب، فالخطر يترصدنا ويتشكل مقترباً أكثر فأكثر، وهو خطر أكبر من كل غزوات القيصر معاً. لذلك يجب أن يبقى عدد كاف من الرجال في البلاد لمحاربة هذا العدو المستقبلي عندما يغزو مدننا وبلدنا وقارتنا. حتى أن هناك يداً خفية تمسك منذ اللحظة بلجام القافلة وتحاول أن تجبرها على الذهاب إلى مراعٍ جديدة والأخذ بطرق جديدة، وهي طرق الغرب، أي الطرق التي لا أرغب في اتباعها.

هذا هو إذاً السبب الذي سأبقى من أجله في المنزل، ولن أجرِّد سيفي إلا عندما تهدد القوة الخفيّة عالمي. استندتُ عائداً إلى مقعدي، كان من الخير أن فكرت في الأمر حتى نهايته. وعلى الأغلب سيقول بعض الناس إنني بقيتُ في المنزل لأنني لم أشأ ترك عيني نينو السوداوين. ربما سيكون أولئك الناس على حق، لأن هاتين العينين هما موطني، هما نداء الوطن للابن الذي يحاول الغريب حرفه عن الطريق القويم. سأدافع عن عيني وطني شديدتي السواد ضد الخطر الخفي.

نظرت إلى الكوتشي الذي سرعان ما غط في النوم وهو يشخر بحماس حربي.

9

وقفت المدينة بكسلٍ وفتور تحت وهج شمس آب في ما وراء القوقاز. لم يتغير وجهها المغضن على الإطلاق. اختفى الكثير من الروس الذين ذهبوا إلى القتال من أجل القيصر والوطن، وبدأت الشرطة بتفتيش منازل الألمان والنمساويين. ارتفعت أسعار النفط، وكانت أمور القاطنين داخل وخارج السور العظيم تسير بشكل حسن، وكانوا سعداء لأجل ذلك. ولم يقرأ برقيات الأخبار السريعة سوى المحترفين المواظبين على بيوت الشاي، فقد كانت الحرب بعيدة، كأنها على كوكب آخر... وبدتْ أسماء المدن التي تمَّ غزوها أو خسارتها أجنبية ونائية. كانت صُورُ الجنرالات تملأ صفحات الجرائد الأولى وهم يبدون ودودين، ممتلئين بالثقة وواثقين من النصر. لم أذهب إلى المعهد في موسكو، ولم أشأ ترك الوطن خلال الحرب، وقد احتقرني الكثيرون من أجل ذلك ولأنني لم أذهب إلى الحرب. وعندما نظرتُ من سطح منزلنا إلى الأسفل باتجاه دوامة المدينة القديمة المتعددة الألوان، أيقنت أنه لا يمكن لأمر أي قيصر أن يفصلني عن الجدار المحيط بمنزلي.

شعر والدي بالقلق والاستغراب: «أنت حقاً لا تريد الذهاب إلى الحرب؟ أنت، علي خان شيرفانشير؟».

«لا يا أبي، لا أريد الذهاب».

«سقط معظم أسلافنا في ساحة القتال، إنه الموت الطبيعي لأسرتنا».

«أعلم يا أبي، أنا أيضاً سأموت في ساحة القتال، لكن ليس الآن ولا في وقت بعيد».

«الموت أفضل من حياة العار».

«لن أحيا حياة العار غير أن هذه الحرب لا تعنيني». نظر اليَّ والدي بريبة. هل كان ابنه جباناً؟ ثم حدثني للمرة المئة عن تاريخ أسرتنا وكيف قاتل خمسة من الشيرفانشير تحت راية نادر شاه من أجل مملكة الأسد الفضي وكيف سقط أربعة منهم في الحملة ضد الهند وعاد واحد منهم فقط بالغنائم فاشترى العقارات وبنى القصور وبقي حياً بعد وفاة الحاكم المروع. وعندما حارب الشاه روكه ضد حسين خان، وقف سلفنا هذا إلى جانب الأمير آغا محمد، الكادجار العنيف، حيث تبعه مع أبنائه الثمانية خلال السند وخراسان وجورجيا. لم يعش منهم سوى ثلاثة واستمروا في خدمة المخصي العظيم حتى بعد أن أصبح شاهاً. وقد ربضت خيامهم في معسكر آغا محمد في شوشا ليلة مقتله. ودفع تسعة من أعضاء أسرة شيرفانشير دمهم ثمناً للعقارات التي أعطاهم إياها فتح علي، وريث آغا محمد في شيرفان ومازنداران وجيلجان وأذربيجان. أقطع الشاهنشاه الأخوة الثلاثة إقطاعيات وراثية وحكموا شيرفان. ثم قَدِمَ الروس، فدافع ابراهيم خان شيرفانشير عن باكو وقد أضفى موته البطولي في غاندشا شرفاً جديداً لاسمنا. ولم يفترق الشيرفانشير إلّا بعد عقد السلام في تركمنشاي. قاتل أعضاء الأسرة الفُرْس وماتوا تحت راية محمد شاه ونصر الدين شاه في الحملات ضد التركمان والأفغان، أما أعضاء الأسرة الروس فقد نزفوا حتى الموت من أجل القيصر في حرب القرم في المعارك ضد الأتراك والحرب اليابانية. وبهذه الطريقة حصلنا على أوسمتنا وميدالياتنا، وأبناء أسرتنا ينجحون في امتحاناتهم حتى وإن لم يعرفوا الفرق بين صيغة الفاعل وصيغة المفعول في اللاتينية.

«والآن تخوض البلاد حرباً من جديد»، أنهى والدي كلامه قائلاً،

«وأنت علي خان شيرفانشير تجلس على بساط الجبناء مختبئاً خلف مرسوم القيصر اللطيف. لا معنى للكلمات إن لم يكن تاريخ أسرتنا في دمك. عليك قراءة أفعال أسلافنا البطولية في قلبك وعروقك، لا في الكتب الميتة والمغبرة». فجأةً صمتَ والدي بحزن، لقد كرهني لأنه لم يفهمني. هل كان ولده جباناً؟ البلاد في حالة حرب، وهو لم يسرع إلى القتال ولم يتعطش لدم أعدائه ولم يرغب برؤية الدموع في أعينهم، لابد أن هذا الولد فاسد. كنت جالساً على البساط متَّكئاً على الوسادات الناعمة، فقلت له بمزاح: «لقد منحتني ثلاث أمنيات، الأولى كانت ذهابي لأقضي الصيف في كاراباخ، وإليك الثانية: سأجرد سيفي فقط عندما أريد ذلك، ولا أظن أن ذلك سيكون بعيداً. سيكون السلام من مواضيع الماضي لفترة طويلة وستحتاج بلادي لسيفي لاحقاً».

«حسناً»، قال أبي ولم يتحدث عن الحرب بعد ذلك، لكنه كان ينظر إليَّ نظراتٍ جانبيةٍ باحثاً عن شيء، فربما لم يكن ولده فاسداً رغم كل ذلك. تحدثت إلى الملا في جامع تازابير ففهمني على الفور، ثم أتى إلى منزلنا بثوبه الفضفاض ناشراً رائحة العنبر واختلى بوالدي لوقت طويل، وقال له إن هذه الحرب ليست جزءاً من واجبات المسلم طبقاً لتعاليم القرآن، واستشهد بأقوالٍ للرسول، وبعد ذلك حظِيتُ ببعض الهدوء والسلام في منزلي، فقد كانت شهوة الحرب تنتشر ولم يكن لدى الجميع الإدراك الكافي لضبط النفس. كنت أذهب أحياناً لرؤية الأصدقاء. عَبَرتُ بوابة زيزياناشفيلي وانعطفت يميناً باتجاه زقاق آشوم ثم عَبَرتُ شارع القديسة أولغا وتمشيتُ باتجاه منزل سِيْنالْ آغا.

كان إلياس بيغ جالساً على الطاولة وهو منحنٍ فوق دراساتٍ عسكريةٍ وقد انحنى إلى جانبه محمد حيدر، مُغفَّل المدرسة، وقد عقد حاجبيه وبدا خائفاً. لقد أثّرت الحرب به فترك بيت الحكمة على الفور وكان كإلياس بيغ لديه رغبة واحدة هي أن يحس بكتافيات الضباط الذهبية على كتفيه. لذلك

عكف كلاهما على التحضير لامتحان الضباط. وعندما دخلتُ إلى الغرفة سمعتُ تمتمات محمد حيدر اليائسة: «واجب الجيش والأسطول حماية القيصر والوطن ضد العدو الخارجي والداخلي». أخذت الكتاب من الفتى المسكين وبدأت بتفحصه: «من هو برأيك العدو الخارجي يا محمد حيدر؟»

عقد محمد حيدر حاجبيه وفكّر ملياً ثم انفجر قائلاً على نحو فجائي: «الألمان والنمساويون».

«هذا خطأ، أيها الفتى العزيز»، قلت له فرحاً، ثم قرأتُ بانتصار، «المصطلح (عدو خارجي) يصف كل قوة عسكرية لديها نوايا تشبه الحرب وتهدد بتجاوز حدودنا». ثم استدرت إلى إلياس بيغ وسألته: «ما معنى الرمي؟»

أجابني بطريقة أوتوماتيكية: «الرمي هو إخراج الطلقة من فوهة البندقية من خلال الماسورة وذلك بمساعدة البارود». استمرت لعبة الأسئلة والأجوبة لبعض الوقت وقد أُصبنا بالدهشة عندما وجدنا مدى صعوبة قتل العدو بالاستناد إلى القواعد والتعليمات. يا لنا من مجموعة من الهواة تمارس هذا الفن في هذا البلد. ثم بدأ إلياس بيغ ومحمد حيدر بالتحمس لمباهج حملتهما المستقبلية. لعبتْ صورة النساء الأجنبيات اللواتي تم التقاطهن بسلام من حطام المدن المدمرة دوراً كبيراً في أحلام يقظتهم تلك. ثم أخبراني أن جميع الجنود يحملون عصا المارشال في حقيبة ظهرهم، ونظرا إليّ بفوقية. ثم قال لي محمد حيدر: «عندما أُصبحُ ضابطاً عليك أن تكرمني وأن تسمح لي بالسير أمامك في الشارع، لأنني سأدافع عنكم أيها الكسالى بدمي الشجاع».

«عندما تصبح ضابطاً ستكون الحرب قد انتهت منذ أمد طويل وستكون القوات الألمانية قد احتلت موسكو». لم ينزعج بطلا المستقبل على الإطلاق من هذه النبوءة، لأنهما مثلي، لا يباليان بمن سيربح الحرب، فقد

كان بيننا وبين الجبهة مساحة تزيد عن سدس العالم، وببساطة كان من المستحيل على الألمان أن يحتلوا كل تلك المساحة. وسيُستبَدل حاكمنا المسيحي بحاكم مسيحي آخر، ذلك كل ما في الأمر. ولكن لا، فبالنسبة لإلياس بيغ كان الأمر عبارة عن مغامرة، أما محمد حيدر فقد رحب بهذا العذر لإنهاء دراسته بطريقة مشرفة وليكرس نفسه لعمله الطبيعي والرجولي. كنت واثقاً أن كلاً منهما سيصبح ضابط جبهة جيداً فشعبنا لا تنقصه الشجاعة. ولكن الشجاعة لماذا؟ لم يسأل أي من إلياس بيغ أو محمد حيدر نفسيهما هذا السؤال، وستكون جميع تحذيراتي بلا جدوى لأن شهوة الدم الشرقية قد استيقظت فيهما.

بعد أن احتقراني بما فيه الكفاية، غادرت منزل سِيْنالْ آغا مخترقاً تشابكات الأزقة الصغيرة في الحارات الأرمنية للوصول إلى المتنزه. كان بحر قزوين المالح ذو اللون الرصاصي يلعق الصخور الغرانيتية، وبدت سفينة مدفعية رابضة في المرفأ. جلستُ ونظرتُ إلى القارب الشراعي المحلي الصغير وهو يصارع الأمواج بشجاعة. كنت أستطيع الذهاب بيسر وراحة إلى مرفأ آسترا في فارس وإلى عش آمن آيل للسقوط في بلاد الشاه الكبيرة الخضراء، حيث أستطيع أن أجد هناك تنهدات حب حزينة صاغها الشعراء الكلاسيكيون في أبيات شعر جميلة. كما أستطيع أن أجد ذكريات رستم وأفعال هذا البطل الباسل وأريج حدائق الورود في قصور طهران. يا له من بلد جميل حالم.

ذرعت أرض المتنزه صعوداً ونزولاً محاولاً كسب الوقت لأنني كنت أشعر بغرابة من محاولة إقدامي على زيارة نينو في منزلها فقد كان ذلك مخالفاً لمفاهيم التصرف الحسن. ولكن كانت هناك حرب تدور رحاها وقد شعر كيبياني العجوز أنه قد يستطيع الذهاب إلى أبعد مما هو متوقع. أخيراً

أخذتُ نفَساً عميقاً وركضت إلى أعلى الدرج حيث المنزل الذي تعيش فيه نينو. كان مؤلفاً من أربعة طوابق وفي الطابق الثاني وجدتُ لوحةً معدنية كتب عليها: الأمير كيبياني. فتحت الباب خادمة ترتدي مئزراً أبيض وحيّتني، فأعطيتها قبعتي رغم أن الضيف في الشرق يحتفظ بقبعته، ولكنني كنت أعرف كيفية التصرف في صحبة الأوروبيين. كانت العائلة المرموقة تحتسي الشاي في قاعة الاستقبال. هذه القاعة كانت غرفةً كبيرةً وقد غطى الأثاث حرير أحمر ووُزِّعت الأزهار في القدور الفخارية على زوايا الغرفة. أما الحيطان فلم تكن مدهونة أو مغطاة بالبسط وإنما بورق الجدران. احتست العائلة المرموقة الشاي الإنكليزي بالحليب على الطريقة الإنكليزية في فناجين كبيرة مزخرفة بشكل جميل وقد قُدِّمَ بجانبها البسكويت. شممتُ رائحة البسكويت والرصل والماء المعطر بالخزامى حينما انحنيت لأقبل يد أم نينو. ثم صافحت الأمير، وأعطتني نينو ثلاثة أصابع وهي تنظر جانباً إلى فنجانها. جلستُ وقُدِّمَ إليَّ فنجان من الشاي. «إذاً، لقد قررتَ عدم الذهاب إلى الحرب في الوقت الحاضر ياخان؟»، سألني الأمير بلطف.

«لا، سمو الأمير، ليس بعد».

وضعت الأميرة فنجانها على الطاولة وقالت: «لو كنت مكانك لانضممت إلى نوع من اللجان التي تساعد في جهود الحرب، فسيكون لك على الأقل نوع من اللباس الرسمي».

«ربما سأفعل يا أميرة، إنها فكرة جيدة».

«سأفعل ذلك أيضاً»، قال الأمير، «حتى وإن لم يستطيعوا الاستغناء عني في مكتبي، فسأضحّي ببعض وقت الفراغ من أجل وطن الآباء».

«بالطبع يا أمير، ولكن للأسف ليس لدي الكثير من وقت الفراغ. أخشى أن بلاد الآباء لن تستفيد مني كثيراً».

دُهِشَ الأمير وسأل: «ولكن ماذا تفعل؟»

«أنا مشغول بإدارة أملاكي أيها الأمير». كان لهذه الجملة التي كنت قد قرأتها في رواية إنكليزية وقعها حيث أدَّتْ التأثير المطلوب. فحين لا يكون اللورد النبيل يفعل شيئاً، فهو يدير أملاكه. لاحظتُ أنني قد حِزتُ على تقديرٍ أعلى في نظر العائلة المرموقة. تبادلنا المزيد من العبارات الأنيقة، وبكياسة سمح لي باصطحاب نينو إلى الأوبرا تلك الليلة. قبّلتُ يد الأميرة ثانية وانحنيت من الوسط، حتى إنني لفظت حرف الراء بالطريقة البطرسبورغية ووعدت بالعودة في السابعة والنصف.

رافقتني نينو إلى الباب، وعندما أخذت قبعتي من الخادمة احمرَّ وجهها فأخفضتْ رأسها وقالت لي بلهجة تترية ساحرة وغير سليمة: «أنا مسرورة للغاية لأنك باقٍ هنا، ولكن قل لي، علي خان، هل أنت حقاً خائفٌ من الذهاب إلى الحرب؟ الرجال بالطبع يحبون القتال. وحتى أنا قد أحب جراحك». لم يحمر وجهي بل أخذتُ يدها وضغطتُ عليها.

«لا، أنا لست خائفاً، وسيأتي الوقت الذي ستصبحين فيه ممرضتي وتهتمين بجراحي. ولكن حتى يحين ذلك الوقت بإمكانك أن تظني أنني جبان، إذا كان ذلك يرضيك». نظرتْ نينو إليَّ من دون أن تفهم. ذهبتُ إلى المنزل ومزقتُ كتاباً مدرسياً قديماً للكيمياء إلى ألف قطعة، ثم احتسيت كأساً من الشاي الفارسي الحقيقي وحجزت مقصورة للأوبرا.

10

أغلقْ عينيك وسدَّ أذنيك بيديك وافتح روحك. أَوَتذكر تلك الليلة في طهران؟ بهوٌ ضخمٌ من الحجر الأزرق، توقيع الشاه نصر الدين في المدخل. مسرحٌ مُربّعٌ في منتصف الصالة وحوله رجال مبجّلون جالسون وواقفون ومضطجعون، وأطفال متحمسون وشباب متعصبون؛ يُشكّلون جميعهم الجمهور الخاشع وقد سيطرت على وجداناتهم مسرحية «الحسين التقي». كانت الصالة مضاءةً بنورٍ باهتٍ، ووقف على المسرح ملائكةٌ ملتحون يواسون الحسين. أرسلَ الخليفة المروِّع يزيد فرسانه إلى الصحراء ليعودوا برأس الشاب. قطعتْ طقطقة السيوف الأغاني النادبة. ثم تجول علي وفاطمة وحواء، المرأة الأولى، تائهين على خشبة المسرح وهم يلقون أبياتاً من الرباعيات، وقدم أحدهم رأس الحسين الشاب إلى الخليفة على طبقٍ من ذهب. ارتجف الجمهور وبكى، ثم عبَرَ مُلّا بين صفوف الحضور ليجمع الدموع في نسيجٍ صوفي وقطني، حيث كانت هناك قوىً سحريةً في تلك الدموع. فكلما كان إيمان المؤمن عميقاً، ازداد تأثير المسرحية عليه. ثم مثَّلَ لوحٌ خشبيٌّ الصحراءَ، ومثَّلَ صندوق مرصّع بالألماس تاج الخليفة، ومثَّلتْ عدة أعمدةٍ خشبيةٍ جنات عدن، ومثّل رجلٌ ملتحٍ دور ابنة الرسول.

افتحْ عينيك الآن وأنزلْ يديك ثم انظر حولك. سترى أنواراً شديدة الضياء تنبعث من عددٍ لا يحصى من المصابيح الكهربائية، وحيطان ومقاعد مكسوة بالمخمل الأحمر. أما المقصورات فمرفوعة عالياً بقوالب مُذهّبة من آلهة باريس. تلمعُ صلعات رؤوس الجالسين في المقاعد الأمامية كالنجوم في

الليل، ويزيد من حماسة المشهد ظهور وأيدي النساء العارية. تفصل هوة كبيرة المشاهدين عن خشبة المسرح حيث يجلس موسيقيون بلا أسماء ودون وجوه (يُدوزِنون) أوتار آلاتهم الموسيقية. وتمتلئ القاعة بصوتِ محادثاتٍ رقيقة، الواحدة تتدفق تلو الأخرى، كما يسمع المرء صوت رفرفة المراوح ويرى منظار الأوبرا. هذه أوبرا باكو قبل دقائق قليلة من بداية عرض أوجين أونجين. جلستْ نينو بجانبي وأدارتْ وجهها البيضوي باتجاهي. كانت شفتاها رطبتين ولم تتكلم كثيراً. وضعتُ ذراعي حول كتفها عندما أُطفئت الأنوار. أحنتْ رأسها جانباً وبدتْ غارقة في موسيقا تشايكوفسكي. تجول أوجين أونجين على خشبة المسرح في زي الوصي على العرش وغنّتْ تاتيانا على صوتِ أحد الأنغام.

أُفضِّلُ الأوبرا على المسرح، فقصص الأوبرا بسيطة بالمقارنة مع قصص المسرح، ومعظمها معروف على أي حال، كما أنني لا أمانع الموسيقا إذا لم يكن صوتها عالياً. أما في المسرح، فغالباً ما أبذل جهداً حقيقياً لمتابعة الأحداث الغريبة. يعم الظلام في المسرح، وعندما أغلق عيني، يعتقد جيراني أن روحي غارقة في محيط الموسيقا الساحرة. أبقيت عينيّ مفتوحتين هذه المرة. كانت نينو متّكئة إلى الأمام ورأيت الصف الأول من المقاعد من خلال منظرها الجانبي الرقيق، حيث جلس في الوسط رجل بدين ذو عينين كعيني الخروف وجبين كجبين الفلاسفة؛ كان ذاك هو صديقي القديم مِليك ناتشاراريان. رأيت رأسه يهتز متناغماً مع الموسيقا من خلال أنف نينو وعينها اليسرى.

همستُ قائلاً: «انظري، هذا ناتشاراريان».

همستْ بدورها: «انظر إلى خشبة المسرح أيها البربري»؛ لكنها ألقت نظرة خاطفة على الأرمني البدين. وهنا استدار ناتشاراريان وأومأ مُرحِّباً بطريقة ودية.

التقيت به في البوفيه خلال الاستراحة حيث كنت أُحضر الشوكولاته لنينو. قدِمَ إلى مقصورتنا وجلس هناك، كان بديناً وذكياً وأصلعَ بعض الشيء.

سألته: «كم عمرك يا ناتشاراريان؟»

أجاب: «ثلاثون».

نظرت نينو إلى الأعلى: «ثلاثون؟ أفترض إذاً أننا لن نراك في المدينة لوقت طويل».

«لماذا يا أميرة؟»

«لأن فئة عمرك قد تم استدعاؤها».

ضحك بصوتٍ عالٍ: «للأسف يا أميرة، لا أستطيع الذهاب إلى الحرب. فقد اكتشف طبيبي تقيحاً في الكِلى لديَّ يدعى أترابيلاريان وهو غير قابلٍ للعلاج، ولذلك عليَّ البقاء هنا». بدا اسم المرض غريباً بالنسبة لي وقد ذكَّرني بأوجاع المعدة.

كبُرتْ فتحة عيني نينو وسألت بتعاطف: «هل هذا المرض خطير؟»

«هذا يعتمد على...، فبمساعدة طبيب يتقن عمله جيداً، يمكن أن يصبح هذا المرض خطيراً».

شعرتْ نينو بالدهشة والاشمئزاز. كان مِليك ناتشاراريان عضواً في أعرق عائلة في كاراباخ، وكان والده جنرالاً، وكان هو نفسه قوياً كالثور، كامل الصحة وأعزب. دعوته إلى العشاء معنا عندما غادر مقصورتنا، فوافق. فُتحت الستارة ووضعت نينو رأسها على كتفي. وعندما بدأ فالس تشايكوفسكي الشهير، رفعت عينيها باتجاهي وهمست: «أنت بطل بالمقارنة مع ناتشاراريان، فعلى الأقل أنت لا تعاني من كِلى الأرابيلاريان».

«للأرمن خيال أكثر خصوبة مما لدى المسلمين»، أجبتها محاولاً خلقَ عذرٍ لناتشاراريان.

أبقتْ نينو رأسها على كتفي حتى عندما ظهر بطل التينور(*) لينسكي أمام مسدس أوجين أولجين الذي قُتِلَ كما هو مخطط له. كان انتصاراً كاملاً، سهلاً وأنيقاً، وشعرنا أنه ينبغي لنا أن نحتفل.

كان ناتشاراريان ينتظرنا عند المدخل، وكان يملك سيارةً بمحرك تقف إلى جانب عربة آل شيرفانشير التي يجرها حصانان، وكانت أنيقة جداً وأوروبية الطراز. أخذتنا في أزقة مدينتنا المظلمة ومررنا بمدرستينا حيث بدا هذان المبنيان أكثر لطفاً في الليل. توقفنا عند درج نادي المدينة الرخامي. كان ذلك خطيراً، ولكن إذا كان أحد المرافقين يدعى شيرفانشير والآخر يدعى ناتشاراريان، فليس على الأميرة نينو أن تقلق بشأن قواعد وتعاليم الملكة القديسة تامار.

أُضيء السطح الواسع بمصابيح بيضاء، واخترنا طاولة تطل على حديقة الحاكم المظلمة، حيث وميض البحر ومنارة جزيرة نارجين. تعانقت الكؤوس وعلت أصواتها، فشربت نينو وناتشاراريان الشمبانيا، أما أنا فاحتسيت البرتقال كما هي العادة، إذ لا شيء في الدنيا يمكن أن يجبرني على شرب الكحول علناً، ولا حتى عينا نينو. وأخيراً، عندما أراحتنا فرقة الرقص المؤلفة من ستة رجال، تحدث ناتشاراريان بجدية وبعمق: «ها نحن ذا نمثِّلُ أعرق ثلاثة شعوب قوقازية: جورجية ومسلم وأرمني. ولدنا تحت السماء نفسها، ومن الأرض نفسها، مختلفون ومع ذلك متشابهون كالثالوث المقدس. أوروبيون ورغم ذلك آسيويون، نأخذ من الشرق والغرب ونعطي كليهما».

قالت نينو: «كنتُ دائماً أظن أن القتال من العناصر القوقازية. ولكن هاأنذا أجلس بين قوقازيّين لا يريد أي منهما القتال».

نظر ناتشاراريان إليها بتسامح: «كلانا نرغب بالقتال يا أميرة، ولكن

(*) تينور: الصوت الصادح: أعلى أصوات الرجال.

ليس ضد بعضنا، فهناك حاجز بيننا وبين الروس وهذا الحاجز هو القوقاز. فإذا انتصر الروس، فستصبح بلادنا روسية بالكامل، وسنخسر كنائسنا ولغتنا وهويتنا، وسنصبح أبناء زنى أوروبيين/آسيويين بدلاً من أن نشكل جسراً بين العالمين. لا، فكل من يقاتل من أجل القيصر، فهو يقاتل ضد القوقاز».

تحدثت نينو بما تعلمته في المدرسة: «مزق الفُرس والأتراك بلادنا، فدمر الشاه الشرق ودمر السلطان الغرب. كم من الفتيات الجورجيات أصبحن إماءً وجُرجرن إلى الحرملك؟ حتى إن الروس لم يأتوا باختيارهم، فنحن من طلب إليهم المجيء، حيث تنازل جورج السابع عن العرش إلى القيصر بمحض إرادته. (أخذنا على عاتقنا حماية مملكة جورجيا، ولكن ليس من أجل توسيع رقعة أراضينا الحالية اللامتناهية). ألا تعرف هذه الكلمات؟» بالطبع نعرفها فقد حُفرت هذه الكلمات في ذاكرتنا بالتكرار المتواصل خلال ثماني سنوات: هذا البيان الرسمي الذي رسمه اسكندر الأول لنا منذ مئة عام الذي نستطيع رؤيته محفوراً على الصفائح المعدنية في شوارع تفليس الرئيسة: «أخذنا على عاتقنا حماية مملكة جورجيا، ولكن ليس من أجل توسيع رقعة أراضينا الحالية اللامتناهية...». لم تكن نينو مخطئة إلى حد بعيد، فقد كان حرملك الشرق في ذلك الزمن مليئاً بالأسيرات المسيحيات، وكانت شوارع المدن القوقازية تغصُّ بجثث المسيحيين. كنت بالطبع أستطيع الإجابة: «أنا مسلم وأنت مسيحية، وقد منحك الله لنا كغنيمة شرعية». لكنني صمتُّ وانتظرت إجابة ناتشاراريان التالية: «حسناً، أنت تعلمين يا أميرة أن على من يفكر بالسياسة أن يتحلى بالشجاعة ليكون غير عادلٍ في بعض الأحيان وحتى ظالماً. أنا أقر بأن الروس أرسوا دعائم السلام في البلاد، ولكننا نحن، شعوب القوقاز، نستطيع الآن حفظ السلام من دونهم. يدّعي الروس أن عليهم حمايتنا ضد بعضنا بعض، ولذلك يبقي الروس الأفواج العسكرية والموظفين المدنيين والحكام في بلادنا. ولكن اسألي نفسك يا أميرة: هل يجب أن تتم حمايتك مني؟ وهل يجب أن تتم حمايتي من علي خان؟ ألم

نجلس جميعنا معاً بسلام قرب نبع بيشابور؟ لقد مضت بالطبع تلك الأيام التي كان على القوقازيين أن يفكروا بفارس كعدو، العدو في الشمال وهو يحاول أن يؤكد على طفولتنا وعلى ضرورة حمايتنا من بعضنا متجاهلاً أننا لم نعد أطفالاً بل كبرنا منذ أمد طويل».

«ولهذا السبب لم تذهب إلى الحرب؟»، سألت نينو.

أجاب ناتشاراريان وقد شرب الكثير من الشمبانيا: «ليس فقط من أجل ذلك، فأنا كسول وأحب الراحة. إن مأخذي على الروس أنهم صادروا عقارات الكنيسة الأرمنية، كما أن المكان هنا أجمل من الخنادق. لقد فعلتْ عائلتي الكثير من أجل الشهرة، أما أنا فأتبع مذهب المتعة».

قلت له: «أنا أفكر بطريقة مختلفة، فأنا لا أتبع مذهب المتعة، ومع ذلك فأنا أحب الحرب».

«أنت شاب يافع يا صديقي»، أجاب ناتشاراريان ورفع كأسه ثانية. ثم استمر في الحديث لفترة طويلة وربما بذكاء حاد، وعندما بدأنا بالعودة إلى منزل نينو، كانت تلك الأخيرة قد اقتنعت تقريباً ولكن ليس بشكل تام، بأنه كان على حق. ركبنا سيارة ناتشاراريان. «هذه المدينة الرائعة»، تابع قائلاً وهو يقود سيارته، «إنها بوابة أوروبا ولو لم يكن الروس متخلفين هكذا، لأصبحنا بلداً أوروبياً».

فكّرتُ في أيام دروس الجغرافيا السعيدة وضحكت بصوتٍ عالٍ. لقد كانت أمسية ممتعة. ثم قبّلتُ يد نينو وعينيها وتمنينا لبعضنا ليلة سعيدة بينما كان ناتشاراريان ينظر إلى البحر. وبعد ذلك أوصلني إلى أبعد ما يمكن للسيارة الوصول إليه «بوابة زيزياناشفيلي»، حيث تقبع آسيا خلف السور. «هل ستتزوج نينو؟». كان ذلك آخر سؤال يسأله ناتشاراريان.

«إن شاء الله».

«سيكون عليك تجاوز عدة مصاعب يا صديقي، سأكون تحت تصرفك إذا احتجت المساعدة، فأنا من مناصري الزواج المختلط بين العائلات الأولى لشعبنا. علينا أن نقف معاً».

ضغطتُ على يده بحرارة، فقد تبين أن هنالك فعلاً أرمن محترمين. كانت هذه فكرة مقلقة. ذهبت إلى المنزل تعِباً حيث كان الخادم جالساً على الأرض يقرأ. ألقيت نظرة على الكتاب، كان قرآناً عربياً وكانت الزخرفات العربية منقوشة على صفحاته. وقف الخادم وحياني، فأخذت الكتاب الإلهي وقرأت: ﴿يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾. انبعثتْ رائحة لطيفة من الصفحة وسُمِعَ حفيف من الورق الرفيع الأصفر. حُفِظَتْ كلمات الله الشديدة والمهدِّدة بين الغلافين الجلديين. أعدتُ الكتاب ثم صعدت إلى غرفتي حيث الأريكة العريضة، المنخفضة والناعمة. أغمضت عيني كما أفعل عادة عندما أريد أن أرى بوضوح أكبر. رأيت الشمبانيا، أوجين أونجين في الحفلة، عيني ناتشاراريان اللتين تشبهان عيني الخروف، وشفتي نينو الناعمتين، وحشود الأعداء التي غمرت الجبل تريد غزو مدينتنا.

سُمِعَ صوت غناء رتيب من الشارع؛ كان ذلك صوت هاشم العاشق. كان مُسناً جداً، ولم يعلم أحد شيئاً عن الحب الذي كان يندبه. كرّمهُ الناس بإعطائه الاسم العربي «المجنون» أي العاشق. كان ينسل في الليالي خلال الأزقة الفارغة ويجلس في إحدى الزوايا يبكي ويُغنِّي أحزانه حتى الصباح بأنغامه الرتيبة التي تجعل النعاس يدب في جفوني. استدرتُ نحو الحائط وغرقتُ في الظلمة والأحلام. مازالت الحياة رائعة.

11

للعصا نهايتان: نهاية عُليا ونهاية سفلى، فإن قلبتَ العصا تصبح النهاية العليا في الأسفل والسفلى في الأعلى، لكن العصا نفسها لن تتغير مطلقا، وهكذا كان الحال معي. فأنا ما زلت كما كنت منذ شهر مضى، أو سنة مضت، ومازالت الحرب مستمرة في هذا العالم الكبير، كما أن الجنرالات أنفسهم ما زالوا ينتصرون أو يخسرون. لكن هؤلاء الذين كانوا يدعونني بالجبان منذ فترة وجيزة، أصبحوا الآن يخفضون أعينهم عندما يلاقونني. وأصبح الأصدقاء والأقارب يثنون على حكمتي، كما أصبح أبي ينظر إليَّ بإعجاب، لكن العصا نفسها لم تتغير. ففي أحد الأيام انتشرت شائعات في المدينة تفيد بأن سلطان الإمبراطورية العثمانية محمد رشيد قرر إعلان الحرب ضد عالم الكفار، وأن جيوشه المنتصرة تتحرك باتجاه الشرق والغرب لتحرير المؤمنين من نير الروس والإنكليز. لقد أُعلِنت الحرب المقدسة، هكذا قيل، ورفرفت راية الرسول الخضراء على قصر الخليفة. وهكذا أصبحتُ بطلاً وأتى الأصدقاء لرؤيتي وأثنوا على بُعدِ نظري. كنتُ محقاً تماماً في رفض الذهاب إلى الحرب لأنه لا ينبغي لمسلم مطلقاً أن يحارب السلطان، فإخوتنا الأتراك سيأتون إلى باكو وسيتوحد شعبنا معهم لنصبح أمة كبيرة من المؤمنين.

لزمتُ الصمت وانحنيتُ لهم دون أن أجيب على مديحهم، إذ لا ينبغي على الرجل العاقل أن يتأثر بالمديح ولا باللوم. بسطَ رفاقي الخرائط وبدؤوا يتشاجرون حول المكان الذي ستزحف منه القوات التركية إلى

المدينة. أوقفتُ المشاجرة بأنْ بينتُ لهم أنه بغض النظر عن الجهة التي سيأتي منها الأتراك، فلا بد أنهم قادمون عبر الحارة الأرمنية. نظر إليَّ رفاقي بإعجاب ثم أثنوا عليَّ مجدداً.

تتغير روح الإنسان بين ليلة وضحاها، فلم يعد أي مسلم يسارع إلى القتال مع القيصر. تعِب إلياس بيغ فجأة من القتال واضطر سِيْنالْ آغا لدفع مبلغ كبير جداً من المال لإعادته إلى حامية باكو. كان المسكين قد نجح لتوه في اجتياز فحص الضباط تماماً قبل أن تعلن تركيا دخولها في الحرب. وهكذا حصلت المعجزة: حتى محمد حيدر نجح في اجتياز فحص الضباط وأصبح كلاهما الآن برتبة ملازم أول، يجلسان في ثكنتيهما ويحسدانني لأنني لم أتعهد بالولاء إلى القيصر. لم يعد هناك سبيل للعودة الآن فلم يجبرهما أحد على ذلك، فقد أقسما يمين الولاء بملء إرادتهما وسأكون أول من يدير ظهره لهما إذا ما حنثا بالقسم.

كنت هادئاً جداً في تلك الأيام لأنني لم أستطع التفكير بشكل واضح، وكنت لا أخرج من المنزل إلا بين الفينة والأخرى لأتمشى مساءً إلى الجامع الصغير القريب من الحصن. كان يسكن هناك في منزل قديم، صديق لي من أيام الدراسة يدعى سيد مصطفى، وهو من سلالة الرسول، وكانت تبدو على وجهه آثار بثرة الجدري وله عينان صغيرتان لوزيتان ويرتدي وشاحاً أخضرَ يدل على مرتبته. كان والده إمام الجامع الصغير وكان قبر جدّه الحكيم المشهور قرب قبر الإمام رضا في مدينة مشهد المقدسة. كان يُصلي خمس مرات في اليوم. وكان يسلخ جلد صدره في عاشوراء حتى يتدفق الدم. كانت نينو ترى أنه متعصب وقد كرهته لذلك. أما أنا فقد أحببته لوضوحه ولأنه كان خلافاً للآخرين يستطيع تمييز الصالح من الطالح والحق من الباطل.

استقبلني بابتسامة الرجل الحكيم المرحة: «هل سمعت، علي خان، لقد

ابتاع يعقوب أوغلي الثري اثني عشر صندوقاً من الشمبانيا ليشربها مع أول ضابط تركي يأتي إلى المدينة. شمبانيا! شمبانيا على شرف الحرب المسلمة المقدسة!».

هززت كتفي بلا مبالاة: «وهل يدهشك ذلك يا سيد؟ لقد جُنَّ العالم».

«إن الله يُضِلُّ كل من يصب جام غضبه عليه»، قال سيِّد بتجهُّم. ثم قفز وارتجفت شفتاه قائلاً: «لقد فر البارحة ثمانية رجال من الجيش ليقاتلوا في جيش السلطان. ثمانية رجال! أريد أن أسألك علي خان، ماذا يظن هؤلاء الثمانية أنهم فاعلون».

أجبته بحذر: «إن رؤوسهم فارغة كمعدة حمار جائع».

كان غضب سيد بلا حدود. بكى قائلاً: «يريدون القتال من أجل الخليفة غير الشرعي!... من هو وريث الرسول؟ الخليفة أم إمام الأبدية الغائب، الذي تجري في عروقه دماء الرسول؟ نحن نندب منذ قرون، والدماء تُسفك. نحن هنا وهم هناك وما من جسرٍ يربطنا. لم يمض زمن طويل على ذبح السلطان سليم لأربعين ألف شخص من جماعتنا، والآن؟ نحن نحارب من أجل الخليفة الذي سرق إرث الرسول. نُسِيَ كل شيء الآن، دم الأتقياء وأسرار الأئمة. فالرجال في هذه المدينة توّاقون لقدوم الأتراك إلينا وتدمير عقيدتنا. ماذا يريد الأتراك؟ لقد تقدّم إنقِر حتى إلى اورميا، وستُشطَرُ إيران إلى نصفين. عقيدة الحق تُدمّر...». كانت دموعه تتدفق وهو يضرب بقبضته على صدره.

نظرتُ إليه متأثراً، ما الصحيح وما الخطأ؟ صحيح أن الأتراك ليسوا من ملّتنا، لكنني أتوق إلى رؤية إنقِر يدخل مدينتنا، ما معنى هذا؟ هل حقاً ذهبت دماء شهدائنا سدى؟ قلت له: «سيد، تجري في عروق الأتراك دماؤنا نفسها ولغتهم هي لغتنا نفسها، فدماء الطورانيين تجري في عروقنا معاً. ربما

لهذا السبب كان من الأسهل الموت تحت راية هلال الخليفة على الموت تحت راية صليب القيصر».

جفف سيد مصطفى دموعه وقال ببرودٍ وفخر: «تجري في عروقي دماء محمد، أما دماء طوران؟ يبدو أنك نسيتَ حتى الشيء القليل الذي تعلمته في المدرسة. اذهب إلى جبال ألطاي أو حتى أبعد من ذلك إلى حدود سيبيريا: من يعيش هناك؟ أتراك وهم مثلنا أيضاً وتجري في عروقهم دماؤنا نفسها ويتكلمون لغتنا نفسها. لقد أضلهم الله عن الطريق القويم، وبقوا وثنيين، يعبدون الأوثان: «سو تنغري» إله الماء، و«تِب تنغري» إله السماء. فإن صار هؤلاء الجاكوت أو رجال ألطاي أكثر قوة منا وحاربونا، فهل نفرح نحن الشيعة بانتصارات هؤلاء الوثنيين فقط لأن لهم دماءنا نفسها؟».

سألته: «ما الذي يجب أن نفعله يا سيد؟ لقد صدئ سيف إيران، وكل من يحارب ضد الأتراك فهو يساعد القيصر. هل علينا نحن المسلمين أن ندافع باسم محمد عن صليب القيصر ضد هلال الخليفة؟ ماذا علينا أن نفعل يا سيد؟» غرقَ مصطفى في حزن كبير. ثم نظر إليّ وبدا كما لو أن كل تعاسة الألفية المنصرمة قد تجمعتْ في عينيه.

«ما الذي علينا فعله، علي خان؟ لا أعلم». كان يشعر بالألم، ورغم ذلك لم يختبئ حتى في هذا الموقف وراء العبارات الفارغة.

لزمتُ الصمت حائراً. كان المصباح الزيتي الصغير ينشر الدخان، ومضتْ تحت دوائر الضوء الصغيرة سجادة الصلاة كأزهار في الحديقة يمكن طيّها وأخذها في رحلة. كان سيد مصطفى في هذا العالم كما لو كان في رحلة، لذلك كان من السهل عليه شجب آثام الآخرين. سيصبح خلال عشرة أو عشرين عاماً إمام قبر رضا في مشهد، أي واحداً من هؤلاء الحكماء غير المرئيين والمتعذر إدراكهم حسياً والذين سيقودون مصير فارس، فهو منذ الآن يمتلك عيني الرجل الكبير المتعب العارف بكبر سنه والذي يتقبل الأمر.

إنه لن يتزحزح قيد أنملةٍ عن دين الحق، حتى لو كان فِعله لذلك قد يعيد لفارس قوتها وعظمتها. فالهلاك أفضل من العثور على روعة الحياة الدنيا من خلال المرور في مستنقع الآثام. لذلك كان صامتاً ولم يدرِ ما الذي ينبغي فِعْله. ولذلك أنا أحبه، فهو الحارس الوحيد في عتبة عقيدة الحق. قلت له محاولاً تغيير الموضوع: «مصيرنا بين يدي الله يا سيد مصطفى، فليسدد الله خطانا إلى الطريق القويم. لكنني الليلة أريد محادثتك بأمر آخر». نظر سيد مصطفى إلى أصابعه المحناة وانزلقت من بين أصابعه سبّحة بلون الكهرمان(*)، نظر إلى الأعلى وبدا وجهه بآثار الجدري الباقية عليه مبتسماً: «أعلم يا علي خان، أنت تريد أن تتزوج».

وقفت مندهشاً. لقد كنت أريد الحديث عن إقامة منظمة للكشافة لِصِبْيَةِ المسلمين الشيعة. لكنَّ سيِّد تصرف من موقع رجل الدين العارف والمهتم بالآخرين.

«كيف علمت أنني أريد الزواج، وما علاقتك بالأمر؟»

«أرى ذلك في عينيك والأمر يعنيني لأنني صديقك. أنت تريد الزواج بنينو المسيحية والتي لا تحبني».

«هو كذلك، فماذا ترى؟»

نظر سيد إليّ بطريقة حكيمة ومتفحصة: «أنا أقول نعم يا علي خان. من الأفضل أن يتزوج الرجل المرأة التي تعجبه، وليس من الضروري أن تبادله الإعجاب، فالرجل الحكيم لا يغازل المرأة، فهي مجرد أرض وعلى الرجل أن يبذرها. أينبغي للحقل أن يحب المزارع؟ يكفي أن يحب المزارع الحقل. تزوج ولكن لا تنسَ أبداً أن المرأة مجرد أرض».

«إذاً أنت تعتقد أن المرأة لا تمتلك روحاً ولا ذكاء؟».

(*) الكهرمان: الأصفر الضارب للحمرة. م.

نظر إليَّ بإشفاق: «علي خان، كيف تسأل مثل هذا السؤال؟ بالطبع لا. ولِمَ عليها أن تمتلك أياً منهما؟ يكفيها أن تكون طاهرة وأن تنجب العديد من الأولاد، فالقانون يقول: «شهادة الرجل أكثر من شهادة ثلاث نساء، لا تنسَ ذلك أبداً علي خان». كنت قد هيأت نفسي لأسمع سيد مصطفى يلعنني لأنني أريد الزواج بمسيحية لا تحبه، لذلك تأثرت بإجابته، فقد أثبتَ ثانية أنه رجل صادق وحكيم، قلت له بفتور: «اذاً أنت لا تمانع كونها مسيحية؟ أم هل ينبغي أن تصبح مسلمة؟».

«ولماذا عليها أن تصبح مسلمة؟ على أية حال، ليس من الضروري لمخلوقة لا تملك روحاً ولا ذكاءً أن يكون لها عقيدة. لأنه ليس ثمة جنة أو جهنم تنتظرها، فعندما تموت يتفسخ جسدها ويتحول إلى لا شيء. يجب أن يصبح الأبناء شيعة طبعاً». هززت رأسي موافقاً، ثم نهض سيد وذهب إلى خزنة الكتب وأخرج كتاباً مغبراً. نظرتُ إلى الغلاف ذي العنوان الفارسي: (دشينبار توسرهشي ألي سلجوق) أي: قصة السلاجقة. فتح الكتاب ثم قال: «هنا في الصفحة 207». ثم قرأ بصوتٍ عالٍ: «مات السلطان علاء الدين كيكوباد في قصر كابادیا في عام الطيور 637. فاعتلى (عاجاس الدين كيتشوسروف) عرش السلاجقة، وتزوج ابنة أمير جورجي، وقد أحبها لدرجة أنه أمر بنقش صورتها إلى جانب صورته على عملة مملكته. فتحدث الرجال الحكماء والأتقياء إليه وقالوا له: «لا ينبغي على السلطان أن يخالف تعاليم الله، فإن هذا بمثابة الإثم، فغضب الحاكم القوي بشدة وقال: [وضعني الله فوقكم جميعاً وقدركم هو طاعتي]. عاد الرجال الحكماء والأتقياء أدراجهم وهم يشعرون بالحزن، لكن الله هدى السلطان فاستدعى الرجال الحكماء والأتقياء وقال: [لن أخالف تعاليم الله المقدسة التي فرضها عليَّ، فليكن الأمر كالآتي: الأسد ذو الشعر الطويل والسيف في كفه الأيمن هو أنا والشمس الساطعة فوق رأسه هي المرأة التي أحب. فليكن هذا هو القانون]». ومنذ ذلك الحين أصبح الأسد والشمس شعار فارس. يقول الرجال الحكماء إنه لا

يوجد أجمل من النساء الجورجيات، أغلق مصطفى الكتاب وابتسم: «أنت الآن تفعل ما فعله كيتشوسروف حينذاك، ولا يوجد قانون يعارض ذلك. النساء الجورجيات جزء من الغنائم التي وعد بها الرسول أتباعه المخلصين، اذهب وخذها، هكذا كُتِبَ في الكتاب». أصبح وجه سيد العابس رقيقاً على حين غرة ولمعت عيناه شديدتا الصغر. شعر بالسعادة لأنه بدّدَ بكلمات الكتاب المقدس ضيق التفكير والحيرة الملازمتين للقرن العشرين. فلينظر الكفار أين يكمن التقدم الحقيقي. عانقته وقبلته ثم ذهبت إلى المنزل خلال الأزقة القاتمة بخطوات ثابتة وقوية فقد كان الكتاب المقدس ومصطفى الحكيم في صفي.

12

الصحراء بوابة عالم غامض لا يُسبر غوره. تطايرت الحجارة والغبار من تحت حوافر حصاني. كما كان سرجي القوقازي ناعماً كونه محشواً بالزغب. يستطيع القوزاقي النوم في هذا السرج والوقوف والاضطجاع عليه، كذلك توجد جميع الطيبات الدنيوية في حقيبة السرج: قطعة خبز، زجاجة فودكا وحقيبة من القطع النقدية الذهبية وهي حصيلة غنائمه من قرية كباردين، أما أنا فكانت حقيبة سرجي فارغة وكنت أصارع الرياح الصحراوية العاصفة حيث لا يوجد شيء خلف الرمال الرمادية التي لا تنتهي. يتدلى من كتفي رداء البوركا المصنوع من اللباد والذي يقيني بلطف من الحر أو البرد. هذا الثوب اخترعه اللصوص وممتطو الأحصنة لأغراض السرقة وركوب الخيل حيث لا تستطيع أشعة الشمس ولا قطرات المطر اختراقه. ومن الممكن أن يتحول بسهولة إلى خيمة لإخفاء جميع الغنائم الناجمة عن عملية سرقة جريئة في طية البوركا السوداء. وتقبع الفتيات المخطوفات كالببغاوات في القفص خلف خاطفهن يحميهن رداء البوركا.

امتطيت صهوة حصاني متجهاً نحو بوابة الذئب الرمادي. حيث شيّدَ التيتان(*) في عصور ما قبل التاريخ، هاتين الصخرتين الرماديتين الباليتين بفعل الزمن وسط محيط من الرمال في منتصف الصحراء قرب باكو. الذئب

(*) التيتان: واحد من أسرة الجبابرة التي حكمت العالم قبل آلهة الأولمب. (قاموس المورد).

الرمادي ساري كيرت، سلَف الأتراك، قاد قبيلة العثمانيين ذات مرة خلال البوابة الضيقة والضخمة إلى سهول الأناضول كما تروي الأسطورة القديمة. ومازالت ذئاب الصحراء وأبناء آوى، تجتمع في الليالي التي يكتمل فيها القمر، حول الصخور وتعوي كالكلاب النابحة حول جثة، هذه الحيوانات تتمتع بحاسة كونية فيما يتعلق برائحة الموت، فهي تحس بأن القمر جثة. وعندما يكون المرء على وشك الموت، تبدأ الكلاب في منزله بالنباح، فهي تشتم رائحة الموت حتى إن كان المرء ما زال على قيد الحياة. الكلاب أقرباء ذئاب الصحراء مثلما نحن ـ الرعايا الروس ـ نسباء الذئاب الذين يقودهم إنڤِر باشا إلى القوقاز. كنت ممتطياً حصاني خلال الخواء في الصحراء الكبيرة إلى جانب والدي الذي إذا ما امتطى صهوة جواده توحد به ليصبح كالقنطور(*). ناديته بصوت مبحوح «سفر خان»، وكنت نادراً ما أنادي والدي باسمه الأول. «سفر خان، يجب أن أتحدث إليك».

«تحدث ونحن ممتطون الأحصنة، بُني، فمن السهل الكلام عندما يتوحد الجواد مع ممتطيه». هل يسخر مني والدي؟ ضربت بالسوط خاصرة جوادي، رفع والدي حاجبيه وأدركني بحركة صغيرة بفخذه.

«حسناً، بُني؟» كان صوته يبدو وكأنه يهزأ بي.

«أريد الزواج، سفر خان».

خيَّمَ صمتٌ طويلٌ بينما كانت الرياح تصفر والحجارة تدور تحت حوافر أحصنتنا. أجابني أخيراً: «سأبني لك ڤيلا، فأنا أعرف مكاناً في المتنزه وأفترض أن هناك إسطبلاً. يمكنك البقاء في مارداكجاني خلال الصيف. وعليك أن تسمي ابنك الأول إبراهيم على شرف جَدّنا. سأعطيك سيارة

(*) القنطور: كائن خرافي نصفه فرس ونصفه رجل. (قاموس المورد).

بمحرك إن كنت ترغب بواحدة، لكن لا معنى لاقتنائها لأنه ليست هناك طرق لاستعمالها، من الأفضل اقتناء إسطبل مليء بالأحصنة».

خيَّمَ الصمت ثانية، وأصبحت بوابة الذئب الرمادي خلفنا. تابعنا المسير باتجاه البحر وضاحية بيلوف، بدا صوت والدي بعيداً جداً: «هل أبحث لك عن عروس جميلة أم أنك تدبرت أمرك وعثرت على واحدة بنفسك، ففي هذه الأيام غالباً ما يختار الشبان نساءهم بأنفسهم».

«أريد الزواج بنينو كيبياني».

أصبح وجه والدي جامداً وداعبت يده اليمنى الشعر في عنق الحصان. «نينو كيبياني»، قال والدي ثم تابع، «ردفاها ضيقان جداً، لكن أعتقد أن تلك هي بنية الجورجيات ورغم ذلك ينجبن أطفالاً أصحاء».

«أبي!» لم أدرِ لماذا شعرت بالاشمئزاز ولكن هذا ما حصل. نظر إليّ والدي نظرة جانبية وابتسم.

«أنت مازلت صغيراً، علي خان. فردفَا المرأة أكثر أهمية من معرفتها باللغات». ثم سأل متعمداً بلهجة غير رسمية: «متى تنوي الزواج؟»

«في الخريف عندما تنهي نينو مدرستها».

«جيد جداً، إذاً سيولد الطفل في أيار القادم، أيار شهر محظوظ».

«أبي!». سيطر عليّ الغضب ثانية بحيث لم أعد أفهم نفسي، فقد شعرت بأن والدي يجعلني أبدو كالمغفل. فأنا لا أتزوج نينو بسبب ردفيها أو معرفتها باللغات، بل أتزوجها لأنني أحبها. ابتسم والدي ثم أوقف حصانه وقال: «الصحراء واسعة وفارغة؛ لا يهم على أية هضبة نتناول فطورنا فأنا جائع، لنأخذ قسطاً من الراحة هنا». ترَجَّلنا ثم أخرجَ والدي من سرجه قطعة من الخبز وبعضاً من جبنة الغنم وقدّمَ لي نصفها، لكنني لم أكن جائعاً. استلقينا على الرمال، وتناول والدي طعامه وهو ينظر بعيداً، ثم بدا وجهه

أكثر جدية فرفع نفسه وجلس بشكل مستقيم كمدك البندقية مصالباً رجليه وقال: «إنه لأمر جيد أنك ستتزوج. لقد تزوجتُ ثلاث مرات لكن زوجاتي الثلاث قضين نحبهن كالذباب في الخريف، وأنا الآن لست متزوجاً كما تعلم، لكنني قد أتزوج عندما تتزوج أنت. عزيزتك نينو مسيحية فلا تدعها تُدخل العقيدة الغربية إلى منزلنا. من المهم أن تعلم أن المرأة وعاء هش. لا تضربها عندما تكون حاملاً، لكن لا تنسَ مطلقاً أنك السيد وأنها تعيش في ظلك. يحق للمسلم الزواج بأربع نساء في آن معا كما تعلم، ولكن من الأفضل أن ترضى بواحدة إلا في حال عدم إنجاب نينو أطفالاً لك. لا تخنها، فلزوجتك الحق في كل قطرة من سائلك المنوي، واللعنة الأبدية تنتظر الزاني، النساء كالأطفال إنما أكثر براعة وقسوة، من المهم جداً أن تعلم هذا أيضاً. أغرقها بالهدايا إن أردت ذلك، قدم لها الحرير والمجوهرات. أما إذا سألتها النصيحة وقدَّمتها لك فافعل عكس ما تقول لك، ربما هذا أهم شيء ينبغي لك أن تعلمه».

«لكن يا أبي، أنا أحبها».

هز رأسه: «محبة المرأة ليس بالأمر الحسن بشكل عام، فالمرء يحب وطنه أو الحرب كما يحب بعض الرجال السجاجيد الجميلة أو الأسلحة النادرة، ولكن قد يحدث أن يحب الرجل المرأة. أنت تعلم جميع الأغاني عن حب ليلى والمجنون أو حافظ غزال الذي قضى حياته، وهو يغني عن الحب، لكن بعض الحكماء يروون أنه لم ينم مع امرأة في حياته. أما المجنون فهو مجرد مهووس، صدقني، إنه على الرجل أن يعتني بالمرأة، ولكن عندما أقول عليها أن تحبه، فهذه إرادة الله». لزمتُ الصمت ولم ينبس والدي بأية كلمة أخرى. ربما كان مُحقاً، فالحب ليس أهم شيء في الحياة بالنسبة للرجل، لكنني لم أكن قد وصلت لِقِمَّةِ الحكمة كما فعل والدي. وفجأة ضحك والدي وبكى فرحاً: «حسناً، سأذهب في الغد إلى الأمير كيبياني وأتحدث إليه بالأمر، أم يفضل شبان اليوم طلب يد العروس بأنفسهم؟».

«سأتحدث بنفسي إلى الأمير كيبياني»، قلت بسرعة.

امتطينا جوادينا ثانية وسرنا باتجاه بيلوف. رأينا هياكل النفط المعدنية في بيبي ايبات وبدت السقالات السوداء كالخشب الأسود البغيض وعبق الهواء برائحة النفط. وقف العمال وأيديهم تقطر نفطاً قرب الحُفَر المثقوبة حيث تدفق سيل غزير من النفط فوق الأرض المشحمة. ثم سمعنا فجأة صوت إطلاق نار عندما مررنا بجانب سجن بيلوف. سألت: «هل هناك إعدام؟». كلا، لم يكن إعداماً هذه المرة، فصوت الرصاص قادم من الثكنة في حامية بيلوف حيث كانوا يتدربون على فنون الحرب. سألني والدي: «هل ترغب برؤية أصدقائك؟». هززت رأسي موافقاً، فسرنا إلى ساحة الاستعراض العسكري حيث كان إلياس بيغ ومحمد حيدر يدربان سريتهما والعرق يقطر من وجهيهما.

«يمين ـ يسار ـ يمين ـ يسار».

كان وجه محمد حيدر في غاية الجدية بينما بدا إلياس بيغ كدمية رقيقة يسيطر عليها عقل شخص آخر. قدِما إلينا وألقيا علينا التحية. سألتهما: «هل أحببتما الجيش؟». صمتَ إلياس بيغ بينما عبس محمد حيدر ثم نخرَ كالخنزير وقال: «إنه أفضل من المدرسة على أية حال».

«سيأتينا قائد جديد، إنه الكونت ميليكوف من شوشا»، قال إلياس بيغ.

«ميليكوف؟ أنا أعرفه، أليس صاحب الحصان الأحمر المذهب؟».

«هو بعينه، الحامية بأسرها مليئة منذ الآن بالأحاديث عن حصانه».

لزِمْنا الصمت، وغطى الغبار السميك أرض الاستعراض العسكري. نظر إلياس بيغ إلى البوابة وبدت في عينيه نظرة حالمة وغيرةٌ وشوق. ربّتَ والدي بيده على كتفه: «لا تشعر بالغيرة من حرية علي خان، فهو على وشك التخلي عنها».

ضحك إلياس بيغ وهو يشعر بالحرج «نعم، ولكنه سيتخلى عنها لنينو».

رفع محمد حيدر رأسه بفضول: «أوه، لقد حان الوقت لذلك».

كان محمد حيدر متزوجاً منذ فترة طويلة، وكانت زوجته ترتدي الحجاب. لم نعرف أنا أو إلياس بيغ أي شئ عنها حتى اسمها. نظر إليَّ بترفُّع وعقّد حاجبيه وقال: «الآن سترى ما هي الحياة الحقيقية». بدا ذلك التعليق سخيفاً جداً، إذ ما الذي يمكن لمحمد حيدر وزوجته المحجّبة أن يعرفاه عن الحياة؟ صافحت صديقيَّ وغادرت.

استلقيتُ على الأريكة عندما وصلتُ إلى المنزل. الغرفة الآسيوية دائمة البرودة، ففي الليل تملأ البرودة الغرفة كالماء الذي يجري في النبع، وفي النهار يدخل المرء اليها ملتجئاً من الحرارة كما لو كان يدخل حماماً بارداً. رنَّ جرس الهاتف فجأة، سمعتُ صوت نينو يحتج: «علي خان، أنا أموت من شدة الحرارة ومن الرياضيات، تعال وساعدني».

بعد عشر دقائق مدّت نينو يديها النحيلتين إليَّ. كانت أصابعها الرقيقة مُلوّثة بالحبر، فقبّلتُ تلك اللطخ. «نينو، لقد تحدثت إلى والدي وهو موافق». ارتجفتْ نينو وضحكتْ ثم نظرت حول الغرفة بخجل وقد احمر وجهها. وقفتْ قريبة جداَ مني، فنظرتُ إلى بؤبؤ عينيها الواسعتين، همستْ قائلة: «علي خان، أنا خائفة، خائفة جداً».

«خائفة من الامتحان يا نينو؟»

«لا». استدارتْ ونظرتْ إلى البحر. ثم دفعت يدها لتغوص في شعرها وقالت: «علي خان، قطار يمشي من المدينة س إلى المدينة ع بسرعة 50 ميل في الساعة...». يا لحلوتي! انكببتُ فوق كتبها المدرسية.

13

ملأ المدينة ضباب كثيف قادم من البحر، وأضاءت المصابيح الموزعة في زوايا الشوارع بشكل باهت. كنت أركض خلال المتنزه وتظهر أمامي وجوه لا مبالية أو خائفة ثم تختفي. تعثرتُ بلوحٍ خشبيٍّ ثقيل مرمي على الطريق فوقعت على شكلٍ مقرفصٍ لرجل من المرفأ، كانت نظرته مبطنة وهو يحملق في البعيد. وكان فمه الثخين يتحرك ماضغاً الحشيش، وهو يغوص في خيالاتٍ وحشية. ضربتُ بيدي على ظهره محدثاً صوتاً مكتوماً ثم أكملت عدْوِي. غمزتْ لي نوافذ البيوت الصغيرة قرب المرفأ؛ ودستُ على بعض الزجاج المتناثر هنا وهناك وسمعته ينكسر؛ ثم رأيت وجهاً فارسياً مُشوّهاً بفعل الخوف. كما ظهرَ بطنٌ أمامي، فدفعتني رؤية البدانة البشرية إلى الجنون، دفعتُ برأسي في ذلك البطن بكل قوتي، كان ناعماً وسميناً، سمعت صوتاً يتحدث بلطف: «مساء الخير علي خان». رفعتُ رأسي ورأيت ناتشاراريان يخفض عينيه لينظر إليَّ وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه. صرخت: «اللعنة!». وكنت على وشك الركض ثانية، لكنه أمسك بي: «أنت تشعر بالانزعاج يا صديقي، من الأفضل لك أن تبقى معي». بدا صوته ودوداً، وفجأة شعرت بالتعب. وقفتُ هناك متهالكاً وأنا أتصبب عرقاً. «لنذهب إلى فيليفبوجانز»، قال لي ناتشاراريان. فأومأت برأسي موافقاً، كان كل شيء سواء بالنسبة لي. أخذ ناتشاراريان بيدي وقادني عبر شارع بارجاتينسكي باتجاه المقهى الكبير. وعندما غرقنا في الكراسي الكبيرة قال لي

بتفهم: «إنه الشَعر، الشَعر القوقازي. إنها على الأغلب الحرارة التي تقبض الصدر. أم أن هناك سبباً خاصاً، علي خان، يجعلك تندفع ثائراً هكذا؟».
جلستُ في المقهى، في الغرفة ذات الكراسي الناعمة والجدران المغطاة بالحرير الأحمر، أشرب الشاي الساخن وأخبر ناتشاراريان القصة بأكملها: كيف خابرتُ عائلة كيبياني في الهاتف أطلب لقاءهم اليوم، وكيف غادرت نينو المنزلَ خلسة على رؤوس أصابعها وهي تشعر بالخوف، وكيف قبلت يد الأميرة وصافحت الأمير، ثم كيف أخبرتهم عن شجرة عائلتنا القديمة ودخلها المادي، وطلبي ليد الأميرة نينو للزواج، وقد فعلت كل ذلك بلهجة روسية مثالية لدرجة أن القيصر نفسه قد يحسدني عليها.

«ثم ماذا يا صديقي؟» بدا ناتشاراريان مهتماً جداً.

«ثم ماذا؟ اسمع هذا!». قلّدتُ حركات الأمير وصوته باللكنة الجورجية الخفيفة: «ابني العزيز، المبجل علي خان، أرجو أن تصدقني، إنه لا يمكنني تصور زوج أفضل منك لطفلتي. يا لسعادة المرأة التي يختارها شخص بأخلاقك، لكن هناك مسألة عمر نينو، فهي رغم كل شيء لا تزال طالبة مدرسة. ما الذي بإمكان طفلة كهذه أن تعرفه عن الحب؟ نحن بالطبع لن نطبق هنا نظام زواج الأطفال الهندي. بالإضافة إلى هذا فهناك الاختلاف في الدين والتربية والإرث. أنا أقول هذا لمصلحتكما معاً، وأنا واثق أن والدك يفكر بالطريقة نفسها. وأيضاً، هذه الأوقات، هذه الحرب الرهيبة، الله أعلم ماذا سيكون مصيرنا. أنا لا أريد أن أقف في طريقها، ولكن لندع الأمور كما هي في الوقت الراهن، لنتركها حتى نهاية الحرب. عندها ستكبران كلاكما، وإذا بقيت مشاعرك بالقوة نفسها التي هي عليها اليوم، فسيكون لنا حديث آخر».

«وماذا ستفعل الآن يا خان؟»، سأل ناتشاراريان.

«سأخطف نينو وأذهب بها إلى فارس، لا أستطيع تقبُّل هذه الإهانة بِذُل. أيُرفضُ أحد أفراد عائلة شيرفانشير! ماذا يظن نفسه؟ أشعر بالإهانة يا ناتشاراريان. إن عائلة شيرفانشير أقدم من عائلة كيبياني. لقد دمَّرنا جورجيا بأكملها في فترة حكم آغا محمد شاه، حينذاك كان أي من آل كيبياني يُسَرُّ جداً لتزويج ابنته من أحد أفراد الشيرفانشير. ثم ما الذي يعنيه باختلاف الأديان؟ هل المسيحية أفضل من الإسلام؟ وماذا عن شرفي؟ سيضحك عليَّ أبي ذاته. مسيحي يرفض تزويجي بابنته. نحن المسلمين ذئاب فقدت أسنانها. منذ مئة عام...». شعرت بالاختناق بفعل سخطي الشديد وأوقفت ثورتي، فلقد تفوهت بالكثير من الكلام الذي كان من الأفضل أن يبقى طي الكتمان. ناتشاراريان مسيحي أيضاً ولديه كل الحق بأن يشعر بالإهانة، ولكنه لم يفعل:

«أنا أتفهم غضبك، لكنه لم يرفضك، من السخافة بالطبع الانتظار حتى نهاية الحرب، ولكنه فقط لا يدرك أن ابنته قد كبرت. أنا لست ضد الخطف، فهي عادة قديمة وثابتة لتسوية الأمور وتصب تماماً ضمن عادات بلادنا، ولكنها حتماً الملاذ الأخير. ينبغي لأحد ما أن يشرح للأمير المعنى الثقافي والسياسي لهذا الزواج، أنا واثق أنه سيوافق حينها».

«ولكن من يكون ذلك الشخص؟».

دق ناتشاراريان براحة يده العريضة على صدره وقال: «أنا سأفعل، اعتمد عليَّ يا خان».

نظرت إليه مذهولاً، ما الذي يدور في رأس هذا الأرمني؟ إنها المرة الثانية التي يتدخل بها في حياتي. ربما يحاول كسب أصدقاء مسلمين وهو يشاهد تقدم الأتراك، أو ربما يخطط بالفعل لتشكيل اتحاد من الشعوب القوقازية. لم آبه لذلك، فمن الواضح أنه حليف لي. أعطيته يدي فأبقاها في

يده: «دع الأمر لي، سأنقل إليك الأخبار، لكن لا تلجأ للخطف إلا كحل أخير».

وقفتُ وساورني شعور بأنه يمكنني الوثوق بهذا الرجل البدين، فعانقته وغادرت المقهى. وعندما خرجت إلى الشارع تبعني أحدهم. التفتُّ فرأيتُ سليمان آغا، وهو صديق قديم لوالدي كان جالساً داخل المقهى. «ياللعار، أحد أفراد شيرفانشير يعانق أرمنياً». لهثتُ، ولكنه كان قد اختفى في الضباب، فتابعت سيري. فكرتُ أنه من حسن الحظ أنني لم أخبر والدي عن سبب ذهابي إلى عائلة كيبياني اليوم. سأخبره أنني لم أتحدث إليهم بالأمر حتى الآن. ثم استغرقت في التفكير: «أليس من الغباء هذا الكره للأرمن».

تمحورتْ حياتي في الأسابيع القليلة اللاحقة حول صندوق الهاتف الأسود. فجأة، أصبح ذلك الشيء ذو الشكل السيء والمقبض المعقوف، أداةً بالغةَ الأهمية. جلست في المنزل يوماً بعد يوم أدمدم بأشياء غير مفهومة ولا سيما عندما يسألني والدي عن سبب ترددي في عرض الزواج. ومن وقت لآخر، يرن الغول الأسود، فأرفع السماعة لتنبئني نينو بالبرقيات من ساحة المعركة: «أهذا أنت يا علي؟ اسمع، ناتشاراريان يجلس مع ماما ويتحدث إليها عن قصائد جدها، الشاعر رلينو تشافتشافيدس». وبعد قليل: «علي، هل تستطيع سماعي؟ ناتشاراريان يقول إن حقبة روستفالي وتامار تأثرت بقوة بالثقافة الفارسية». وبعد قليل:

«علي خان، ناتشارارايان يحتسي الشاي مع بابا. لقد قال لتوه «يكمن سحر هذه المدينة في الروابط الروحية بين أعراقها وشعوبها». وبعد نصف ساعة: «إنه يتصبب حكمة كما يذرف التمساح الدموع. إنه يقول «إن العرق القوقازي مشكل على سندان باكو». ضحكتُ وأغلقتُ السماعة.

وهكذا جرت الأمور يوماً بعد يوم. كان ناتشاراريان يأكل ويشرب

ويجلس مع عائلة كيبياني، كما كان يذهب معهم في النزهات ويقدم لهم النصائح التي كان بعضها عملياً والبعض الآخر ملفَّقاً. تابعت مشدوهاً هذا العرض الأرمني البارع. «علي خان، ناتشاراريان يقول: القمر كان العملة الأولى، وإن صك النقود الذهبية وتأثيرها على الناس بدأ لدى طائفة تعبدُ القمر من القوقازيين والإيرانيين القدماء. علي خان، لا أستطيع تحمل هذا الهراء أكثر من ذلك، تعال إلى الحديقة».

التقينا عند جدار القلعة القديم، أخبرتني بسرعة كيف تضرعت إليها والدتها بألّا تضيع حياتها بين يدي مسلم وكيف حذرها والدها شبه مازح أنه من المؤكد أنني سأضعها في الحرملك، وكيف أنها، نينو الصغيرة، ضحكت. لكنها في الوقت نفسه حذّرتْ والديها: «فقط انتظروا، فقد يختطفني، فما الذي ستفعلونه حينذاك؟». داعبتُ شعرها، أنا أعرف نينو، فهي دائماً تحصل على ما تريد حتى وإن كانت لا تعرف ما هو. احتجّتْ قائلة: «قد تستمر هذه الحرب لعشرين سنة أخرى، أليس رهيباً أنهم يريدوننا الانتظار هذه المدة الطويلة؟».

«هل تحبينني كثيراً يا نينو؟».

ارتجفت شفتاها. «نحن ننتمي لبعضنا، وعائلتي تجعل الأمر صعباً بالنسبة لي، لكن يجب أن أكون عجوزاً هرمة لكي أستسلم. بالإضافة لذلك، أنا أحبك بالفعل، لكن الويل لك إن اختطفتني». ثم صمتَتْ لأن المرء لا يستطيع التقبيل والكلام في آنٍ معاً. ثم انسلَّت خلسة إلى منزلها وبدأت لعبة الهاتف ثانية: «علي خان، ناتشارارايان يقول إن ابن عمه في تفليس كتب إليه يخبره أن الحاكم من مؤيدي الزيجات المختلطة. إنه يسميه اختراق الثقافة الغربية للشرق بشكل مادي. هل تستطيع فهم ذلك؟». كلّا، لم أستطع. كنت فقط أتسكع في المنزل وأتفوه بأقل قدر ممكن من الكلمات.

زارتنا ابنة عمي عائشة التي كانت في صف نينو لتخبرني أن نينو حصلت على أقل الدرجات خمس مرات في فترة ثلاثة أيام، وأن الجميع يقولون بأنها غلطتي. عليَّ أن أعيرَ انتباهاً أكبر لواجبات نينو المدرسية ومستقبلها. شعرتُ بالخجل ولعبت النَّرد مع ابنة عمي التي هزمتني ووعدتْ بمساعدة نينو في المدرسة. رن الهاتف ثانية: «أهذا أنت؟ إنهم يتحدثون في السياسة والأعمال منذ ساعات. ناتشاراريان يقول إنه يحسد المسلمين لأنهم أحرار بأن يستثمروا أموالهم في عقارات فارس. من يدري ما سيكون مصير روسيا؟ ربما سيتحطم كل شيء ليصبح أشلاءً، المسلمون وحدهم يستطيعون شراء العقارات في فارس. وهو يعلم علم اليقين أن عائلة شيرفانشير تمتلك نصف عقارات جيلجان، فمن المؤكد أن أفضل تأمين ضد الثورات في روسيا هو امتلاك العقارات في بلاد أخرى. تركَ ذلك انطباعاً قوياً لدى عائلتي. وقالت والدتي هناك بعض المسلمين الذين يمتلكون أرواحاً متحضرة».

سجلت معركة الذكاء الأرمنية انتصاراً بعد يومين. كانت نينو تضحك وتبكي على الهاتف: «حصلنا على مباركة الأهل، آمين».

«لكن على والدكِ الآن الاتصال بي فقد أهانني».

«دع هذا الأمر لي».

وهكذا كان، خاطبني الأمير بصوتٍ رقيقٍ وفاتر: «نظرتُ في قلب ابنتي ورأيت أن مشاعرها تجاهك صادقة ومقدسة، وإنه لإثم أن أقف في طريقها. تعال علي خان».

عندما وصلتُ، بكَت الأميرة وقبلتني، أما الأمير فتحدث بوقار عن الزواج، ولكن بطريقة مختلفة عن الطريقة التي تحدث بها والدي الذي لم يفكر مطلقاً بأن الزواج يقوم على الثقة المتبادلة والاحترام. على الزوج والزوجة أن يساعدا بعضهما بالأقوال والأفعال. يجب ألا ينسيا أنهما

يتمتعان بالحقوق نفسها وأنهما يملكان أرواحهما. أعطيته كلمة شرف بأنني لن أجعل نينو ترتدي الحجاب وأنه لن يكون لدي حرملك. أتت نينو، فقبّلتُ جبينها، ثم أدخلتْ رأسها بين كتفيها وبدتْ كطائر صغير يحتاج للحماية. قال الأمير: «لن نُعلنَ شيئاً للناس، فعلى نينو أولاً أن تنهي الدراسة، اعملي بجد يا طفلتي، فإذا لم تنجحي فسيكون عليك الانتظار لسنة أخرى». رفعت نينو حاجبها الذي يبدو وكأنه رُسِم بضربة قلم:

«لا تقلق يا والدي، سأنجح في المدرسة وفي الزواج، علي خان سيساعدني في كليهما».

كان ناتشاراريان ينتظرني في سيارته، وعندما خرجتُ من المنزل، غمزني بعينيه الناتئتين. صرختُ قائلاً: ناتشاراريان، هل أقدم لك مجموعة من الخيول أم قرية في داغستان، هل تفضل ميدالية فارسية أم بستان برتقال في انسلي؟» ربّت على ظهري:

«لا هذا ولا ذاك، أنا سعيد لأنني غيرت القدر، فهذا يكفيني».

نظرتُ إليه بامتنان، ثم ذهبنا بسيارته خارج المدينة إلى خليج بيبي ايبات، حيث تمادت الآلات السوداء في تعذيب الأرض المشبعة بالنفط. لقد تدخل الأغنياء في الشكل الطبيعي الأبدي للأرض كما تدخل ناتشاراريان في قدري، فقد أُجبِرَ جزء كبير من البحر على التراجع عن الشاطئ. أما الأرض الجديدة المكتسبة من البحر فلم تعد جزءاً من البحر ولا من الشاطئ. لكن أحد البارعين في مجال الأعمال بنى عليها منزلاً صغيراً للشاي في أقرب نقطة ممكنة على الماء. هناك جلسنا نحتسي أفضل شاي في العالم، شاي كياشتا الثقيل كالكحول. تحدّثَ ناتشاراريان، الذي كان مخموراً بفعل الشراب السحري المعطر، لوقتٍ طويلٍ عن الأتراك الذين سيغزون كاراباخ وعن مجازر الأرمن في آسيا الصغرى. كنت بالكاد أستمع إليه.

«لا تخف، سأخفيك في منزلي إذا ما دخل الأتراك باكو».

قال ناتشاراريان: «أنا لست خائفاً».

النجوم تلمع عالياً فوق البحر، خلف جزيرة نارجين حيث الصمت يخيِّم هادئاً على الشاطئ. «البحر والشاطئ كالرجل والمرأة متحدان في معركة أبدية». هل أنا من قال ذلك أم هو؟ لا أدري. اصطحبني ناتشاراريان إلى المنزل. قلت لأبي: «كيبياني يشكرك للشرف الذي وهبه آل شيرفانشير لعائلته. أصبحت نينو خطيبتي، اذهب في الغد ورتب الباقي». كنت متعباً وسعيداً جداً.

14

تحولت الأيام لأسابيع، ثم لأشهر، ووقع كثير من الأحداث في العالم وفي البلاد والبيت أيضاً. صارت الليالي طويلة، ورقدت الأوراق الصفراء في حديقة الحاكم على الأرض ميتة ومليئة بالأسف. أصبح الأفق قاتماً مع مطر الخريف، وطاف الجليد الرقيق على البحر ثم سُحِق عندما ضرب الشاطئ الصخري. غطى الجليد الشوارع في أحد الأيام وكان أبيض ورقيقاً كالحجاب، وساد الشتاء للحظة قصيرة، ثم صارت الليالي أقصر ثانية.

أتت الجمال من الصحراء إلى المدينة متكاسلة بخطواتها الطويلة والحزينة وهي تحمل الرمل في شعرها الطويل، وتنظر بعيداً بعيون رأت الأبدية خلال رقعة الأراضي الواسعة. كانت تحمل المسدسات على أسنامها وقد تدلَّت على جانبيها براميل وأقفاص الذّخيرة والبنادق بالإضافة إلى الغنائم المكتسبة من المعارك الكبرى. مشى سجناء الحرب الأتراك خلال المدينة ببزاتهم الرمادية وهيئتهم الرثة وأجسادهم التي تعرضت للكدمات. وعندما وصلوا إلى البحر أقلَّتهم المراكب البخارية إلى جزيرة نارجين حيث ماتوا من الإسهال والجوع والشوق للوطن. لكن الذين نجوا من ذلك المصير قضوا في صحراء فارس المالحة أو في مياه بحر قزوين الرصاصية. أما الحرب التي بدأت بعيداً جداً عنّا فقد أصبحت فجأة قريبة منا. قدِمَت قطاراتٌ من الشمال محملة بالجنود وأخرى من الغرب محملة بالجرحى. أقالَ القيصر عمه وقاد بنفسه جيشه القوي ذا العشرة ملايين جندي. أصبح عمه الآن حاكماً للقوقاز وأرخى بظله الثقيل والأسود على بلادنا. الدوق الكبير نيقولاي

نيقولايفيتش! امتدت يده الناتئة العظم لتطال حتى قلب الأناضول. هجمت جيوشه بوحشية مدفوعة بثورة الدوق على القيصر الذي حطم قلبه. غضب الدوق الأكبر الذي راح يرعد فوق الجبال الثلجية وخلال الصحارى الرملية وباتجاه ترابيزونت واسطامبول. حيث أسماه الناس «نيقولاي الطويل»، وتحدثوا بخوف عن الجنون الوحشي في روحه وعن ضراوة محاربيه الغاضبين. دخلت الحرب أعداد لا تحصى من البلدان وأصبحت جبهة واحدة طويلة من أفغانستان إلى بحر الشمال، وغطت أسماء الملوك المتحدين والبلدان والجنرالات صفحات الصحف الأولى كما تسكن الحشرات السامة جثث الأبطال.

عاد الصيف ثانية، وسادت حرارة مرتفعة ذاب لها اسفلت الشوارع تحت وطأة أقدامنا، واحتفل الشرق والغرب بانتصاراتهما. جلستُ في بيوت الشاي والقهوة وفي منازل الأصدقاء ووبخني الكثيرون بسبب صداقتي مع الأرمني ناتشاراريان. مازال فوج إلياس بيغ في المدينة يتدرب على قواعد الحرب في ساحة العرض العسكري المغبرة، في تلك الأثناء تابعت الأوبرا والمسرح وبيوت السينما عروضها كما كان الحال قبل الحرب. حدثت أشياء كثيرة لكن شيئاً لم يتغير لا في العالم ولا في المدينة ولا في منزلي.

قدِمَتْ نينو إليّ وهي تتنهد تحت وطأة الحكمة، لمست يدي بشرتها الناعمة. كانت عيناها عميقتين وممتلئتين بخوف يثير الفضول. أخبرتني ابنة عمي عائشة أن المدرسين منحوا بصبر وصمت علامة النجاح تلو الأخرى في دفتر العلامات المدرسية للسيدة شيرفانشير المستقبلية. وعندما كنت أتنزه مع نينو، كانت عيون صديقاتها في المدرسة تتابعنا إلى أقصى ما تستطيع مشاهدتنا. ذهبنا إلى نادي المدينة وإلى المسرح والحفلات الراقصة، لكننا لم نكن وحدنا مطلقاً، فقد أحاط بنا الأصدقاء كجدار شاهق من اللطف الممزوج بالقلق. رافقنا إلياس بيغ ومحمد حيدر وحتى سيد مصطفى الورع. ولم يتفقوا دوماً فيما بينهم. وعندما جلس ناتشاراريان البدين والثري يحتسي

الشمبانيا ويتحدث عن المحبة المتبادلة بين شعوب القوقاز، اكفهر وجه محمد حيدر وقال: «أعتقد يا سيد ناتشاراريان، أنه عليك ألا تقلق بهذا الخصوص، فعلى أي حال لن يبقى بعد الحرب سوى حفنة من الأرمن».

«لكن ناتشاراريان سيكون من بين القلة المتبقية»، صرخت نينو.

كان ناتشاراريان صامتاً، واكتفى بشرب الشمبانيا. لقد سَرَتْ شائعات بأنه حوّل جميع أمواله إلى السويد، ولكنني لم آبه لذلك. وعندما طلبتُ من محمد حيدر أن يكون أكثر لطفاً مع ناتشاراريان، عقد حاجبيه وقال: «لا أطيق الأرمن، الله يعلم لماذا».

وفي أحد الأيام وقفت نينو في قاعة الامتحانات في معهد الملكة تامار المقدسة لتثبت نضوجها عبر معادلات الرياضيات والمراجع الكلاسيكية والمعلومات التاريخية وفي بعض حالات اليأس لجأت إلى نظرات التضرع التي انبعثت من عينيها الجورجية الكبيرة والتي أتت ثمارها، لقد نجحتْ.

بعد حفلة المعهد التي أقامتها الفتيات احتفالاً بنجاحهن، واصطحابي لنينو والإشراق بادٍ على محيّاها إلى البيت، قال لي كيبياني العجوز: «أنتما الآن مخطوبان، وضِّبْ صندوق ثيابك يا علي خان، فسنذهب إلى تفليس حيث يجب أن أقدمك إلى العائلة. وهكذا ذهبنا إلى تفليس، عاصمة جورجيا.

بدت تفليس أشبه بالأدغال، فكل شجرة لها اسم، وكانت إما عماً أو ابن عمٍ أو خالة لشجرة أخرى، ولم يكن من السهل أن يجد المرء طريقه. كانت الأسماء التي تشبه الفولاذ القديم تدور في الهواء: أوربيلياني، تشافتشافاداسه، زيريتيتلي، أميلاتشافاره، وأبادشيدسه. كانت هنالك حفلة في حدائق ديدبه، إحدى ضواحي المدينة أقامتها عائلة أوربيلياني على شرف

ابن عمهم الجديد. عزف الموسيقيون الجورجيون موسيقى «المرافاليافر»، وهي أغنية الكاشتيان الحربية والتشافسوريان «ليلو». ثم غنى آباشهدسه وهو أحد أبناء العمومة من كوتاي، غنى «ماغالي ديليا» وهي أغنية جبال ايميريتي العاصفة. رقص أحد الأعمام «الداولور»، وقفز رجل عجوز ذو لحية بيضاء على السجادة التي تغطي المرج الأبيض وجمد نفسه في وضعية «البوكنا». استمرت الحفلة طوال الليل، وعندما أشرقت الشمس بكسل خلف الهضاب، بدأ الموسيقيون بغناء ترنيمة «انهضي أيتها الملكة تامار، فجورجيا تبكي من أجلك». كنت جالساً بهدوء خلف الطاولة ونينو بجانبي، وفجأة لمعت الخناجر والسيوف، وبدأت رقصة السكاكين الجورجية التي أداها في الفجر مجموعة من أبناء العمومة وبدت كأنها مسرحية تمثل على المسرح، غير حقيقية وبعيدة.

استمعتُ إلى محادثات جيراني التي كانت تبدو وكأنها صدى قادم من العصور السحيقة المنسية: «تحت حكم ساكادسه، دافع أحد أفراد عائلة زيريتيلي عن تفليس ضد جنكيز خان». «أنت تعلم بالطبع أننا عائلة التشافتشافاداسه أقدم من عائلة باغراشينز، أي عائلة الملوك». «الأوربيلياني الأول؟ لقد قَدِمَ من الصين منذ حوالي ثلاثة آلاف عام. وقد كان أحد أبناء الإمبراطور، كما أن بعض الأوربيلياني يملكون عيوناً لوزية ضيقة حتى يومنا هذا». نظرتُ حولي بخجل؛ ما الحماية التي يتمتع بها بعض الشيرفانشير الذين مضوا إلى الأبدية قبلي بالمقارنة مع هذا كله؟ لكن نينو كانت في صفّي: «لا تأبه لذلك علي خان، بالطبع شجرة عائلة أبناء عمومتي قديمة جداً ونبيلة، لكن أين كان أجدادهم عندما غزا أجدادك تفليس؟» لم أتفوه بشيء لكنني نظرتُ إليها شاكراً، فهي وعلى الرغم من أنها في وسط أقاربها شعرت بأنها زوجة لأحد الشيرفانشير؛ فكنت فخوراً جداً.

مالت امرأة عجوز باتجاهي وقالت: «هذا النبيذ صافٍ لأن الله فيه. إن أي شكل آخر من الثمالة يأتي من الشيطان. هناك الكثيرون ممن لا يعرفون

ذلك. اشرب علي خان». كان الخمر الكاشتياني الأحمر كالنار السائلة. ترددت، لكنني رفعت كأسي في نهاية الأمر على شرف عائلة الأوربيلياني.

كانت الشمس مشرقةً عندما عدنا إلى المدينة. أردتُ الذهاب إلى الفندق، لكن أحد أبناء العمومة، أو ربما كان أحد الأعمام، استوقفني قائلاً: «البارحة كنت ضيفاً على عائلة الأوربيلياني، أما اليوم فأنت ضيفي. سنتناول الفطور في بورغفينو، وسيأتي أصدقاؤنا إلى الغذاء. كنت أسيرَ النبلاء الجورجيين، واستمر الوضع هكذا لمدة أسبوع. الخمر الكاشتياني والآلسانياني مع الخروف المحمَّر والجبنة المولاتية، المرة تلو الأخرى. كان أبناء العمومة يتبادلون الدَّورَ فيما بينهم كالجنود في جبهة الضيافة الجورجية. ولم يبقَ سواي ونينو، وقد شعرتُ بالإعجاب من قدرتها على التحمل، فقد كانت تبدو في نهاية الأسبوع منتعشة كندى الربيع، وكانت عيناها مبتسمتين، كما أن شفتيها لم تتعبا مطلقاً من الحديث مع أبناء العمومة والعمات. ظهرتْ في صوتها بعض البحة التي كان من الصعب لمسها، فقد رقصتْ وشربتْ الخمر لعدة أيام بلا انقطاع، ومع ذلك لم تحظَ سوى بالنزر اليسير من النوم.

وفي صباح اليوم الثامن، أتى أبناء العم ساندرو ودوديكو وفامه وسوسو إلى حجرتي. فاختبأت تحت الغطاء كالأرنب المذعور. أخبروني بلا رحمة: «علي خان، أنت اليوم ضيف عائلة الدشاكيليس، ستذهب إلى عقارهم في كادشوري».

«لن أكون ضيفَ أحدٍ اليوم»، قلت لهم عابساً، «فاليوم ستفتح أبواب الجنة لي، أنا الشهيد المسكين. وسيسمح لي ميخائيل، ملاك القنطرة ذو السيف ذو الشعلة، بالمرور لأنني مِتُّ في الطريق القويم».

نظرَ أبناء العمومة إلى بعضهم وضحكوا عالياً بلا رحمة. ثم تفوهوا بكلمة واحدة هي: «كبريت».

«كبريت؟»، رددت ذلك ثانية، «كبريت؟ هذا في الجحيم، أما أنا فذاهب إلى الجنة».

«كلا»، قال أبناء العمومة، «فليكن الكبريت».

حاولتُ النهوض من الفراش، كان رأسي ثقيلاً جداً، وتدلّت أوصالي وكأنها ليست جزءاً مني. نظرتُ إلى المرآة، فرأيت وجهاً شاحباً ذا لون أخضر مصفر وعينين بلا بريق. فقلت: «أجل، إنها بالفعل نار سائلة»، وفكّرت بخمر كاشيتيان. «أَستحقُّ ذلك، فعلى المسلم الامتناع عن الشراب». انسللتُ خارج الفراش وأنا أتأوّه كالرجل العجوز، حيث كان لأبناء عم نينو عيناها وجسدها النحيل المطواع، وكانوا منتعشين ومستقيمي القامة. يبدو الجورجيون كالأيائل الشاردة وسط غابة آسيا المختلطة. لا يملك أيّ من العرق الشرقي هذا السحر وهذه الحركات الرشيقة ولا هذه الرغبة الرائعة بالحياة والاستمتاع المفيد بأوقات الفراغ. قال فامه: «سنخبر نينو أننا سنكون في كادشوري خلال أربع ساعات، عندما تصبح على ما يرام ثانية. خرج من الغرفة وسمعت صوته على الهاتف: «علي خان ليس بخير، سنأخذه الآن إلى ينابيع الكبريت. اطلبْ من الأميرة نينو الانطلاق إلى كادشوري مع عائلتها، سنأتي بعد قليل. كلا، لاشيء خطير، فهو فقط لا يشعر بأنه على ما يرام».

ارتديتُ ثيابي بكسل، وشعرت بدوخة. تختلف الضيافة الجورجية كلياً عن حفلات الاستقبال الهادئة الجليلة في منزل عمي في طهران، فهناك كنا نشرب الشاي القوي ونتحدث عن الحكمة والشعر. أما هنا فيشربون الخمر، يرقصون، يضحكون، ويغنون، وكانوا مطواعين وقساة كينابيع الفولاذ. هل هذه بوابة أوروبا، بالطبع لا. إن جورجيا جزء منا، ورغم ذلك فهي مختلفة كثيراً عنا. بوابة، ولكن إلى أين تقود هذه البوابة؟ ربما إلى آخر مرحلة من الحكمة والتي تصبح تدريجياً لعباً من دون مبالاة. لا أدري، كنت تعباً لدرجة كبيرة، وبالكاد استطعت النزول من على الدرج. صعدنا إلى العربة، «إلى الحمّام»، صاح ساندرو. طقطق الحوذي بسوطه وذهبنا إلى مبنى كبير مغطى بقبة في حي يدعى ميدان. وقف عند البوابة رجل هزيل نصف عارٍ

أشبه بالهيكل العظمي منه إلى رجل حي. حدّقت عيناه بنا مباشرة ومن خلالنا إلى النيرفانا. صرخ ساندرو: «هامارد‌شوبا، ميكيّس!» خرج الرجل بعنف من حالته تلك إلى الوعي، فانحنى وقال: «هامارد‌شوبا، تاوادي، يوماً سعيداً أيها الأمراء»، ثم فتح الباب. امتلأت القاعة الكبيرة الدافئة بالمقاعد التي جلس على كل منها جسد أو جسدان عاريان. خلعنا ثيابنا وذهبنا خلال الرواق إلى الغرفة الثانية حيث توجد في الأرضية ثقوب مليئة بمياه كبريتية بخارية حارة. سمعت صوت ساندرو كما لو كنا في حلم: «في يوم من الأيام، ذهبَ ملكٌ إلى الصيد، فتبع صقره ديكاً جبلياً. انتظر الملك طويلاً ولم يعد الصقر أو الديك الجبلي، فذهب يبحث عنهما فوجد غدير الماء ذا اللون الكبريتي حيث غرق الصقر والديك الجبلي معاً. وهكذا اكتشف الملك ينابيع الكبريت ووضع حجر أساس مدينة تفليس. وها نحن الآن في حمام الديك الجبلي وحي الميدان في الخارج هي البستان الذي جرى خلاله الغدير. بدأت تفليس بالكبريت وستنتهي بالكبريت». عبقت الغرفة ذات القبة بالبخار ورائحة الكبريت.

كان الولوج إلى الحمّام الساخن أشبه بالوقوف على خميرة مصنوعة من بيضٍ فاسدٍ. كانت أجساد أبناء العمومة مبتلة تتلألأ. فركتُ يدي على صدري فامتص جسدي الكبريت. ثم فكّرتُ بجميع المحاربين والمنتصرين الذين غزوا هذه المدينة وغمروا أنفسهم في هذا الينبوع: تشوارايسمير وتيمور الأعرج ودشاغاتاي، نجل جنكيز خان. كانوا جميعاً ثملين ومثقلين بالدماء التي أراقوها، ثم غطسوا في ينابيع الكبريت ليصبحوا خفافاً ورشيقين.

«هذا يكفي علي خان، اخرج»، أنهى صوت ابن العم حلمي عن المحاربين المستحمين. خرجتُ من حفرتي وذهبت إلى الغرفة المجاورة لأسقط فاتر الهمة على المقعد الحجري. صاح ساندرو: «ميكيس».

اتضح أن الرجل الذي استقبلنا كان مدلّكاً، دخل الغرفة وهو لا يرتدي

شيئاً سوى عمامته. جعلوني أستلقي على بطني فقفز المدلك بقدميه العاريتين على ظهري وداس فوقي. كان خفيفاً كالراقص على السجاد، ثم غرز أصابعه في لحمي وكأنها خطاف حاد، وبدأ بتدليك يدي وسمعت صوت عظامي يطقطق. كان أبناء عمومتي واقفين في الجوار يقدمون له النصائح: «اقلبْ ذراعه ظهراً لبطن مرة أخرى ميكيس، إنه مريض جداً».

«اقفز على ظهره مرة أخرى، هكذا، والآن اقرصه في جانبه الأيسر».

أظن أنه كان من المفترض أن أشعر بالألم الشديد، لكن ذلك لم يحدث. كنت فقط مستلقياً هناك مغطى بزبد أبيض من الصابون، ثم استرخيت بتأثير ضربات ميكيس القوية والمرنة، والشيء الوحيد الذي شعرت به هو أن جميع عضلاتي أصبحت ليّنة ومسترخية بشكل رائع.

«هذا يكفي»، قال ميكيس. وجدتُ نفسي ثانية في موقف النبي الذي أُخرجِ من عالمه. نهضتُ؛ كان جسدي كله يؤلمني فركضتُ إلى الغرفة المجاورة وغطستُ في الحمام الثاني الذي يحتوي على الكبريت البارد المجمَّد. شعرت لوهلة وكأن نفسي قد توقف، لكن عضلاتي أصبحت مرنة ثانية ومليئة بحياة جديدة.

عدتُ إلى الغرفة وقد لففتُ نفسي بملاءة بيضاء. نظرَ إليَّ أبناء العم وميكيس بترقب. قلت بوقارٍ كبير: «الجوع». ثم جلست القرفصاء على أحد المقاعد.

«إنه بخير»، زأر أبناء العمومة، «بسرعة، أحضر بطيخة حمراء وجبنة وخضاراً وبعض الخمر».

جلسنا في حجرة الانتظار نتناول المأدبة وقد نسيت أنني شعرت يوماً بالضعف أو التعب. طردَتْ رائحة لب البطيخة الحمراء المثلجة طعم الكبريت. احتسى أبناء العمومة نبيد نابارولي الأبيض. «حسناً، ها أنت ذا»، قال دوديكو ولكنه لم يكمل جملته لأنها كانت تعني كل شيء: الفخر

بالحمام الكبريتي في بلده، والشفقة على الغريب الذي انهار تحت وطأة الضيافة الجورجية، وتأكيد أبناء العمومة الودودين أنهم تفهموا وعذروا ضعف ابن عمهم المسلم. اتسعت حلقتنا التي انضم إليها الجيران الذين قدِموا عُراة وقد حملوا زجاجات الخمر. جلس الأمراء ودائنوهم والطفيليون والحكماء والشعراء ومالكو العقارات الجبلية، جلسوا جميعهم معاً بسلام على صورة مرحة من المساواة الجورجية. لم يعد ذلك المكان حماماً بل أصبح نادياً أو مقهى أو مجرد لقاء لأناس عراة وسعداء يضحكون وعيونهم تنضح بالسعادة. لكنني سمعت هنا وهناك بعض الكلمات الجدية التي تنذر بالشر. «العثمانيون قادمون»، قال رجل ذو عينين صغيرتين. «سيدخل الدوق الكبير إلى اسطامبول، كما سمعت بأن جنرالاً ألمانياً بنى مدفعاً هناك، وإذا ما انطلق، فسيضرب مباشرة قبة الزيون في تفليس».

«أنت مخطئ أيها الأمير»، قال رجل ذو وجه يشبه اليقطينة. «لم يُبنَ هذا المدفع حتى الآن، هناك فقط مخطط لذلك. وحتى لو تم بناؤه فلن يصيب تفليس. جميع الخرائط لدى الألمان غير صحيحة، فقد رسمها الروس. هل فهمت؟ فكيف يمكن أن تكون الخرائط الروسية صحيحة؟ تنهد أحدهم في إحدى الزوايا. تلفتُّ فرأيت لحيةً بيضاء وأنفاً طويلاً معقوفاً.

«مسكينة جورجيا»، تنهد الرجل ذو اللحية. «نحن بين براثن زوج من الملاقط الملتهبة، فإن انتصر الألمان، فستكون نهاية أرض تامار. وان انتصر الروس، فما الذي سيحدث حينها؟ سيحظى القيصر الشاحب بكل ما يريده، لكن أصابع الدوق الكبير تمسك برقابنا. حتى في الوقت الراهن، يموت أبناؤنا في المعارك، وهم نخبة شعبنا. أما من تبقّى فمصيرهم الشنق إمّا من قبل العثمانيين وإما من قبل الدوق الكبير وإما من قبل أي عدو آخر، أو ربما عن طريق آلة ما أو الأمريكيين. قد يبدو من المستحيل أن نفهم كيف تحولت شعلة الحرب لدينا إلى رماد على حين غرة، هذه نهاية أرض تامار. انظروا إلى محاربينا: إنهم نحيلون وصغار الأجسام، والموسم سيء والنبيذ حامض».

توقف الرجل ذو اللحية عن الكلام وهو يتنفس بصوت كالصفير، ولم ينبس أحد ببنتِ شفةٍ، وفجأة قال أحدهم بصوت قلق ومكبوت:

«لقد قتلوا النبيل باغراشين. لم يسامحه الروس قط بعد أن تزوج إحدى بنات أخ القيصر. أمره القيصر نفسه أن ينضم إلى فوج ايرفان في الصفوف الأمامية. فقاتلَ بضراوةٍ كالأسد وسقط وقد ثقبتْ جسده ثماني عشرة رصاصة».

جلس أبناء العمومة وهم يحتسون الخمر بهدوء. أما أنا فقد حدّقتُ في الأرض وفكّرت. باغراشين هي أقدم عائلة نبلاء مسيحية، الرجل ذو اللحية على حق، لقد خُنقتْ جورجيا حتى الموت بين براثن زوج من الملاقط الملتهبة. سمعت صوتاً آخر يقول: «لقد تركَ ولداً يدعى تيمورس باغراشين، وهو الملك الحقيقي الذي يتولى أحدهم مهمة حمايته».

خيّمَ الصمت ثانية. كان جسم ميكيس الشبيه بالهيكل العظمي مايزال واقفاً قرب الباب، وقد أخذ وضعية النبي المتفاني. ثم فك دوديكو السحر بأن تمطى ثم تثاءب بسعادة قائلاً: «إنها جميلة، بلادنا تلك، الكبريت والمدينة، الحرب وخمر الكاشتيان. انظروا إلى ألاسان وهي تتدفق في السهول. من الرائع أن يكون المرء جورجياً، حتى لو زالت جورجيا. أنت تبدو يائساً ولكن هل كان الأمر على خلاف ذلك في أرض تامار؟ ومع ذلك تجري أنهارنا وتكبر كرومنا ويرقص شعبنا. إن جورجيا بلد جميل وسيبقى كذلك بكل يأسه». ثم وقف، فتياً ونحيلاً، كانت عيناه ترقصان وبشرته تبدو كالمخمل، كأنه سليل للمغنين والشعراء. ابتسم الرجل ذو اللحية القابع في الزاوية بفرح: «يا الله، طالما لدينا شبان كهذا...».

مالَ فامه باتجاهي: «علي خان، لا تنسَ أنك اليوم ضيف عائلة دشاكيليس في كادشوري». وقفنا وقد ارتدينا ثيابنا، ثم رحلنا. «طقطق» الحوذي بسوطه، وقال فامه: «عائلة دشاكيليس هي سليلة العائلة النبيلة القديمة...». بالطبع! ضحكتُ، مرحاً وسعيداً ثانية.

15

جلستُ ونينو في مقهى ميفستو في شارع غولوفينسكي، فقد سمح لنا أبناء العمومة بيوم استراحة. كنت أعرف بماذا تفكر نينو. فقد كان هناك على قمة جبل ديفيد القبر الذي زرناه والذي يعود لألكسندر غريبودوف، الشاعر ووزير القيصر. وعلى شاهدة القبر حُفرت الكلمات:

«لن تُنسى أعمالك أبداً، ولكن لِمَ ينبغي أن يحيا حبك لنينو حتى بعد وفاتك».

كان اسمها نينو تشافتشافادسه، وكانت في السادسة عشرة من عمرها عندما تزوجها الوزير الشاعر. نينو تشافتشافادسه الجدة الكبرى لنينو التي كانت جالسة قربي، كانت في السابعة عشرة من عمرها حين حاصر الغوغاء الإيرانيون منزل الوزير الروسي. صرخوا: «يا علي سالافات، ليُمجَّد اسمك يا علي». لم يكن لدى الوزير سوى سيف قصير ومسدس. رفع حداد من شارع سولي سلطان مطرقته وحطّم صدرَ الوزير، وكان المرء يجد حتى بعد تلك الحادثة بعدة أيام قِطعاً من اللحم متناثرة في الشوارع ورأساً تتلقفه الكلاب. كان ذلك كل ما تبقَّى من ألكسندر غريبودوف، شاعر القيصر ووزيره. شَعَرَ فتح علي شاه ـ الكادجار ـ بالرضا وأحس ولي العهد عباس ميرزا بالسعادة. أما ميشي آغا، وهو رجل عجوز حكيم ومتعصب ومن المحرضين على الهجوم، فقد حصل على جائزة مجزية، كما حصل أحد أفراد الشيرفانشير، وهو عمي الكبير، على عقار في جيلجان.

حدث ذلك كله منذ مئة عام. وهكذا جلستُ ونينو على شرفة مقهى ميفستو، جلست أنا، أحد الشيرفانشير، ونينو حفيدة غريبوديدوف. «كان من المفترض أن نكون أعداء دم يا نينو». ثم أومأتُ باتجاه الجبل: «هل ستضعين لي شاهداً بجمال ذلك الموجود في الأعلى؟».

«ربما»، قالت نينو، «ذلك يعتمد على كيفية تصرفك في حياتك». ثم انتهت من شرب فنجان القهوة وأكملت: «تعال، لنتمشى».

نهضتُ. إن نينو تحب هذه المدينة كما يحب الطفل أمه. مشينا صعوداً باتجاه شارع غولوفينسكي ثم اتجهنا إلى أزقة المدينة القديمة. وقفت نينو أمام قبة الزيون القديمة، ثم دخلنا إلى الغرفة القاتمة والرطبة، حيث يوجد صليبٌ في أعلى المذبح صُنِعَ من الكروم التي أحضرتها القديسة نينو عندما قدمت من الغرب لتعلن للجورجيين أن مخلص العالم قد أتى. ركعتْ نينو ورسمت إشارة الصليب ثم نظرت عالياً إلى صورة قديستها الحارسة وهمست: «نينو المقدسة، اغفري لي». رأيتُ دموعاً في عينيها من خلال الضوء المشرق من نافذة الكنيسة.

«لنخرج»، قلت لها. أطاعتني ونهضت ثم خرجنا إلى الشارع ونحن صامتون. قلت لها أخيراً: «ما الذي دعاك لطلب المغفرة من نينو المقدسة؟»

«أنت علي خان».

بدا صوتها حزيناً ومتعباً. كان المشي مع نينو في شوارع تفليس فكرة سيئة.

«ولماذا أنا؟». كنا قد وصلنا إلى الميدان، حيث جلس الجورجيون في المقاهي أو في وسط الشارع. كان أحدهم يلعب الزُّورنا في مكان ما، وبعيداً في أسفل نهر كورة كانت المياه تجري مندفعةً بقاعه الضيّق. كانت عينا نينو تنظر إلى البعيد كما لو أنها تبحث عن هويتها.

كررتْ قائلة: «أنت، وكل ما جرى».

بدأتُ أفهم، ولكنني تابعت السؤال: «ماذا؟». توقفت نينو. وهناك في الجانب الآخر من الساحة ارتفعت كاتدرائية كاشفيتي المصنوعة من الحجارة البيضاء الناعمة الغضة كالعذراء. قالت نينو:

«تجوَّلْ في تفليس، هل ترى نساء يرتدين الحجاب؟ لا. هل تشعر بنسيم آسيا؟ لا. إنه عالم مختلف عن عالمك، الشوارع عريضة والأرواح مستقيمة. أشعر بأنني حكيمة جداً عندما أكون في تفليس يا علي خان، إذ لا مكان هنا لمتعصب أحمق كسيد مصطفى أو عابسٍ متجهمٍ كمحمد حيدر. هنا الحياة بسيطة ومرحة».

«لكن هذا البلد محصور بين براثن زوج من الملاقط الملتهبة يا نينو».

وبرشاقة كانت نينو تدوس حصى الشارع وهي تقول: «وهذا بالضبط ما أعنيه، لقد دمّرَ تيمور الأعرج تفليس سبع مرات. واجتاح البلاد كل من الأتراك والفرس والعرب والمغول، وقد بقينا رغم ذلك. لقد دمروا جورجيا واغتصبوها وقتلوها، ولكنهم لم يملكوها بالفعل. لقد أتت القديسة نينو وهي تحمل الكرمة من الغرب. فإلى الغرب انتماؤنا. نحن لسنا آسيويين، بل نحن أبعد بلد في شرقي أوروبا. أنت بالطبع تشعر بهذا». أكملتْ سيرها بسرعة، ثم تغضن جبينها الطفولي: «فقط لأننا تحدينا تيمور وجنكيز والشاه عباس والشاه تاهماسب والشاه إسماعيل، فقط من أجل ذلك أنا موجودة في هذه الدنيا، أنا، عزيزتك نينو. وها أنت قد أتيت بلا سيف وبلا فِيَلَةٍ تطأ الناس تحت أقدامها وبلا محاربين، ومع ذلك فأنت حفيد الشاهات الذين لُطخت أيديهم بالدماء. سترتدي بناتي الحجاب، وعندما تشحذ ايران سيفها ثانية، سيدمر أولادي وأحفادي تفليس للمرة المئة. آه يا علي خان، يجب أن ننتمي إلى العالم الغربي».

أمسكتُ بيدها وسألتها: «ماذا تريدينني أَن أفعل يا نينو؟».

«آه يا علي خان، أنا غبية جداً، أريدك أن تحب الشوارع العريضة والغابات الخضراء، أريدك أن تفهم الحب بشكلٍ أفضل، وألا تتشبث بجدار منهار في مدينة آسيوية. أنا خائفة من أن تتحول خلال عشر سنين من الآن إلى رجل تقي وحكيم، وتجلس هناك في جيلجان لتستيقظ ذات صباح وتقول لي: نينو، أنت مجرد أرض. قل لي ما الذي يعجبكَ فيَّ؟»

كانت تفليس تجعل نينو مشوشةً للغاية، وكانت تبدو ثمِلةً بفعل الهواء الرطب المحيط بنهر كورة: «ما الذي أحبه فيكِ يا نينو؟ أحب كل ما فيكِ: صوتكِ، رائحتكِ، طريقة مشيكِ، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ أنت من أحب، والحب في جورجيا هو نفسه في إيران. فهنا، في هذا المكان وقف روستفالي قبل ألف عام يُغنِّي مبدياً محبته للملكة تامار. وكانت أغاني هذا الشاعر العظيم تشبه تماماً الرباعيات الفارسية. فجورجيا لا تساوي شيئاً من دون روستفالي كما أن روستفالي لا يساوي شيئاً من دون فارس».

«هنا في هذا المكان»، قالت نينو بتفكر. «ولكن ربما وقف هنا أيضاً سيات نوفا، الشاعر العظيم الذي غنى قصائد الحب لجورجية والذي ضرب الشاه عنقه من أجل ذلك».

لم يكن هنالك الكثير مما أستطيع قوله لنينو اليوم، فقد كانت تودع مسقط رأسها، وتُظهر محبتها لوطنها بعمق أكثر من أي وقت مضى. تنهدتْ وقالتْ: «أنت تحب عينيَّ، أنفي، شعري... الخ، ولكن علي خان، لقد نسيت شيئاً: هل تحب روحي؟».

«نعم، أنا أحب روحك أيضاً»، قلت لها تعباً.

كان ذلك غريباً: ضحكتُ عندما قال سيد مصطفى إن النساء لا يملكن أرواحاً، ولكنني شعرت بانزعاج عندما أرادتني نينو أن أكتشف

روحها. ما هذا الشيء المسمى روح المرأة؟ يجدر بها أن تشعر بالسعادة أن الرجل لا يريد أن يكتشف أعماق روحها. «وما الذي تحبينني لأجله يا نينو؟».

أجهشتْ بالبكاء فجأة، هناك في منتصف الشارع. بدأت الدموع الغزيرة تنهمر على وجنتيها لتبدو كفتاة صغيرة: «اغفر لي علي خان، أنا أحبك كما أنت ببساطة، ولكنني خائفة من عالمك. أنا معتوهة يا علي خان، فها أنا ذا أقف في منتصف الطريق معك ـ أنت خطيبي ـ وأتصرف كما لو أن جميع حروب جنكيز خان غلطتك؛ اغفر لعزيزتك نينو. فمن الغباء أن أحمّلك مسؤولية كل مسلم قتل جورجياً، لن أفعل ذلك ثانية. ولكنك ترى أنني: نينو التي تخصك، جزء من أوروبا التي تكرهها، وأنا أشعر بذلك هنا في تفليس أكثر من أي وقت مضى. أنا أحبك وأنت تحبني، ولكنني أحب الغابات والمروج وأنت تحب الهضاب والأحجار والرمال. ولهذا أنا خائفة منك ومن حبك وعالمك».

«حسناً؟» سألتها وأنا أشعر بالارتباك، فأنا لم أستطع فهم ما الذي كانت تحاول قوله.

«حسناً؟» جفّفتْ دموعها وابتسمت ثانية ثم أدارت رأسها جانباً. «حسناً، سنتزوج خلال ثلاثة أشهر، ماذا تريد أكثر من ذلك؟» تستطيع نينو أن تضحك وتبكي وأن تحب وتكره في آن معاً. لقد غفرت لي جميع حملات جنكيز خان وأصبحت تحبني ثانية. ثم أخذت يدي وسحبتني عبر جسر فيري إلى متاهة البازار. كان ذلك التماساً رمزياً لطلب المغفرة، فالبازار هو المكان الشرقي الوحيد في ثوب تفليس الأوروبي. فهنا يعرض بائعو السجاد البدينون وكذلك الأرمن والفرس، يعرضون كل كنوز إيران الرائعة والمتنوعة. ولمعتْ في شبه الظلمة الأطباق النحاسية ذات النقوش الحكيمة

المنقوشة على سطحها الأصفر. كان ثمة فتاة كردية ذات عينين رماديتين فاتحتين تقرأ الطالع، وقد شعرت بالدهشة هي نفسها من معرفتها. وفي كل باب يؤدي إلى خمارة أو مقهى وقفتْ جماعات من المتسكعين والحشود، يناقشون بجدية كل ما بدا لهم تحت الشمس. لهذه المدينة بشعوبها الثمانين المختلفة، الذين يتكلم كل منهم لغته الخاصة، لهذه المدينة رائحة لاذعة استنشقناها في الممر الضيق. اختفى حزن نينو في البازار المتنوع الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، والذي يلتقي فيه: البائعون الأرمن المتجولون وقارئو الطالع الأكراد والطهاة الفرس والكهنة الأوستيون والروس والعرب والانغوش والهنود. كان هناك اضطراب في أحد الأكشاك. وقف البائعون ضمن حلقة حيث كان أحد الآشوريين يتشاجر مع يهودي. سمعناه يقول: «عندما ساق أجدادي أجدادك أسرى إلى بابل...». صاحت الجموع مستهزئة وهي تضحك. ضحكنا أنا ونينو أيضاً من اليهودي ومن الآشوري وكذلك من البازار ومن جميع الدموع التي ذرفتها نينو. تابعنا المسير لبضع خطوات أخرى لنجد أننا قد أكملنا الدائرة ووجدنا أنفسنا أمام مقهى ميفيستو في شارع غولوفينسكي. سألتُ نينو من دون أن أعلم ماذا أريد أن أفعل: «هل ندخل ثانية؟».

قالت نينو: «لا، لنذهب صعوداً باتجاه دير سانت ديفيد لنحتفل بمصالحتنا». انعطفنا إلى الشوارع الجانبية التي تقود إلى السكة الحديدية المعلّقة. بدأت السيارة الحمراء تزحف إلى الأعلى ببطء، وغرقت المدينة في البعيد ونينو تقصُّ عليّ كيف تم تشييد الدير: «منذ زمن طويل، عاش القديس ديفيد في هذا الجبل، وفي أسفل المدينة عاشت أميرة آثمة أحبت أحد الأمراء وحبلت منه فتركها. وعندما سألها أبوها الثائر عن هوية الشخص الذي أغراها، خافت أن تخبره فاتهمت القديس ديفيد. أمر الملك الذي امتلأ غضباً بإحضار القديس إلى قصره. نادى الملك ابنته، وعندما كررت اتهامها، لمس

القديس جسدها بعصاه، فحدثت معجزة: إذ نطق الطفل في داخلها باسم الآثم الحقيقي. وعندها رفع القديس يديه مُصلِّياً، انجبت الأميرة حجراً. ولايزال الحجر هنا، ومنه ينبثق نبع سانت ديفيد. وعندما ترغب المرأة بطفل، تستحم في النبع المقدس». ثم أضافت نينو بتفكر: «أليس أمراً جيداً يا علي خان أن القديس ديفيد مات ولم يعلم أحد أين عصاه؟». وهنا وصلنا إلى الدير.

«هل تريدين الذهاب إلى النبع يا نينو؟»

«لا، أظن أنني أفضّل الانتظار لسنة أخرى». كنا واقفين قرب الحائط الذي يحيط بالدير ننظر إلى الأسفل باتجاه المدينة حيث كان وادي كورة يبدو مليئاً بالسديم الأزرق. ومن الأعلى، بدت قبب الكنائس وكأنها جزر وحيدة وامتدت حدائق المسرات شرقاً وغرباً: ملعب جماعات المرح في تفليس. ارتفعت قلعة ميتش الداكنة خلال المسافات، وقد كانت ذات يوم حاضرة ملوك جورجيا، وصارت الآن، أحد سجون الإمبراطورية الروسية التي يحتفظون فيها بأولئك القوقازيين الذين تجرؤوا وفكروا بالسياسة. استدارت نينو بعيداً، فقد كان من الصعوبة بمكان بالنسبة إليها أن تجمع بين ولائها للقيصر ومنظر هذا المكان الشهير أو غير الشهير الذي تجري فيه عمليات التعذيب حتى الموت.

«أيوجد أحد من أبناء عمك هناك في ميتش يا نينو؟»

«لا، ولكن عليك الذهاب إلى هناك. لنذهب، علي خان».

«إلى أين؟»

«هلم إلى زيارة غريبويدوف»، انعطفنا إلى إحدى الزوايا ووقفنا عند شاهد القبر العتيق، وهنا التقطت نينو حصاة صغيرة وضغطتها بقوة على شاهد القبر ثم أفلتتها فسقطت وتدحرجت بعيداً. احمر وجه نينو بشدة،

فهناك خرافة قديمة في تفليس تقول إنه إذا ضغطت فتاة حصاة على حجر رطب ولصق به لوهلة، فستتزوج في السنة نفسها. أما حصاة نينو فقد سقطت. نظرتُ إلى وجهها المحرج وضحكت: «أرأيتِ؟، ثلاثة أشهر قبل زواجنا! ألم يكن رسولنا على حق عندما قال لا تصدقوا ما تقوله الحجارة الميتة؟».

«نعم»، قالت نينو.

عدنا إلى السكة الحديدية المعلقة. «ما الذي سنفعله عندما تنتهي الحرب؟»، سألتْ نينو.

«عندما تنتهي الحرب؟ سنفعل الأشياء نفسها التي نقوم بها الآن: التنزه في باكو، رؤية الأصدقاء، الذهاب إلى كاراباخ، وإنجاب الأطفال. سيكون ذلك رائعاً».

«أرغب برؤية أوروبا».

«بالطبع، سنذهب إلى باريس وبرلين، وإلى أي مكان ترغبين به لشتاء بطوله».

«نعم، لشتاء واحد».

«نينو، ألم يعد بلدنا يعجبك؟ نستطيع العيش في تفليس إذا رغبتِ بذلك».

«أشكرك، علي خان، أنت لطيف جداً معي. سنبقى في باكو».

«نينو، أنا أعتقد أنه لا يوجد مكان كباكو».

«حقاً؟ وهل رأيت مدناً أخرى كثيرة؟».

«لا، ولكنني مستعد للدوران حول العالم معك».

«وستشعر في معظم الوقت بالشوق للحائط القديم وللأحاديث العميقة مع سيد مصطفى. ولكن لابأس، ابقَ كما أنت فأنا أحبك».

«أنتِ محقة يانينو. أنا أحب بلادنا، أحب جميع مدننا، كل حجر وكل ذرة رمل في الصحراء».

«أعرف ذلك. يا لغرابة حبك هذا لباكو، فهي بالنسبة للغرباء مجرد مكان حار، مغبر، ممل، ويختنق بالنفط».

«هذا لأنهم غرباء».

وضعتْ نينو ذراعيها حول كتفي، ولامست شفتاها وجنتي: «ولكن لسنا غرباء مطلقاً، هل ستحبني على الدوام، علي خان؟».

«دائماً نينو».

عادتْ عربتنا إلى محطة المدينة، ثم مشينا ثانية على امتداد شارع غولوفنسكي، ولكن هذه المرة كان كل منا يحيط الآخر بذراعه. كان على يسارنا حديقة محاطة بسياج من القضبان الحديدية الجميلة. ووقف بجانب البوابة المغلقة جنديان لا يتحركان وكأنهما مصنوعان من الحجارة، ولم يكن يبدو عليهما أنهما يتنفسان. وقد عُلِّق نسرٌ إمبراطوري بفخامة فوق البوابة وهو يرفرف بطلائه الذهبي. كان ذلك منزل الدوق الكبير: نيقولاي نيقولايفيتش، حاكم القوقاز الذي عيّنه القيصر.

توقفتْ نينو فجأة. «انظر»، ثم أشارت باتجاه البوابة، حيث تجاوزنا ببطء خلال جادة أشجار الصنوبر رجل طويل وأنيق ذو شعر رمادي. وعندما التفتُّ تعرفتُ على عيني الدوق الكبير المجنونتين، الباردتين والكبيرتين. كان وجهه طويلاً وشفتاه مطبقتين معاً حيث بدا في ظل أشجار الصنوبر كحيوان نبيل ومفترس. «أتساءل ما الذي يفكر فيه يا علي خان؟»

«إنه يفكر في تاج القيصر يا نينو».

«سيبدو جميلاً على شعره الرمادي. ترى، ما الذي سيفعله؟»

«يقولون بأنه سيطيح بالقيصر».

«لنذهب بعيداً علي خان، أنا خائفة».

ابتعدنا عن العريشة المزخرفة الجميلة. قالت نينو: «لا ينبغي لك التكلم بشكل سيء هكذا عن القيصر والدوق الكبير، فهما يحميانا من الأتراك».

«إنهما نصف البرثن الحار الذي يهرس بلدك».

«بلدي أنا، وماذا عن بلدك؟»

«الموضوع يختلف بالنسبة لنا، فنحن راقدون على السندان والدوق الكبير يحمل المطرقة، ولهذا نحن نكرهه».

«وتحب إنفِر باشا، هذا غباء، لن يدخل إنفِر باشا أبداً إلى مدينتنا، فالدوق الكبير سينتصر».

«الله أعلم»، قلت لها بسلام.

16

دخلت جيوش الدوق الكبير إلى ترابيزونت واحتلت ارضروم، كما اجتاحت القرى الكردية في طريقها إلى بغداد، ووصلت إلى طهران وتبريز، وحتى إلى مشهد، المدينة المقدسة. ووقعت نصف تركيا ونصف فارس تحت ظل نيقولاي نيقولايفيتش الثقيل الذي أعلن هذا في اجتماع للنبلاء الجورجيين: «انسجاماً مع أوامر القيصر، لن أعرف الراحة حتى يلمع الصليب الذهبي البيزنطي بألقٍ جديد فوق قبة أياصوفيا». كانت بلاد الهلال في وضعٍ يشبه الكارثة، ولم يعد أحد يتحدث عن قوة العثمانيين وسيف إنقِر باشا المنتصر سوى الكوتشي والأمبال الذين يعيشون في الأزقة الصغيرة المظلمة. توقفتْ فارس عن الوجود كما ستتوقف قريباً تركيا عن الوجود. أصبح والدي شديد الصمت وغالباً ما كان يخرج من المنزل، وكنت أراه في بعض الأحيان منحنياً فوق الخرائط والإرساليات الأخبارية، يهمس بأسماء المدن التي سقطت ثم يجلس ساعات بلا حراك، ممسكاً بسبحته الكهرمانية. أما أنا فقد كنت أشتري الهدايا لنينو من بائع المجوهرات إلى بائع الأزهار إلى المكتبة. وعندما كنت أراها، كان كل شيء يختفي من أفكاري لساعات وساعات: الحرب، والدوق الكبير، والهلال المهدد بالخطر.

وفي أحد الأيام، قال لي والدي: «ابقَ في المنزل الليلة يا علي خان، سيأتي بعض الناس وسنتحدث بأمور مهمة». بدا من صوته أنه محرج بعض الشيء وقد نظر بعيداً، فهمت ما يرمي اليه، فمازحته قائلاً:

«ألم تجعلني أقسم يا أبي ألا تكون لي علاقة بالسياسة أبداً؟».

«اهتمام المرء بشعبه لا يعني بالضرورة تعاطي السياسة. فمن واجب المرء، في بعض الأحيان، أن يفكر بقومه».

كنت قد اتخذت الإجراءات لاصطحاب نينو إلى الأوبرا في تلك الليلة، حيث سيظهر شاليبين بصفة الفنان الضيف، وقد كانت نينو تتوق إلى هذه الأمسية منذ أيام. هاتفت إلياس بيغ:

«إلياس، أنا مشغول الليلة، هل تستطيع اصطحاب نينو إلى الأوبرا؟ لديَّ التذاكر». أجاب بصوت واثق: «يا لها من فكرة، أنت تعلم أنني لا أستطيع إمتاع نفسي، فأنا في مهمة هذه الليلة مع محمد حيدر». خابرت سيد مصطفى:

«آسف، ولكنني حقاً لا أستطيع، فلدي موعد مع الملا الشهير هادشي ماشود. لقد قَدِمَ من طهران وسيبقى هنا فقط لبضعة أيام». اتصلت بناتشاراريان، فبدا صوته محرجاً جداً:

«ولماذا لا تذهب بنفسك يا علي خان؟»

«لدينا ضيوف».

«لتضعوا خططاً لقتل الأرمن؟ ينبغي ألّا أذهب إلى المسرح في الوقت الذي ينزف فيه شعبي حتى الموت. ولكنني سأفعل من أجلك، بالإضافة إلى أن شاليبين مُغنٍّ رائع». أخيراً، الصديق عند الحاجة هو الصديق بحق، أخبرت نينو بذلك وبقيتُ في المنزل.

حضر ضيوفنا في الساعة السابعة، وقد كانوا الأشخاص الذين توقعت رؤيتهم بالضبط. ففي صالتنا الكبيرة وعلى السجاجيد الحمر والأرائك الناعمة، جلس ألف مليون روبل أو بالأحرى اجتمع رجال يسيطرون على مبلغ يربو على ألف مليون روبل. لم يكن هناك العديد منهم، وقد عرفتهم منذ سنين: كان سِيْنالْ آغا، والد إلياس بيغ أول القادمين. كان ظهره محنياً

ونظرة عينيه مبطنة. انحنى ليجلس على الأريكة، ووضع عصاه أرضاً وبدأ يأكل قطعة من المأكولات التركية الشهية. ثم أتى الشقيقان علي أسد الله وميرزا أسد الله. ترك لهما والدهما الراحل شمسي اثني عشر مليون روبل. وقد ورث الابنان ذكاء والدهما ولكنهما تعلما أيضاً القراءة والكتابة.

أحب ميرزا أسد الله المال والحكمة والسلام. أما أخوه علي فكان يحترق كنار زاراثوسترا ولكن ليس إلى درجة الموت. كان دائم الحركة ويحب الحرب والمغامرة والمخاطرة. كانت تُروى الكثير من الحكايات عنه في البلاد: عن قتاله واعتداءاته، وإراقة الدماء. أما سولن باشا الجالس بقربه، فلم يكن ميالاً إلى القتال بل إلى الحب. كان هو الشخص الوحيد بيننا الذي تزوج بأربع نساء كنَّ على الدوام في حرب ضروس ضد بعضهن البعض. كان يشعر بالخجل من هذا الوضع ولكنه لم يستطع تغيير طبيعته. وعندما يُسأل عن عدد أولاده، كان يجيب بحزن: «خمسة عشر أو ثمانية عشر، كيف باستطاعتي أن أعرف، أنا الرجل المسكين؟ وكان يجيب بالطريقة نفسها عندما يسأله أحدهم عن عدد ملايينه. نظر إليه يوسف أوغلي الجالس في الطرف الآخر من الصالة، بحسدٍ وبطريقة لا تنم على الرضا. كانت لديه زوجة واحدة، ويقال بأنها ليست جميلة. قالت له في يوم عرسه: «إذا فكرت يوماً في تشتيت سائلك المنوي على نساء أخريات، فسأقطع أذنهن كما سأقطع أنفهن وصدورهن، أما بالنسبة لك، فأنا لا أرغب حتى في إخبارك ما الذي سأفعله بك». وبما أن أقارب هذه المرأة مشهورون بتجريدهم لأسلحتهم واستعمالها لأقل سبب، كان لا بد من أخذ تهديدها على محمل الجد. وهكذا، اكتفى المسكين بجمع الصور.

دخل الصالة في السابعة والنصف رجل صغير الجسم ونحيل جداً، وكانت أظافر يديه الناعمتين مطليتين باللون الأحمر. نهضنا جميعاً وانحنينا له احتراما لسوء طالعه، فقد مات ولده الوحيد إسماعيل منذ عدة سنوات. بنى الوالد بيتاً رائعاً في شارع نيقولاي وكتب بأحرف مذهبة كبيرة اسم

إسماعيل الذي لمع فوق البوابة، وقد كرس المنزل للمؤسسات الخيرية الإسلامية. كان اسمه آغا موسى ناجي، وكان عضواً في حلقتنا فقط بفضل المئتي مليون روبل التي يملكها، فهو لم يعد مسلماً. وقد انتمى إلى مذهب هرطقي مُنشق حيث أسس هذا المذهب (باب) الذي قتله شاه نصر الدين، وقد كانت القلة منا فقط تعلم ما هي تعاليم باب. لكننا جميعاً كنا نعلم أن نصر الدين يضع إبراً ملتهبة تحت أظافر أتباع هذا المذهب ويحرقهم أحياء كما كان يجلدهم حتى الموت، لابد أن تعاليم هذا المذهب شريرة جداً لكي تُفرض عقوبات كهذه.

في الثامنة مساء اكتمل جميع الضيوف، وجلس أمراء النفط يشربون الشاي ويأكلون الحلويات ويتبادلون الأحاديث عن أعمالهم المزدهرة وعن منازلهم وأحصنتهم وبساتينهم وكذلك عن خساراتهم على طاولات الكازينو الخضراء. استمرت أحاديثهم حتى التاسعة مساءً كما تقتضي أصول الأتيكيت. ثم أخذ الخدم كؤوس الشاي وأغلقوا الأبواب. بدأ والدي الحديث قائلاً «إن ميرزا أسد الله، ابن شمسي أسد الله، فكر كثيراً بمصير شعبنا. لنسمع حديثه».

رفع ميرزا أسد الله رأسه ووجهه الجميل الحالم وقال: «إذا انتصر الدوق الكبير، لن يبقى بلد مسلم واحد على الخريطة، وستكون يد القيصر ثقيلة. لن يلمسنا نحن المجتمعين هنا الليلة لأننا نملك المال، لكنه سيغلق مساجدنا ومدارسنا وسيجتاح الغرباء أرضنا، ولن يكون هناك أحد ليدافع عن شعب الرسول. سيكون من الأفضل لنا أن ينتصر إنڤِر، ولو كانت انتصاراته معدودة، ولكن ما الذي يمكننا فعله في كلتا الحالتين؟ أنا أرى أنه لا يمكننا فعل شيء. لدينا المال، لكن القيصر لديه مال أكثر. ما الذي ينبغي أن نفعله؟ ربما علينا أن نقدم للقيصر بعض المال والرجال. ولن تكون يد القيصر ثقيلة علينا بعد الحرب إذا قدمنا له كتيبة. أم أنّ هناك وسيلة أخرى؟

وقف أخوه علي وقال: «من يدري، ربما لن يكون هناك الكثير من الروس في بلادنا بعد الحرب».

«رغم ذلك يا أخي فسيكون هناك الكثير من الروس في بلادنا».

«من الممكن تقليل عددهم يا أخي».

«لا نستطيع قتلهم جميعاً يا علي».

«نستطيع قتلهم جميعاً يا ميرزا».

لزما الصمت، ثم تحدث سِيْنالْ آغا برقة شديدة وبلا تعابير، وهو يشعر بالتعب بتأثير سنه: «لا أحد يعلم ما هو المكتوب. ليست انتصارات الدوق الكبير بانتصارات حتى لو استولى على اسطامبول، فالمفتاح الذي يحدد مصيرنا ليس في اسطامبول بل في الغرب. الأتراك ينتصرون هناك. يحتل الروس ترابيزونت ويحتل الأتراك وارسو. وماذا عن الروس؟ هل بقي أحد منهم؟ سمعت أن فلاحاً أظن أن اسمه راسبوتين، يحكم القيصر ويداعب بناته، وينادي القيصرة ماما. كما أنّ هناك الدوقات الذين يرغبون بإسقاط القيصر والناس الذين ينتظرون السلام، ولهذا فهم يستطيعون البدء بثورة. وسيكون كل شيء مختلفاً تماماً بعد الحرب».

«نعم»، قال رجل بدين ذو شارب طويل وعينين تلمعان، «في الواقع، سيكون كل شيء مختلف بعد الحرب». كان هذا فتح علي خان من غوجا، وهو رجل يمارس المحاماة، ويتحدث دوماً عن الشعب وقضاياه. تابع حديثه بحماس: «نعم، علينا ألا نتوسل للحصول على منَّةٍ من أحد، بما أن كل شيء سيتغير بعد الحرب. فالمنتصر في هذه الحرب سيخرج منها ضعيفاً ومثخناً بالجراح، أما نحن فلا نعاني الضعف أو الجراح، وسنكون في موقف نطلب فيه ولا نتوسل. نحن بلد مسلم شيعي ونتوقع من آل رومانوف الشيء نفسه الذي نتوقعه من آل عثمان. الاستقلال هو ما يهمنا، وكلما ضعفت القوى العظمى بعد الحرب، اقتربنا من الحرية. ستأتي هذه الحرية إلينا من ذاتنا، من

قوتنا الحية، ومن مالنا ونفطنا، كما أنّ علينا ألا ننسى أن العالم يحتاجنا أكثر مما نحتاجه».

شعر الألف مليون روبل المجتمعون في الغرفة بالرضا الكبير، فسياسة «انتظر لترى» سياسة جيدة. إننا نملك النفط، والمنتصرون سيضطرون للتوسل من أجل خدماتنا، وما الذي سنفعله عندئذ؟ بناء المستشفيات وبيوت للأطفال وللمكفوفين لأولئك الذين يدافعون عن عقيدتنا، ولن يستطيع أحد أن يتهمنا بأننا بلا شخصية. جلستُ في إحدى الزوايا صامتاً وغاضباً. أتى علي أسد الله خلال القاعة وجلس قربي: «وما رأيك علي خان؟» ومن دون أن ينتظر جوابي، انحنى إلى الأمام وهمس: «ألا يكون أمراً رائعاً لو نقتل جميع الروس في بلدنا. ليس فقط الروس، بل جميع الأجانب الذين يتحدثون ويصلون ويفكرون بطريقة مغايرة لنا. جميعنا يرغب بفعل ذلك في الواقع، ولكنني الوحيد الذي يجرؤ على قول ذلك بصوتٍ عالٍ. وما الذي سيحدث حينذاك. فيما يتعلق بي، يستطيع فتح علي أن يحكم، رغم أنني أفضل إنقِر . ولكن علينا في البداية أن نبيد جميع الغرباء».

نطق علي أسد الله بكلمة «نبيد» باشتياق حنون كما لو كان يعني «الحب». برقتْ عيناه وابتسم ابتسامة عابثة، فلم أجب.

ثم تكلم موسى ناجي: «أنا رجل مسن، وأشعر بالحزن لرؤية ما أرى وسماع ما أسمع. الروس يقتلون الأتراك، والأتراك يقتلون الأرمن، والأرمن يرغبون بقتلنا، ونحن نتمنى قتل الروس. هل هذا أمر جيد؟ لا أعلم. لقد سمعنا آراء سِيْنالْ آغا وميرزا وعلي وفتح علي فيما يخص مصير شعبنا. لقد فهمت أنهم شديدو الاهتمام بمدارسنا ولغتنا والمستشفيات والحرية. ولكن ما نفع المدارس إذا كان ما يُدرس فيها مجرد هراء؟ ما نفع المستشفيات إذا كانت لا تعالج إلا الجسد بينما تنسى أمر الروح؟ إن أرواحنا تهفو للذهاب إلى الله، لكن كل قومية تعتقد أنها تملك رباً لها وحدها، وأنه الرب الحق

والرب الوحيد. لكنني أعتقد أن الرب الذي عرَّفَ عن نفسه خلال صوت جميع الحكماء، هو رب واحد. لذلك فأنا أقدِّس المسيح وكونفوشيوس وبوذا ومحمد. أتينا جميعنا من الرب نفسه وسنعود إليه. يجب أن يعلم الرجال أنه لا يوجد أسوَد وأبيض لأن الأبيض أسود والأسود أبيض. لذلك فنصيحتي كالآتي: دعونا لا نفعل أي شيء يؤذي أحداً في أي مكان من هذا العالم لأننا جزء من كل روح وكل روح جزء منا».

جلسنا صامتين وحائرين، تلك هي إذاً هرطقة باب. فجأة، سمعت صوت نشيج عال، تلفتُّ فرأيت وجه أسد الله المغطى بالدموع وقد تشوه بالحزن: «آه يا روحي، كم أنت محق، يا للسعادة وأنا أسمع كلماتك. آه، أيها الرب العظيم، لو يستطيع جميع الرجال الوصول إلى حكمة بهذا العمق». ثم جفف دموعه وتنهد بعمق وأضاف بصوت أكثر هدوءاً بشكل واضح: «لاشك، أيها السيد المبجل، أن يد الله فوق أيادينا جميعاً، ومع ذلك، فالواقع يا ينبوع الحكمة أننا لا نستطيع دائماً الاعتماد على تدخل القادر الرحيم. نحن لسنا سوى رجال، فإن فشل الإلهام، فعلينا إيجاد الوسيلة لتجاوز مصاعبنا». كانت تلك الجملة ذكية كذكاء دموعه. نظر ميرزا إلى أخيه بإعجاب كبير. وقف الضيوف، ولمست الأيادي النحيلة الجباه الداكنة مُحيِّية. وانحنت الظهور المحيية وتمتمت الشفاه: «السلام عليكم، لتبقَ الابتسامة على شفتيك يا صديقي».

انتهى الاجتماع، وخرج الألف مليون روبل إلى الشارع وافترقوا يومئون ويحيّون ويتصافحون. كانت الساعة العاشرة والنصف، وكانت القاعة فارغة وكئيبة، شعرت بالوحدة الشديدة، فقلت للخادم: «سأذهب إلى الثكنة، فإلياس بيغ مناوب اليوم»، ومشيت نزولاً باتجاه البحر وتجاوزت منزل نينو باتجاه الثكنات الكبيرة. كانت غرفة الحراسة مضاءة بنور قوي، وكان إلياس بيغ ومحمد حيدر يرميان النرد وقد استقبلاني بإيماءة صامتة. انتهوا من اللعب أخيراً، فرمى إلياس بيغ النرد إلى الزاوية وفك ياقته ثم سألني:

«كيف جرت الأمور؟ هل أقسم أسد الله ثانية أن يقتل جميع الروس».

«تقريباً. ما هي أخبار الحرب؟»

«الحرب»، قالها بملل، «احتل الألمان بولندا بأكملها، أما الدوق الكبير فهو إما سيَعْلَقُ في الثلج أو سيحتل بغداد. ربما سيحتل الأتراك مصر، لا أحد يعلم، إنه عالم ممل».

فرك محمد حيدر رأسه المحلوق وقال: «إنها ليست مملة على الاطلاق، لدينا خيول وجنود ونعلم كيف نستخدم أسلحتنا، ماذا يحتاج الرجل أكثر من ذلك؟ في أحد هذه الأيام، سأصعد إلى الجبال وسأقبع في الخنادق وأرى عدوي أمامي. يجب أن يملك عضلات قوية كما يجب أن تنبعث رائحة العرق من جلده».

قلت له: «لم لا تتطوع في الجبهة إذا كان هذا ما ترغبه؟»

بدت عينا محمد حيدر حزينتين وضائعتين تحت جبينه المنخفض: «لا أستطيع إطلاق النار على المسلمين حتى لو كانوا من غير مذهبنا. ولكنني أيضاً لا أستطيع الفرار من الجندية فقد أقسمت يمين الولاء، يجب أن يكون كل شيء مختلفاً في بلدنا». نظرت إليه وأنا أشعر بالحب تجاهه، فقد جلس هناك قوياً بكتفين عريضين ووجه بسيط يكاد يختنق من شدة رغبته بالقتال. ثم قال بحزن: «أريد الذهاب إلى الجبهة كما لا أريد ذلك».

سألته: «ما الذي ينبغي أن يحدث في بلدنا؟» عقد حاجبيه معاً ولكنه لم يجب لفترة طويلة فالتفكير لم يكن إحدى مزاياه. أخيراً قال: «بلدنا؟ علينا أن نبني الجوامع وأن نسقي الأرض لأنها عطشى. إنه ليس بالأمر الجيد أن يأتي الأجانب الينا ليخبرونا كم نحن أغبياء. فإن كنا أغبياء فهذا شأننا. كما أرى أنها ستكون فكرة جيدة أن نضرم ناراً كبيرة ونحرق جميع الهياكل النفطية. سيكون ذلك جميلاً وسنغدو جميعاً فقراء ثانية. وبدلاً من الهياكل النفطية، أرى أن نبني مساجد جميلة ذات قرميد أزرق. علينا أن

نجلب الجواميس ونزرع الذرة في الأرض النفطية». ثم صمت محمد حيدر وهو يحلم بهذه الرؤيا، بينما ضحك إلياس بيغ بسعادة:

«حينذاك ستُمنع القراءة والكتابة وستستعمل الشموع بدلاً من الكهرباء وسننتخب أكثر الرجال غباءً ليصبح ملكاً». لم يفهم محمد حيدر النكتة فقال:

«كان هناك في الماضي عدد أكبر من الناس الأغبياء. كانوا يبنون القنوات بدلاً من الهياكل النفطية ويسرقون الغرباء بدلاً من أن يتركوهم يسرقوننا. في تلك الأوقات، كان الناس أكثر سعادة من الآن». شعرت برغبة في تقبيل هذا الشاب البسيط، فقد تحدث وكأنه يرى نفسه قطعة من أرضنا المسكينة المعذبة. فجأة، سمعت صوت دقات مجنونة على الباب جعلتني أقفز. نظرت خارجاً، فدخل سيد مصطفى الغرفة مسرعاً، وقد تدلَّتْ عمامته على جهة واحدة من جبينه المتلألئ، وكان حزامه الأخضر مرخياً ورداءه الرمادي مغبراً. سقط على أحد المقاعد وقال لاهثاً: «لقد خطف ناتشاراريان نينو منذ نصف ساعة، إنهما في الطريق إلى مارداكجاني».

17

قفز محمد حيدر على قدميه وصارت عيناه صغيرتين جداً، وقال «سأسرج الأحصنة»، ثم انطلق خارجاً. اندفع الدم إلى رأسي وسمعت صوت طبول في أذني. شعرت كأن يداً خفية تضرب رأسي بعصا. سمعت صوت إلياس بيغ قادماً من بعيد: «اثبتْ علي خان، اثبت حتى نمسك بهما». كان وجهه الضيِّق شاحباً جداً، فوضع حزاماً على خصري تدلّى منه خنجر قوقازي مستقيم. «هكذا»، قال إلياس بيغ، ثم وضع مسدساً في يدي وردد ثانية: «اثبت علي خان، وَفِّرْ غضبك للطريق إلى مارداكجاني». وضعتُ المسدس في جيبي بشكل أوتوماتيكي، اقترب مني وجه سيد مصطفى الذي تظهر عليه علامات الجدري، ورأيت شفتيه الثخينتين تتحركان فسمعت الكلمات التالية: غادرتُ منزلي لرؤية الملا الحكيم هاتشي ماشود، فخيمة حكمته تقع بالقرب من المسرح. غادرت في الحادية عشرة، عندما انتهت المسرحية الآثمة. رأيت نينو تدخل السيارة وكان ناتشاراريان معها. لكن السيارة لم تقلع، فقد كانا يتحدثان. لم أرَ تعابير وجه ناتشاراريان فانسللت لأقترب أكثر فسمعت نينو تقول: «لا، فأنا أحبه». قال ناتشاراريان «أنا أحبك أكثر»، ثم أضاف: «لن يبقى حجر واحد على حاله في هذه البلاد، سأنقذك من براثن آسيا». «لا، أوصلني إلى المنزل»، قالت نينو. أشغل ناتشاراريان المحرك فقفزت في الخلف، وذهبت السيارة إلى منزل الكيبياني. لم أستطع سماع ما كانا يقولانه، لكنهما كانا يتحدثان طيلة الوقت. توقفت السيارة

عند المنزل، وكانت نينو تبكي. فجأة عانقها ناتشاراريان وقبّلَ وجهها وصاح: «يجب ألا تقعي بين أيدي هؤلاء المتوحشين». ثم همس شيئاً ولم أسمع سوى النهاية: «... إلى منزلي في مارداكجاني، سنتزوج في موسكو، ثم نذهب إلى السويد». رأيتُ نينو تدفعه بعيداً، قفزتُ من السيارة وجريت بأسرع ما أستطيع إلى...». لم يُنهِ الجملة، أو ربما لم أرغب بسماع النهاية. دخل محمد حيدر وهو يشق الباب وصرخ: «الجياد جاهزة». ركضنا إلى الفناء. أطلّ القمر فوق الجياد الواقفة هناك وهي تصهل وتضرب الأرض بقدميها. نظرتُ إلى الجواد فصُدِمتُ وأُصبتُ بالخدر، فقد وقفتْ هناك معجزة كاراباخ الحمراء المذهبة، التي لا يوجد منها سوى اثني عشر في العالم بأسره، حصان ميليكوف، القائد الآمر للفوج. كان وجه محمد حيدر متجهماً: «سيُجن القائد؛ لم يمتطِ هذا الحصان أحد سواه. لا توفِّره، فسوف تمسك بهما».

قفزتُ إلى السرج، وضربت بسوطي خاصرة الحصان الرائع، فأصبحتُ خارج فناء الكتيبة بقفزة واحدة . أسرعنا بمحاذاة البحر، تابعت ضرب الحصان وأنا ممتلئ بالكره. رقصت البيوت وأنا أمر قربها وطار الشرر من حوافر الجواد. مزقت اللجام فشبَّ الحصان وانطلق يسابق الريح. وأخيراً صارت الأكواخ الطينية في الضواحي خلفي. رأيت الحقول راقدة بسلام تحت ضوء القمر وكان هناك الطريق إلى ماداكجاني. جعلني الهواء الليلي أشعر ببرودة أكثر، وأصبحت حقول البطيخ على يميني ويساري. كانت الفاكهة الكبيرة الدائرية تبدو كقطع النقود. قفز الحصان بخطوات طويلة مرنة ومتساوية بطريقة تسحر الألباب. انحنيت للأمام إلى أقصى ما أستطيع، إلى عنق الجواد الذهبي. إذاً، هكذا كان الأمر؛ أستطيع رؤية كل شيء بوضوح الآن... أستطيع سماع كل كلمة نطقاها. وفجأة، أصبحتُ قادراً على متابعة قطار أفكاري الغريب: إنڤِر يقاتل في آسيا الصغرى، وعرش

القيصر مهدد، أما الدوق الكبير فكان لديه كتيبة أرمنية في جيشه. فإذا انهارت الجبهة فستجتاح الجيوش العثمانية أرمينيا وكاراباخ وباكو. ناتشاراريان يستطيع التنبؤ بالعواقب، ولذلك أرسل سبائك الذهب والذهب الأرمني الثقيل إلى السويد. كانت تلك نهاية أخوَّة شعوب القوقاز. أستطيع رؤيتهما في مقصورة المسرح: «يا أميرة، ليس هناك من جسر بين الشرق والغرب، ولا حتى برج للحب». نينو لا تجيب ولكنها تسمع. «علينا أن نقف معاً، نحن المهددين بالسيف العثماني، نحن سفراء أوروبا في آسيا. أنا أحبك يا أميرة، نحن ننتمي لبعضنا. الحياة بسيطة وسهلة في استكهولم. فهناك أوروبا، هناك الغرب». أسمعه يقول ببساطة كما لو أنني كنت موجوداً عندما نطق هذه الكلمات: «لن يبقى حجر واحد في البلاد».

وفي النهاية: «عليكِ أن تقرري مصيرك بنفسك. نينو، سنعيش بعد الحرب في لندن، وسوف يتم تقديمنا في البلاطات الملكية. على الأوروبي أن يكون سيد قدره. أنا أقدِّر علي خان، ولكنه بربري وسيبقى أسير الصحراء إلى الأبد».

ضربتُ الجواد بالسوط، فسمعت صوت صرختِهِ. هكذا تعوي ذئاب الصحراء عندما ترى القمر، فتسحب نفساً طويلاً في صوت نحيب عالٍ. جميع الليالي في صوت واحد. انحنيت أكثر إلى الأمام، كان حلقي يؤلمني. لماذا كنت أبكي في الطريق المقمر إلى مارداكجاني؟ يجب أن أوفِّر غضبي. ضربتْ ريحٌ قارصةٌ وجهي، لهذا السبب سقطت دموعي، وليس لسبب آخر. فأنا لم أبكِ حتى عندما علمت فجأة أنه لا يوجد جسر بين الشرق والغرب، ولا حتى جسر الحب. تلك العيون الجورجية المبتسمة والمشرقة! نعم، أنا واحد من ذئاب الصحراء، الذئاب التركية الرمادية. لقد دُبِّر الأمر بصورة مُتقنة، أليس كذلك؟ «سنتزوج في موسكو ثم سننطلق إلى السويد! فندق في السويد، دافئ ونظيف بكتان أبيض. وڤيلّا في لندن. ڤيلّا؟ لمس وجهي جلد الأحمر المذهب. فجأة، عضضتُ عنق الحيوان فامتلأ فمي بطعم

الدم المالح. ڤيلّا؟ ناتشاراريان يملك ڤيلّا في مارداكجاني، كجميع أغنياء باكو. إنها مصنوعة من الرخام وتقع في حدائق الفواكه في الواحات قرب البحر. بأي سرعة تستطيع السيارة أن تسير وبأية رشاقة يستطيع الحصان الركض؟ أنا أعرف الڤيلّا، فالسرير أحمر وكبير جداً، مصنوع من خشب الماهوغاني(*)، أما الملاءات فبيضاء مثل تلك التي في فندق استكهولم. لن يتحدث عن الفلسفة طوال الليل. سوف... بالطبع سوف يفعل. أرى السرير أمام عيني كما أرى العيون الجورجية المبطنة بالرغبة والخوف. غرستُ أسناني عميقاً في لحم الحصان الرائع، فانطلق يسابق الريح. هيا انطلق! انطلق! وفِّرْ غضبك حتى تدركهما يا علي خان. الطريق إلى مارداكجاني ضيقة. فجأةً، ضحكتُ عالياً، يا لروعة وجودنا في آسيا، آسيا البرية المتخلفة حيث لا طرق ممهدة للسيارات الأوروبية، بل طرق قاسية لأحصنة كاراباخ. بأية سرعة تستطيع السيارة السير على هذه الطرق وبأية رشاقة يستطيع حصان كاراباخ الانطلاق؟ نظرتْ إليَّ البطيخات الصفراء في جانب الطريق كما لو كانت لها وجوه. قالت البطيخات: «إنها طرق سيئة جداً، غير ملائمة للسيارات الإنكليزية. إنها تصلح فقط لأحصنة كاراباخ».

هل سينجو الحصان بعد هذه الرحلة؟ لا أظن ذلك. مازلت أستطيع رؤية وجه ميليكوف في ذلك اليوم في شوشا عندما كان سيفه يطقطق وهو يقول: «أنا أمتطي الحصان فقط عندما يدعو القيصر إلى الحرب». اللعنة، فليَبلكِ عجوز كاراباخ حصانه. ثانية، سُمعَ صوت سوطي في الهواء ثم كررت ذلك مرة أخرى. كانت الريح تأكل وجهي كما لو أنها تفعل ذلك بقبضتها، وكانت الشجيرات الصغيرة البرية تدور على جانبي الطريق. وأخيراً، سمعت صوت ضجيج محرك آتٍ من بعيد.

(*) خشب الماهوغاني: خشب صلب بني ضارب إلى الحمرة يصنع منه الأثاث الفاخر. م.

مصباحان ساطعان يلقيان سيلاً من النور على الطريق الوعر. كانت السيارة تجرجر نفسها ببطء نحو الأمام، سيارة أوروبية عاجزة أمام الطرق الآسيوية. ضربتُ بسوطي نحو الأسفل ثانية، واستطعت رؤية ناتشاراريان خلف المقود.

أما نينو فقد قبعت في الزاوية. لماذا لم يستطيعا سماع صوت حوافر الحصان؟ هل ظن أنه لا ضرورة لسماع الليل خارجاً؟ إنه يشعر بالأمان في داخل سيارته الأوروبية وهو بطريقه إلى مارداكجاني. فليقف هذا الصندوق المصقول الآن في هذه اللحظة! فككت صمام الأمان عن مسدسي. هيا أيتها الآلة البلجيكية الصغيرة العزيزة، قومي بواجبك. أطلقتُ الرصاص. لمعْ لِلحظةٍ وهجٌ على امتداد الطريق. أوقفتُ الحصان. حسناً فعلتَ أيها الصديق البلجيكي الصغير. نزل الدولاب الخلفي إلى الأسفل وكأنه لعبة بالون فرغتْ من الهواء. توقف الصندوق المصقول، فقفزت إليه والدم يضرب في صدغي. رميت بسلاحي بعيداً، ولم أعد أدري ما الذي أفعله. نظر إليَّ وجهان وعيون ممتلئة بالرعب الشديد. أمسكتْ يدٌ غريبةٌ مرتجفة بمسدس. اذاً هو لم يشعر بأمانٍ تامٍّ في سيارته الأوروبية. رأيت الأصابع البدينة والخاتم الألماسي. بسرعة علي خان، اثبت الآن. سحبت خنجري، فاليد المرتجفة لن تطلق النار. طار الخنجر في الهواء في صفيرٍ رخيم. تُرى أين تعلمتُ رمي الخنجر؟ في فارس؟ في شوشا؟ لم أتعلمه في أي مكان! إنه في دمي وفي عروقي، لقد ورثت عن أجدادي الجامحين معرفة شكل القوس الذي على الخنجر رسمه. ورثتُ ذلك من أول شيرفانشير ذهب إلى الهند واحتل دلهي. سمعت صوت صرخة وأدهشني أنها كانت عالية وحادة. أرختْ يدٌ بدينة أصابعها وجرى من الرسغ خط من الدم. إنه لأمر رائع أن ترى دم عدوك على الطريق إلى مارداكجاني. وقعَ المسدس في أسفل السيارة، وفجأة رأيت شيئاً يزحف مذعوراً وبطناً سميناً، وبقفزة واحدة، كان الرجل يجري في الطريق منطلقاً

باتجاه الشجيرات الواقعة على الجانب. أما نينو فكانت ما تزال جالسة بشكل مستقيم على وسائد السيارة الناعمة دون حراكْ. كانت خالية من أية تعابير، ووجهها قاسٍ كما لو كان مصنوعاً من الحجر. لكن جسدها بأكمله كان يرتجف بطريقة خارجة عن السيطرة في خضم كابوس قتال الأشباح في الظلام. سمعتُ من بعيد صوت هدير حوافر الخيل يقترب أكثر. قفزت إلى الغابة الصغيرة. تلقفتني الأغصان الحادة كما لو كانت أياد خفية لأعداء غير منظورين. سمعت حفيف الأغصان تحت قدمي وجرحت الأغصان الجافة يديَّ. وفي البعيد كان الحيوان المُطارد ناتشاراريان يتنفس باهتياج. فندق في استكهولم! وشفتان بدينتان دهنيتان على وجه نينو.

رأيته؛ كان يتعثر ويمزق الشجيرات بيديه السمينتين. إنه الآن يركض في حقل البطيخ الأصفر باتجاه البحر. لماذا رميتُ بالمسدس عندما رأيته في المرة الأولى؟ كان يمكن أن أستعمله الآن. كان الدم يسيل من يديَّ الممزقتين بتأثير الشجيرات الشائكة. كانت هناك البطيخة الأولى ولها قناع دائري سمين وبدين ـ هل تهزئين بي؟ دستُ عليها فانفجرت تحت كعب حذائي محدثةً صوتاً يشبه الغطس في الماء. ركضتُ خلال الحقل ونظر وجه القمر الميت بارتياب، وأنارتْ سيولٌ من الأضواء المذهبة الباردة حقل البطيخ. لن تأخذ أبداً سبائك الذهب إلى السويد يا ناتشاراريان. أمسكتُ بكتفه، فاستدار ووقف ككتلة خشبية بعينين تكرهانني لأنني اكتشفته على حقيقته. لكمني بقبضته على ذقني، ثم لكمني ثانية تحت أضلاعي. حسناً يا ناتشاراريان، تعلمت الملاكمة في أوروبا إذاً. شعرت بدوخة وتوقف تنفسي لثوانٍ معدودة. أنا مجرد آسيوي يا ناتشاراريان ولم أتعلم الضرب تحت الأضلاع. أستطيع فقط أن أجن كذئب الصحراء. قفزت وأمسكت جسده بذراعيَّ كما لو كان جذع شجرة. ضغطت بقدمي على بطنه السمين، وأمسكت بيدي عنقه السمين، فبدأ يلطمني بوحشية وقد نسي كل تدريبه الأوروبي. انحنيت

فوقعنا معاً وبدأنا نتدحرج على الأرض. فجأة أصبحتُ تحته، وكانت يداه تخنقانني، وتدلى فمه نحو الأسفل إلى جانب وجهه المشوَّه. ركلت بقدمي بطنه السمين وانغرس عقب قدمي عميقاً في شحمه، فأرخى قبضته. ولوهلةٍ رأيتُ الياقة الممزقة قد سُحِبتْ جانباً، فغرست أسناني في عنقه الأبيض السمين. نعم يا ناتشاراريان، هكذا نقاتل في آسيا، ليس بضربات تحت الحزام وإنما بقبضة الذئب الرمادي. شعرت بعروقه ترتجف.

وبحركة صغيرة باتجاه وركي، أمسكت يد ناتشاراريان بخنجري. كنت قد نسيت أمر الخنجر في خضم اللحظة، وفجأة، ومَضَ الفولاذ وشعرت بألم حاد في أضلاعي. كم هو دافئ دمي! انزلقت الطعنة قرب أضلاعي، تركت رقبته وأخذت الخنجر من يده الجريحة، فأصبح تحتي، ووجهه يواجه القمر في الأعلى. رفعت الخنجر فصرخ بعويل رفيع وطويل وقد ألقى رأسه إلى الوراء. أصبح وجهه كله مجرد فم، بوابة الخوف المميت المفتوحة. فندق في استكهولم، أيها الخنزير!

لماذا أتردد؟ سمعت صوتاً خلفي يصيح: «اقتله علي خان، اقتله».

كان صوت محمد حيدر: «اطعنه فوق القلب نحو الأسفل».

كنت أعرف أين هو الموضع المميت، لكنني كنت أرغب بسماع صوت عدوي المثير للشفقة مرة أخرى. رفعت خنجري وتوترت عضلاتي، فتوحد الخنجر مع جسم عدوي فوق القلب. تلوى ألماً ثانية، ثم مرة أخرى. نهضت ببطء، كان هنالك دمٌ على ثيابي. هل كان دمي أم دمه؟ ماذا يهم من ذلك؟

كشف محمد حيدر عن أسنانه: «لقد فعلتها بشكل جميل علي خان، سأُعجبُ بك إلى الأبد». كانت أضلاعي تؤلمني، فساندني. غُصنا ثانية في الغابة الصغيرة، ثم وقفنا مرة أخرى إلى جانب الصندوق المصقول في الطريق

إلى مارداكجاني. كانت هناك أربعة أحصنة وراكبان. رفع إلياس بيغ يده محيياً، ودفع سيد مصطفى بعمامته على جبينه، وقد أمسك بنينو على سرجه بقوة وكأنها الرذيلة. وببطء وهدوء قال وعيناه شبه مغلقتين كما لو كان في حلم: «ماذا تريد أن تفعل بالمرأة؟ هل تطعنها أم أطعنها أنا؟»

«اقتلها علي خان»، قال محمد حيدر وناولني الخنجر.

نظرت إلى إلياس بيغ فأومأ موافقاً وكان وجهه أبيض كالطبشور: «سنرمي بجسدها في البحر».

وقفتُ قرب نينو. أصبحت عيناها ضخمتين... لقد قدمت في الماضي وهي تركض على امتداد الرصيف إلى منزلنا وهي تستحم في دموعها حاملة حقيبتها المدرسية. وقد جلستُ مرة تحت مقعدها وهمستُ: «تُوِّجَ شارلمان على العرش في آخن في سنة ثمانمئة». لماذا تصمت نينو الآن؟ لماذا لا تبكي كما فعلت ذلك اليوم عندما قدمت إليّ تطلب المساعدة؟ لم تكن غلطتها أنها لم تعرف في أي عام تُوِّجَ شارلمان. أمسكتُ برقبة الحصان ونظرتُ إليها. كم تبدو جميلة في سرج سيد تحت ضوء القمر وهي تنظر إلى الخنجر. هذه الدماء الجورجية، الأنبل في العالم، وهذه الشفاه الجورجية التي قبّلها ناتشاراريان. سبائك ذهبية في السويد ـ لقد قبّلها. «إلياس بيغ، أنا جريح، خذ الأميرة نينو إلى المنزل، الليل بارد، غطِّ الأميرة نينو. سأقتلك إلياس بيغ لو لم تعد الأميرة نينو إلى المنزل بسلام. هل تسمعني إلياس بيغ، هكذا أريد أن تجري الأمور. محمد حيدر، سيد مصطفى، أشعر بالضعف، أمسكا بي وساعداني في الوصول إلى البيت، دعوني أتكئ عليكما، فأنا أنزف بشدة».

أمسكتُ بعنق حصان كاراباخ، ساعدني محمد حيدر لأجلس على السرج. تقدم إلياس بيغ أكثر وأخذ نينو ووضعها بعناية على الوسادات الناعمة لسرجه القوقازي، فلم تقاومه... ثم نزع عنه معطفه ووضعه بلطف

حول كتفيها. كان ما يزال شاحباً جداً. ثم نظر وأومأ لي. ستكون نينو بأمان معه. قفز محمد حيدر على السرج: «أنت بطل علي خان، لقد قاتلت ببراعة وقمت بواجبك». ثم وضع يده حول كتفي مسانداً. كانت عينا سيد مصطفى كئيبتين:

«حياتها ملكك، تستطيع أخذها كما تستطيع العفو عنها، يسمح القانون بكلتا الحالتين». ثم ابتسم بصورة حالمة. وضع محمد حيدر اللجام في يدي وسرنا بصمت في ذلك الليل باتجاه أضواء باكو الخافتة.

18

تقع الشرفة ذات الحجارة الضيقة على حافة المنحدر. كانت هناك حجارة صفراء جافة وبالية من غير أشجار. وُضعت الأحجار الضخمة القاسية معاً لتكوّن حائطاً خشناً، وتدلَّت الأكواخ معاً من الصخور على المنحدر، متقاربة، مربعة، وبسيطة، ليكون فناء كل كوخ سقفاً للكوخ الواقع أسفله، كما يجري النهر عميقاً أسفل الجبال، وتومض الصخور في الهواء الطلق. يلتف طريق ضيق ملتو خلال الصخور ثم يغيب عن النظر بعد أن يكمل طريقه متعرجاً نحو الأسفل. هذه هي الآوِل (قرية جبلية في داغستان). تُغطي أرضية الكوخ المعتم حصيرة سميكة، ويحلّقُ صقر في السماء الواسعة باسطاً جناحيه بلا حركة كما لو كان مصنوعاً من الحجر.

استلقيتُ على السقف الصغير ووضعتُ مبسم النارجيلة الكهرماني بين شفتيّ، وقد سحبت الدخان الفاتر إلى رئتي. أصبح صدغي معتدل البرودة واختفى الدخان الأزرق الذي حملته الرياح الهادئة بعيداً. مزجتْ يدٌ مُحسنة ذرات الحشيش مع التبغ الذي كنت أسحبه. نظرتُ إلى الهاوية ورأيت وجوهاً تدور حول الضباب السابح؛ كانت وجوهاً معروفة: المحارب رستم وفرسانه من البساط على حائط غرفتي في باكو. أتذكر أنني كنت مستلقياً هناك، مغطى بأغطية حريرية وكانت أضلاعي تؤلمني، كما كانت الضمادات ناعمة وبيضاء. سمعت صوت خطوات خفيفة؛ كنت فقط أستطيع سماع وقع الأصوات، فأصغيت. صار الصوت أعلى؛ تكلم والدي: «أنا آسف أيها

المفتش، فأنا نفسي لا أدري أين ولدي. أفترضُ أنه هرب إلى عمه في فارس، أنا آسف جداً».

ارتفع صوت المفتش وبدا غاضباً: «هناك مذكرة بحق ولدك، إنها جريمة قتل، سنجده حتى في فارس».

«سأُسر لذلك كثيراً، فستبرِّئ أية محكمة ساحة ولدي. كان ذلك دفاعاً عن النفس. إنه أكثر من مُبرر نظراً لما حدث قبل ذلك... إضافة إلى ذلك...».

سمعت حفيف مُذكرة نظيفة وهشة أو ربما هذا ما ظننت أنني سمعته. وتبع ذلك هدوء، ومن ثم ارتفع صوت المفتش: «أوه، حسناً، هؤلاء الشبان، يسرعون بتجريد خناجرهم. أنا مجرد خادم للدولة، ولكنني أتفهم الموضوع. على ولدك الشاب ألا يظهر نفسه في المدينة، لكن المذكرة ستذهب إلى فارس». تلاشى وقع الخطوات، ثم ساد الصمت ثانية. كانت الكتابات الزخرفية على البساط تبدو أشبه بالمتاهة وتابعتْ عيناي خطوط الأحرف إلى أن تهتُ في الدوامة الجميلة لحرف النون. كانت الوجوه تنحني فوقي والشفاه تنطق بكلمات لم أفهمها. ثم جلست على السرير ووقف إلياس بيغ ومحمد حيدر قربي، وكانا يرتديان ثياب الحرب ويبتسمان: «أتينا لوداعك فقد تم فرزنا إلى الجبهة».

«لماذا»؟

التقطَ إلياس بيغ خرطوشه وقال: «اصطحبت نينو إلى المنزل، ولم تنطق بأية كلمة؛ ثم ذهبت إلى الثكنة، وبعد عدة ساعات عرف الجميع كل شيء. أغلق القائد ميليكوف بابه على نفسه وسكر حتى الثمالة. لم يعد يرغب برؤية ذلك الحصان ثانية، وفي المساء أمر بإطلاق النار عليه، ثم تطوع في الجبهة. لقد تدبر والدي أمر المحكمة العسكرية، وتم فرزنا إلى الجبهة، مباشرةً وإلى الصفوف الأمامية».

«سامحاني، إنها غلطتي»

احتج كلاهما بحماس: «لا، أنت بطل. لقد قمت بما ينبغي على الرجل فعله. نحن فخوران جداً بك».

«هل رأيتم نينو؟»

وقفا هناك بوجوه متصلبة: «لا، لم نرَ نينو». كان صوتاهما بارداً. ثم تعانقنا: «لا تشعر بالحزن لأجلنا. سنتدبر أمرنا، صفوف أمامية أم غير أمامية». تبادلنا الابتسامة، فالتحية، ثم أُغلقَ الباب.

استلقيتُ ثانية على وسادتي وأنا أنظر إلى الأشكال الحمراء في البساط، يا لأصدقائي المساكين، إنها غلطتي. ثم غرقتُ في أحلام يقظة غريبة، فاختفى الحاضر ورفرف وجه نينو في السديم، فكان يضحك تارة، ويصبح جدياً تارة أخرى. لمستني أيادٍ غريبة، ثم قال أحدهم باللغة الفارسية: «يجب أن يتناول بعض الحشيش، إنه جيد جداً للوعي». وضع أحدهم المبسم الكهرماني في فمي. ثم سمعت كلماتٍ كما لو أنها آتية من أحلامي ، وأنا أستيقظ: «أيها الخان العزيز، أليس ذلك فظيعاً. إن ما حصل لأمر رهيب. أظن أنه من الأفضل لو لحقت ابنتي بابنك، عليهما أن يتزوجا في الحال».

«إن علي خان لا يستطيع الزواج الآن أيها الأمير، فهو كانلي ومعرض لعداء الدم من عائلة ناتشاراريان. لقد أرسلته إلى فارس؛ إنه عرضة للخطر في كل ساعة من حياته وهو ليس بالزوج المناسب لابنتك».

«أتوسل اليك يا سفر خان. سنحمي الأولاد. عليهما الذهاب بعيداً إلى الهند أو إسبانيا. لقد أصاب العار ابنتي ولن ينقذها سوى الزواج».

«إنها ليست غلطة علي خان أيها الأمير، وعلى أية حال، أنا واثق أنها ستجد أحد الروس أو حتى أحد الأرمن».

«ولكن أرجوك! لقد كانت مجرد نزهة مسائية لا تؤذي أحداً. ويمكن تفهُّمها في هذا الحر. لقد تسرع ولدك وأخطأ بشكه. عليه أن يعدل عن رأيه».

«مهما يكن الأمر، أصبح علي خان كانلي ولا يستطيع الزواج».

«أنا أب أيضاً سفر خان».

توقفت الأصوات وصار كل شيء هادئاً ثانية. كانت حبات الحشيش دائرية وتبدو كالنمل. أخيراً، فُكَّتْ ضماداتي وشعرت بأثر الندبة، أول ندبة مُشرِّفة على جسمي، ثم نهضتُ ومشيتُ في الغرفة بخطوات مترددة. نظر الخدم إليَّ بخجل وبعيون خائفة. ثم فُتح الباب ودخل والدي، فتسارعت نبضات قلبي بعنف، واختفى الخدم. صمتَ والدي لبعض الوقت وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم جيئة وذهاباً، ثم توقف: «الشرطة تأتي كل يوم، ليس فقط الشرطة، بل إن عائلة ناتشاراريان تبحث عنك في كل مكان، كما ذهب خمسة منهم إلى فارس. عليَّ أن آتي بعشرين رجلاً لحماية المنزل. وبالمناسبة لقد أعلنتْ عائلة ميليكوف عداء دم ضدك أيضاً بسبب الحصان، وأُرسل أصدقاؤك إلى الجبهة». خفضتُ بصري دون أن أجيب، فوضعَ والدي يده على كتفي وقال برقة: «أنا فخور بك يا علي خان، فخور جداً. كنت سأفعل الشيء ذاته لو كنت مكانك».

«هل أنت راضٍ يا والدي؟»

«تقريباً، هناك فقط أمر واحد». عانقني ونظر عميقاً في عيني: «لماذا عفوتَ عن المرأة؟»

«لا أدري يا والدي، كنت منهكاً».

«كان من الأفضل أن تفعلها يا ولدي. أما الآن فقد فات الأوان على ذلك. أنا لا ألومك، نحن جميعاً فخورون بك، العائلة بأسرها».

«وماذا الآن يا والدي».

ذرعَ أرض الغرفة جيئة وذهاباً ثانية وتنهَّد بحيرة: «حسناً، أنت لا تستطيع البقاء هنا، كما لا تستطيع الذهاب إلى فارس، فالشرطة وعائلتان متنفذتان يبحثون عنك. أفضل شيء هو الذهاب إلى داغستان. لن يجدك أحد في الآوِلْ، فلا الأرمن ولا الشرطة يجرؤون على الذهاب إلى هناك».

«إلى متى يا والدي؟»

«لوقت طويل جداً، حتى تنسى الشرطة الأمر ويتصالح أعداؤك معنا. سآتي لرؤيتك».

رحلتُ في الليل باتجاه (ماشاتشه كاله) ومن هناك صعدت إلى الجبال، حيث أقلتني أحصنة صغيرة لها عنق ذو شعر طويل، خلال الطرق الضيقة إلى الآوِلْ البعيدة جداً على حافة الهاوية السحيقة، وما زلت إلى الآن، أتمتع بحماية وأمان داغستان. قال الناس فيما بينهم «إنه كانلي»، ثم نظروا إليَّ بتفهم. مزجتْ أيادٍ حنونة الحشيش في التبغ الخاص بي. كنت أدخن كثيراً وألتزمُ الصمت معذباً بالرؤى. كان كازي ملا، صديق والدي الذي ألقى عليَّ ظلال حمايته، يتكلم كثيراً. كما كانت شظايا كلماته تمزق أحلامي المتقدة التي أخذتني المرة تلو المرة إلى الطريق المقمر: «لا تحلم يا علي خان، لا تفكر. اسمعني، هل سمعت بقصة أندالال؟».

«أندالال؟»، قلت بتبلد.

«هل تعرف ما هي أندالال؟ كانت قرية جميلة حكمها منذ ستمئة عام أمير صالح، ذكي وشجاع. لكن الفضائل الكثيرة كانت أكثر مما يستطيع الناس التعامل معها. وفي أحد الأيام، مَثُلَ الناس أمامه وقالوا له: «لقد سئمنا منك. ارحل عنا». بكى الأمير ثم امتطى حصانه وودع أسرته واتجه بعيداً نحو فارس حيث أصبح رجلاً عظيماً. جعله الشاه مستشاراً له، وكان ينفِّذ

كل ما يقول له. احتل مدناً وبلاداً كثيرة ولكنه ما فتئ يشعر بالمرارة بخصوص أندالال. ولذلك أخبرَ الشاه: «في وديان أندالال كنوز عظيمة من الذهب والمجوهرات، سنحتل أندالال». فقاد الشاه جيشه العظيم باتجاه الجبال. قال شعب أندالال: «هناك العديد منكم ولكنكم في الأسفل وهناك القلة منا ولكننا في الأعلى. لكن الله أعلى وهو واحد وأقوى منا جميعاً». وهكذا قاتل شعب أندالال رجالاً ونساء وأطفالاً، وكان في الصفوف الأولى أبناء الأمير الذين بقوا في أندالال عندما رحل والدهم. هُزمَ الفرس وكان الشاه أول من هرب، بينما كان الخائن آخر من هرب. مضت عشر سنوات وكبر الأمير ولكنه اشتاق إلى موطنه، فترك قصر الشاه واتجه إلى بلاده. تعرّفَ الناس على الخائن الذي قاد العدو إلى وديانهم، فبصقوا عليه وأغلقوا أبوابهم. سار الأمير طوال اليوم في القرية لكنه لم يعثر على صديق واحد. ذهب أخيراً إلى القاضي وقال له: لقد عدت إلى موطني لأكفِّر عما اقترفته يداي. احكم علي بما يمليه القانون. قال القاضي: «أوثقوه». ثم أعلن: «تقضي قوانين بلادنا بأن يحرق هذا الرجل حياً». صرخ الناس: «فليكن ذلك». لكن القاضي كان رجلاً عادلاً، فسأل الأمير: «ماذا تقول في الدفاع عن نفسك؟». أجاب الأمير: «لا شيء، أنا مذنب. أرى أن قوانين آبائنا تحترم هنا وهذا أمر حسن. لكن هناك أيضاً قانون يقول بأنه يتوجب قتل من يقاتل ضد والده، وقد قاتل أبنائي ضدي، ولذلك يتوجب قطع رؤوسهم فوق قبري». «فليكن»، قال القاضي. بكى جميع الناس بمرارة لأنهم كانوا يكنون احتراماً شديداً لأبناء الأمير، لكن يجب أن يطبق القانون. وهكذا أحرقوا الخائن حياً وقطعوا رؤوس أولاده، الأكثر شجاعة في البلاد، فوق قبره.

تذمَّرتُ قائلاً: «هذا هراء وسخافة. أهذه أفضل قصصك؟ إن بطلك هو آخر من في البلاد وقد مات منذ ستمئة عام، وفوق هذا كله فهو خائن».

تنشّق كازي مُلّا الهواء وجُرحتْ مشاعره: «هل سمعت بالإمام شامل؟»

«أعرف كل شيء عن الإمام شامل».

«حدث ذلك منذ خمسين عاماً. كان الناس سعداء تحت حكم شامل. لم يكن هناك خمرٌ ولا تبغٌ. وكانت تقطع يد اللص عندما يتم القبض عليه. ولم تكن هناك إلا القلة النادرة من اللصوص. تغير ذلك كله عندما أتى الروس. ظهر حينها النبي للإمام شامل وأمره بأن يبدأ الغزوات. كان جميع سكان الجبال ومن بينهم الشيشان مرتبطين بشامل بأيمانات غليظة. لكن الروس كانوا أقوياء، فهددوا الشيشان وأحرقوا قراهم ودمروا حقولهم. ذهب رجال القرية الحكماء إلى منزل الإمام في دارغو ليرجوه أن يُحِلَّهم من وثاقهم. ولكنهم لم يستطيعوا أن يحدِّثوه عما في قلوبهم عندما أتوا لمواجهته، فذهبوا بدلاً من ذلك إلى والدةِ الإمام التي بكتْ عندما حدثوها عن أحزان الشيشان. «سأتحدث إلى الإمام من أجلكم»، قالت لهم. كان الإمام ولداً صالحاً، وكان تأثير والدته عليه عظيماً، وقد قال ذات مرة: «فلتحل اللعنة على من يسبب الأحزان لوالدته». عندما تحدثت الخانم مع ولدها قال: «القرآن يمنع الخيانة كما يمنع الولد أن يعارض أمه. لا تكفي حكمتي لحل هذه المشكلة، سأصوم وأصلي حتى يُنير الله بصيرتي». صام الإمام ثلاثة أيام وليالٍ، ثم ظهر أمام الناس وقال: «قد أنار الله بصيرتي، وأمرني بتطبيق هذا القانون: سيُحكم على أول من تحدثَ إليَّ عن الخيانة بمئة جلدة. كانت والدتي الخانم أول من تحدث معي عن الخيانة، ولذلك أحكم عليها بمئة جلدة». أحضَروا الخانم، وشق المحاربون حجابها وطرحوها أرضاً على درج المسجد ورفعوا القضيب، ولكنها لم تتلقَّ سوى جلدة واحدة، فقد سقط الإمام على ركبتيه وبكى ثم صاح قائلاً: «لا يمكن كسر قوانين الله العظيم، لا يمكن لأحد إلغاؤها حتى أنا، لكن القرآن يسمح للأولاد بأن يتلقوا العقوبة بالنيابة عن الأهل. لذلك، سأتلقى بقية العقوبة بدلاً عن والدتي». خلع الإمام ثوبه ووضعه على درج المسجد ثم صاح: «اجلدوني الآن، وبصفتي إمامكم، سأقطع رؤوسكم أذا شعرت بأنكم لا تضربون بكل

قوتكم». عانى الإمام التسع وتسعين ضربة، فقبع هناك وهو يستحم بالدم وقد بُلِيَ جلده. شعر الناس الذين شاهدوا ذلك بالخوف، ولم يجرؤ أحدٌ بعدها على التحدث عن الخيانة ثانية. هكذا كانت الجبال تُحكم منذ خمسين عاماً وكان الجميع سعداء». لزمتُ الصمت.

اختفى الصقر من السماء وحلَّ الغروب، فظهر الملا على مئذنة الجامع الصغير. فَرَدَ كازي مُلّا سجادة الصلاة فصلينا وقد توجهنا نحو مكة. بدا وقع الصلاة العربية كأغاني الحرب القديمة. «إذهبْ الآن يا كازي ملا، أنت صديق، سأنام الآن». نظرَ إليّ بريبة، ثم تنهد ومزج حبات الحشيش. وعندما خرج سمعته يقول لأحد الجيران: «كانلي مريض جداً». أجابه جاره: «لا أحد يمرض طويلاً في داغستان».

19

مشى رتلٌ من النساء والأطفال خلال الجبال وقد تجعدت وجوههم وبدت تعبة. مشوا لمسافات طويلة جداً، وقد حملوا بأيديهم حقائب صغيرة مُلِئتْ بالتراب والسماد. أمسكوا هذه الأحمال الثقيلة بإحكام وكأنها كنز ذهبي. وكانوا قد جلبوها من القرى البعيدة، وحصلوا عليها بمبادلتها بالغنم والنقود الفضية وقطع القماش التي حيكت يدوياً. والآن، سينثرون هذا التراب العزيز الذي ابتاعوه على الصخور الجرداء لتتمكن الأرض الفقيرة من إنتاج الذرة لإطعام الناس. كانت الحقول معلقة على منحدر فوق الهاوية، فحزم الرجال أنفسهم بسلسلة انزلقوا عليها للأسفل باتجاه منبسط الدرج الصغير لينثروا التراب الجديد فوق الأرض الصخرية. شُيِّدَ جدارٌ قاسٍ فوق حقل المستقبل لحمايته من الرياح وانهيار الصخور. كان الحقل ذو الثلاث خطوات طولاً وأربع خطوات عرضاً من أثمن ممتلكات أهل الجبل. يذهب الرجال كل صباح إلى الحقول ويتلون دعاء طويلاً وعندها فقط ينحنون فوق الأرض الطيبة. وعندما تشتد الرياح، تحضر النساء البطانيات لتغطية الأرض العزيزة. وكن يداعبن البذور بأصابع سمراء نحيلة ومن ثم يقطعن ورق العشب بمناجل صغيرة، وفيما بعد يطحنَّ حبات الذرة ويخبزنها بشكل أرغفة مسطحة وطويلة. ويوضع في أول رغيف قطعة نقدية لتعبر عن شكر الناس لمعجزة البذور.

تمشيتُ بمحاذاة حائط إحدى الأراضي البالغة الصغر حيث كانت

الأغنام في الصخور العالية تتعثر بمشيتها. كان أحد المزارعين يعتمر قبعة مصنوعة من اللباد ويقود عربة صغيرة بعجلتين تصدران صريراً كبكاء الأطفال الرُّضّع. سمعتُ صوت الصرير حتى عندما كان بعيداً جداً. قلت له: «أخي الصغير، سأكتب لأحدهم في باكو كي يحضر لك بعض الشحم لمحور العجلات». ابتسم المزارع:

«أنا مجرد رجل بسيط، لِمَ عليَّ أن أخبئ نفسي؟ يستطيع الجميع سماع صوت عربتي وهي قادمة، ولذلك لا أشحم محور العجلات. الآبرك فقط هم من يفعل ذلك».

«الآبرك؟».

«نعم، الآبرك، المنبوذون».

«هل هناك الكثير منهم؟»

«هناك عدد كاف، إنهم من اللصوص والقتلة، بعضهم يقتل من أجل مصلحة الناس والبعض الآخر يقتل من أجل مصلحته هو، ولكن عليهم جميعاً أن يقسموا يميناً رهيباً»

«أي يمين؟»

أوقف المزارع عربته ونزل منها، ثم اتكأ على حائط حقله وأخرج من حقيبته قطعة من الجبنة وقسمها بأصابعه الطويلة وأعطاني نصفها. كان هناك شعر داكن على الكتلة الغروية، ولكنني أكلتها. «قسم الآبرك، ألا تعرفه؟ يتسلل الآبرك في منتصف الليل إلى المسجد ويقسم القسم التالي: «أقسم بحق هذا المكان المقدس الذي أبجّله بأن أصبح منبوذاً من الآن فصاعداً. سأريق الدماء البشرية ولن أرحم أحداً، سأشن الحرب على الجميع. أقسم أن أسرق كل ما هو عزيز على الناس كما سأسرق ضمائرهم وشرفهم. سأطعن الطفل على صدر أمه، سأحرق كوخ أفقر متسول وأجلب الأحزان إلى جميع

الأماكن التي يفرح فيها الرجال. فإن حنثت بقسمي أو تسلل الحب أو الرحمة إلى قلبي، فأرجو ألا أرى قبر والدي ثانية وألا يطفئ الماء ظمئي ولا الخبز جوعي وليطرح جسدي على الطريق لتتبرّز عليه الكلاب». كان صوت المزارع وقوراً وقد أدار وجهه باتجاه الشمس. كانت عيناه خضراوين عميقتين. «نعم»، قال المزارع، «هذا هو قسم الآبرك».

«من الذي يقسم هذا اليمين؟»

قال المزارع: «رجالٌ عانوا الكثير من الظلم»، ثم لزم الصمت. عدت إلى المنزل. بدت ساحة الآوِلْ المربعة كزهر الطاولة، وكانت الشمس تضربنا من الأعلى. ربما كنت أنا نفسي من الآبرك وقد أُكرِهت على اللجوء إلى الجبال البرّية؟ هل يتحتم عليَّ أن أقسم كلصوص داغستان هذا اليمين المتعطش للدماء؟ ماتزال الكلمات تطن في أذني وتغريني. ثم رأيت ثلاثة أحصنة غريبة مُسرَجةٍ أمام كوخي وكان لأحدهما لجام فضي. جلس على الشرفة فتىً بدين في السادسة عشرة من عمره يُعلّق خنجراً ذهبياً على خصره. لوَّحَ الفتى لي وضحك، لقد كان أرسلان آغا، أحد الفتيان في مدرستنا. يملك والد الفتى آبار نفط غنية، لكن الفتى لم يكن قوياً جداً، ولهذا كان غالباً ما يُرسل إلى ينابيع المياه المعدنية في كيسلوفودسك. كنت بالكاد أعرفه فهو أصغر مني بكثير، ولكنني عانقته كأخ ونحن هنا في هذه الجبال الموحشة. احمرَّ وجهه وهو يشعر بالفخر وقال: «كنت أمر في هذا الطريق عَرَضاً وأنا مع خدمي ففكرت بالمرور لأراك».

ربَتُّ على كتفه وقلت: «لتكن ضيفي يا أرسلان آغا، سنحتفل الليلة على شرف مدينتنا». ثم صرخت باتجاه الكوخ: «كازي ملا، جهز مأدبة، لدي ضيف من باكو». وبعد نصف ساعة، كان أرسلان آغا يجلس القرفصاء على الحصيرة، يأكل الخروف المحمر والكعك وقد غمره الفرح كلياً.

«كم أنا سعيد لرؤيتك علي خان، أنت تعيش كالأبطال في هذه القرية مختبئاً من عداء الدم. لكن لا تقلق فأنا لن أفشي سرك». لم أكن قلقاً على الإطلاق، فمن الواضح أن جميع من في باكو يعلم أين أنا.

«كيف وجدتني؟»

«لقد أخبرني سيد مصطفى عن مكانك. وجدتُ أن قريتك كانت على طريقي، فأخبرني بأن أنقل إليك تحياته».

«وإلى أين أنت ذاهب أرسلان آغا؟»

«الى كيسلوفودسك، وسيذهب هذان الخادمان معي».

«آه»، ابتسمتُ. كان أرسلان آغا يبدو بريئاً جداً. «قل لي أرسلان آغا، لمَ لم تذهب مباشرة بالقطار؟»

«حسناً، كنت أرغب بشم هواء الجبال. لقد نزلت في ماشاتش كاله وأخذت الطريق المباشر إلى كيسلوفودسك». ثم حشا فمه بأكمله بقطعة من الكعك ومضغها بسعادة.

«ولكن الطريق المباشر إلى كيسلوفودسك تبعد مسير ثلاثة أيام من هنا».

تظاهر أرسلان آغا بالدهشة: «حقاً، يبدو أنهم قدموا لي معلومات خاطئة. ولكنني سعيد، فعلى الأقل سُنحت لي الفرصة لرؤيتك. كان واضحاً تماماً أن هذا العفريت الصغير قد تحول عمداً عن الطريق المباشر ليخبر الجميع في المدينة أنه قد رآني. يبدو أنه قد أصبحت لي سمعة كبيرة في باكو. سكبتُ له الخمر فتجرعه بجرعات كبيرة. ثم اقترب مني وقال: «هل قتلت أحداً آخرَ منذ ذلك الحين؟ أرجوك أن تخبرني، فلن أشي بك».

«آه، طبعاً، قتلت نحو دزينة».

«أفعلت ذلك حقاً؟». كان مسروراً وتابع شرب الخمر، كما تابعت سكب الخمر له. «هل ستتزوج نينو؟ إنهم يراهنون على ذلك في المدينة بأسرها. الناس تقول إنك مازلت مغرماً بها». ثم ضحك بمرح وتابع الشرب: «أتعلم، لقد دُهشنا جميعاً، ولم نتحدث سوى بذلك الأمر لأسابيع وأسابيع».

«أحقاً لم تفعلوا سوى ذلك؟ حسناً، ما هي أخبار باكو يا أرسلان آغا؟»

«آه، باكو، لا شيء، هناك جريدة جديدة وقد أضرب عمالها. يقول أساتذتنا بأنك كنت دائماً مندفعاً جداً. ولكن قل لي، كيف عرفت بحق السماء؟».

«أرسلان العزيز، أيها الصديق العزيز، كفى أسئلة. إنه دوري الآن لأطرح الأسئلة. هل رأيت نينو، أو أحداً من عائلة ناتشاراريان، وماذا تقول عائلة الكيبياني؟» كاد الفتى المسكين أن يختنق وهو يمضغ الكعكة: «لكنني لا أعرف شيئاً، لا شيء على الإطلاق، لم أر أحداً، كنت بالكاد أخرج من المنزل».

«لماذا يا صديقي، هل كنت مريضاً؟»

«نعم، نعم، كنت مريضاً، مريضاً جداً. لقد أُصبتُ بالديفتريا. تصور ذلك، لقد أُكرِهت على أخذ ثلاث حقن شرجية في اليوم».

«من أجل الديفتريا؟»

«... نعم...».

«هيا استمر في الشرب أرسلان آغا، إنه مفيد جداً لك».

شرب الفتى فمِلْتُ باتجاهه وسألته: «صديقي العزيز، متى كانت آخر مرة نطقتَ بها بالحقيقة؟»

نظر إليَّ بعينين كبيرتين بريئتين وقال: «في المدرسة، عندما كنت أعرف

ما هو حاصل ضرب ثلاثة بثلاثة». جعل الخمر الحلو الفتى العزيز ثملاً للغاية. كان ما يزال فتياً جداً، ثم وصل إلى مرحلة الإجابة على أسئلتي تقريباً بشكلٍ صريح. لقد اعترف بأنه أتى إلى هنا بدافع الفضول، كما اعترف بأنه لم يُصَبْ مطلقاً بالديفتريا وأنه يعرف كل ما في باكو من إشاعات. «عائلة ناتشاراريان ستقتلك»، ثرثر بسعادة، «ولكنهم ينتظرون اللحظة المناسبة، فهم ليسوا في عجلة من أمرهم. لقد زرت عائلة كيبياني مرة أو مرتين، مَرِضَتْ نينو لفترة طويلة، ثم أخذوها إلى تفليس. لقد عادت الآن، رأيتها في حفلة النادي. أتعلم! إنها تشرب الخمر كما لو كان ماءً. كانت تضحك كل الوقت ولم ترقص سوى مع الروس. أراد والداها إرسالها إلى موسكو، لكنها لم ترغب بالذهاب. إنها تخرج كل يوم وجميع الروس مغرمون بها. أما إلياس بيغ فقد نال وساماً، وجُرح محمد حيدر. أُحرِقتْ ڤيلّا ناتشاراريان ويُقال إنها كانت فِعلَةُ أصدقائك. اقتنت نينو كلباً صغيراً وهي تضربه يومياً بلا رحمة. لا أحد يعلم ماذا أسمته، يقول البعض بأنها أسمته علي خان بينما يقول البعض الآخر بأنها أسمته ناتشاراريان. رأيت والدك أيضاً، وأخبرني بأنه سَيَلْكُم أذني إن تابعت نشر الإشاعات بهذه الكثرة. اشترت عائلة كيبياني عقاراً في تفليس وربما سيرحلون إلى هناك للأبد». ياله من شيء صغير مثير للشفقة.

«أرسلان آغا، ماذا سيكون مصيرك بحق السماء؟»

رد نظرتي وهو مخمور: «سأصبح ملكاً».

«ستصبح ماذا؟»

«أريد أن أصبح ملك بلد جميل ذي فرسان كثر».

«وماذا أيضاً؟»

«أن أموت»

«ولأجل ماذا؟»

«عندما أحتل مملكتي».

ضحكتُ، فجُرِحَ شعوره: «لقد أعطوني ثلاثة أيام احتجاز، يا له من خنزير».

«في المدرسة؟»

«نعم، خمن لماذا؟ فقط لأنني كتبت ثانية إلى الصحيفة عن الطريقة القاسية التي يعاملون بها الأطفال، يا إلهي لقد افتعلوا جلبةً لا داعي لها بخصوص ذلك»

«ولكن يا أرسلان، لا يوجد شخص محترم يكتب للصحف».

«بل يفعلون، وعندما أعود سأكتب شيئاً عنك، ولكن بدون ذكر الأسماء بالطبع، فأنا صديقك، وأنا أيضاً كتوم. سأكتب شيئاً كهذا: «الهرب من عداء الدم، عادة مؤسفة في بلدنا». ثم أنهى ما في الزجاجة وسقط على الحصيرة ونام على الفور. أتى خدمه ونظروا إليَّ بطريقة تنم على عدم الرضى وكأنما يرغبون بقول: عليك أن تخجل من نفسك يا علي خان لأنك جعلت الطفل المسكين ثملاً هكذا. ذهبتُ خارجاً إلى الليل. يا له من ولد فاسد وواش هذا الأرسلان آغا. من المؤكد أن نصف القصص التي رواها لي كانت أكاذيب. فلماذا تضرب نينو كلبها؟ الله أعلم ماذا تسمي كلبها الهجين!

صعدتُ باتجاه شوارع القرية وجلستُ على حافة الحقل. نظرت الصخور إليَّ بتجهم وهي تبدو قاتمة تحت ضوء القمر. هل تتذكر الصخورُ الماضي أو أحلام الرجال؟ كانت النجوم تلمع عالياً في السماء كأضواء باكو. شعّت الآلاف من الأضواء في الكون والتقت في عيني. جلست أنظر إلى السماء لمدة نصف ساعة أو أكثر وقد أُصبتُ بالدوار. فكرت: «إذاً هي ترقص مع الروس». وفجأة شعرت بالرغبة في العودة إلى المدينة لأكمل تلك

الليلة الشبحية. مرّتْ سحلية بجانبي وهي تصدر صوت حفيف فأمسكت بها. دقّت ضربات قلبها الصغير على يدي وقد خافت حتى الموت. داعبتُ الجلدَ الباردَ، فنظرت عينان صغيرتان إليَّ بقسوة ممزوجة بالخوف أو ربما بالحكمة. رفعت المخلوق الصغير نحو وجهي، كانت كالحجر الحي قديمة، بالية، ومغطاة بجلد جاف. قلت وقد فكرت بالكلب: «نينو، هل أضربك؟» ولكن كيف يضرب المرء سحلية؟ فجأة فتح الشيء الصغير فمه وبثانية واحدة أخرجت السحلية لساناً مدبباً وأخفته ثانية، كان اللسان صغيراً جداً وسريعاً جداً. فتحتُ يدي فذهبت السحلية. لم يكن هناك سوى حجارة قاتمة، فنهضتُ وعدتُ إلى الكوخ. كان أرسلان ما يزال نائماً على الأرض ورأسه مُلقى على ركبتي الخادم المخلص. ذهبتُ إلى السطح ودخّنت الحشيش حتى سمعت النداء للصلاة.

20

أنا نفسي لا أعلم كيف حصل ذلك. استيقظتُ ذات يوم لأجد نينو تقفُ أمامي. «أصبحتَ كسولاً يا علي خان»، قالت لي ثم جلست على حصيرتي، «وفوق ذلك فأنت تشخر، وهذا من الآداب السيئة».

«إن الحشيش في تبغي هو ما يجعلني أشخر»، قلت بكآبة.

أومأت نينو: «إذاً عليك أن تتوقف عن تدخين الحشيش».

«لماذا تضربين كلبك أيتها التعسة؟»

«الكلب! لقد أمسكته من ذنبه بيدي اليمنى وضربته على ظهره باليسرى حتى بكى».

«وماذا أسميته؟»

«دعوته كيليماندشارو»، قالت نينو برقة. فركتُ عيوني وفجأة، صار كل شيء واضحاً أمامي ثانية: ناتشاراريان، حصان كاراباخ، والطريق المقمر، ونينو في سرج سيد. صرختُ: «نينو». ثم قفزت: «كيف وصلت إلى هنا؟»

«لقد أخبرَ أرسلان جميع من في المدينة أنك تريد قتلي، ولذلك أتيت». مالتْ بوجهها نحوي وكانت عيناها مليئتين بالدموع: «علي خان، اشتقت

إليك بجنون». غرقت يدي في ظلمة شعرها، فقبلتها، وفتحت فمها وقد أسكرتني بدفئها. وضعتها على الحصيرة وبقبضة واحدة مزقت الحرير المورد الذي كان يغطيها. كان جلدها ناعماً ومعطراً، داعبتها بحنان فتنفست بثقل ونظرت إلى عيني. ارتجف ثديها الصغير بين يدي، عانقتها فتأوهت بتأثير عناقي الحميم. بدت أضلاعها الضيقة والصغيرة تحت جلدها، فوضعت وجهي على صدرها. «نينو» قلت هذه الكلمة وقد بدت وكأنها تملك قوى سحرية جعلت جميع العالم الملموس يختفي. لم يكن هناك سوى عينان جورجيتين كبيرتين ومبتلتين تعكسان كل شيء: الخوف والبهجة والفضول والألم العنيف المفاجئ. لم تبكِ ولكنها أمسكت بالغطاء فجأة وانسلت تحت الريش الناعم. خبأتْ وجهها في صدري وبدت كل حركة في جسدها النحيل وكأنها دعوة الأرض للوفاء بمباركتها للمطر. حركتُ الغطاء للأسفل بحنان، فتوقف الزمن...

استلقينا هناك بهدوء، متعبين وسعيدين. ثم قالت نينو: «سأذهب إلى المنزل الآن، فأنا أرى أنك لن تقتلني رغم كل شيء».

«هل أتيتِ إلى هنا بمفردك؟»

«لا، أحضرني سيد مصطفى. قال بأنه سيأخذني ويقتلني إن خذلتك. إنه جالس في الخارج ومسدسه جاهز، بإمكانك مناداته إن خذلتك». لم أنادِه بل قبلتها عوضاً عن ذلك.

«وهذا هو السبب الوحيد لمجيئك؟»

«لا»، أجابت بصراحة.

«أخبريني يا نينو».

«أخبرك ماذا؟»

«لماذا لزمت الصمت تلك الليلة، عندما جلست على سرج سيد».

«كان ذلك الكبرياء».

«ولماذا أنت هنا الآن؟»

«إنه الكبرياء أيضاً».

أمسكت يدها ولعبت بأصابعها الوردية: «وناتشاراريان؟»

«ناتشاراريان»، قالت ببطء، «عليك ألا تفكر بأنه اختطفني ضد إرادتي. كنت أعرف ما أفعله، واعتقدت أنه الصواب، ولكنه كان خطأً. كانت غلطتي وكنت أستحق الموت، ولذلك التزمت الصمت ولهذا أيضاً أنا هنا، والآن أنت تعرف كل شيء». قبّلت راحة كفها. لقد نطقت بالحقيقة مع أن الشخص الآخر قد مات ومع أن الحقيقة تشكل خطراً عليها.

نهضتْ ونظرتْ حول الغرفة ثم قالت بكآبة: «سأذهب إلى المنزل الآن، لستَ مضطراً للزواج بي، فأنا ذاهبة إلى موسكو». ذهبتُ إلى الباب وفتحته لدرجة تكفي لرؤية صديقي ذي الوجه المجدر وهو يجلس القرفصاء في الخارج والمسدس في يده، وقد عقد حزامه الأخضر بشدة حول معدته. ناديته: «سيد، أحضر الملا وشاهداً آخر، فأنا سأتزوج الآن».

أجاب سيد: «لن أدعو أي مُلّا، فقط شاهدين، سأزوجك بنفسي، لأنني مخول بذلك». كانت نينو تجلس في السرير وقد هوى شعرها على كتفيها. ضحكتْ وقالتْ: «علي خان، هل تدرك ما الذي تفعله، أنت تتزوج امرأة ساقطة».

استلقيت معها وجسدانا متلاصقان. سألتْ نينو: «أحقاً ترغب بالزواج بي؟»

«إن رضيتِ بذلك، فأنت تعلمين أنني أصبحت كانلي والأعداء يبحثون عني».

«أعلم ذلك، لكنهم لن يأتوا إلى هنا. سنبقى حيث نحن».

«نينو، هل تعنين أنك ستبقين معي هنا؟ في هذه القرية الجبلية، في هذا الكوخ، بدون أي خدم؟»

«نعم»، قالت نينو، «أريد أن أبقى هنا، لأنه يتحتم عليك البقاء هنا. سأقوم بأعمال المنزل، سأخبز الخبز وسأكون زوجة صالحة».

«ولن تشعري بالملل؟»

«كلا»، قالت ببساطة. «كيف سأشعر بالملل عندما نستلقي كلانا تحت غطاء واحد؟». دقَّ أحدهم على الباب، فلبست نينو مبذلي. دخل سيد مصطفى الذي كان قد عقد عمامته حديثاً وقدم الشاهدين. ثمّ جلس على الأرض وأخرج من حزامه قلماً وعلبة حبر نحاسية كتب عليها: «بحمد الله فقط». فَرَدَ سيد قطعة من الورق ووضعها على راحة كفه اليسرى ثم غمس قلم الخيزران في الحبر.

كتب سيد بشكل جميل: «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم التفت إليَّ وقال: «ما هو اسمك يا سيدي».

«علي خان شيرفانشير، ابن سفر خان، من عائلة شيرفانشير».

«ما هي ديانتك؟»

«مسلم شيعي، بتأويل الإمام جعفر».

«وما هي رغبتك؟»

«أن أعلن للملأ رغبتي بالزواج بهذه المرأة».

«ما هو اسمك يا سيدتي؟»

«الأميرة نينو كيبياني».

«ما هي ديانتك؟»

«روم أرثوذوكس»

«ما هي رغبتك؟»

«أن أكون زوجة هذا الرجل».

«هل ترغبين الاحتفاظ بديانتك أم ستتحولين إلى ديانة زوجك؟»

ترددتْ نينو لوهلة ثم رفعتْ رأسها وقالتْ بكبرياء وبدون تردد: «أرغب بالاحتفاظ بديانتي». كان سيد يكتب والورقة تنزلق فوق راحة يده، وهي تمتلئ تدريجياً بكتابة عربية مزخرفة وجميلة. أصبح عقد الزواج جاهزاً. «الآن، وقع هنا». وقعت اسمي.

«بأي اسم عليَّ أن أوقع»، سألت نينو.

«باسمك الجديد»

كتبت نينو بيد ثابتة: «نينو خانم شيرفانشير»، ثم وقع الشاهدان. أظهر سيد الختم الذي يحمل اسمه وضغطه على الورقة وقد طبعت عليه بالكتابة الكوفية الجميلة: «حافظ سيد مصطفى مشدي، عبد سيد العالم». ثم أعطاني الوثيقة وعانقني قائلاً بالفارسية: «أنا لست رجلاً صالحاً، علي خان، لكن أرسلان آغا أخبرني أنك بدون نينو ستدمر الجبال وتصبح سكيراً؛ إن هذا إثم. طلبت نينو مني إحضارها إلى هنا. عليك محبتها إن كان ما تقوله صحيحاً، وإن لم يكن كذلك فسنقتلها في الغد».

«لم يعد صحيحاً يا سيد، ومع ذلك فلن نقتلها».

نظر إليَّ محتاراً، ثم نظر حوله في الغرفة وضحك. وبعد ساعة احتفلنا برمي أنبوب الحشيش إلى الهاوية. وكان ذلك كل شيء فيما يتعلق بزواجنا.

بصورة غير متوقعة، أصبحت الحياة رائعة مرة أخرى. كانت القرية بأسرها تبتسم عندما كنت أمشي في الشارع وكنت أرد الابتسامة لأنني كنت سعيداً، بل أكثر سعادة من أي وقت مضى، وأتمنى قضاء حياتي كلها

هنا في فناء سطح المنزل وحيداً مع نينو التي تملك قدمين غاية في الصغر وترتدي كامل البنطال الداغستاني الأحمر المشرق، الضيّق عند الركبتين. لا يمكن لأحد أن يخمن بأنها قد اعتادت على نمط آخر من الحياة، أو أنها كانت تفكر أو تتصرف بطريقة مختلفة عن النسوة الأخريات في الآوِلْ. لم يكن لدى أحد في القرية أي خدم، ولهذا رفضت نينو أن يكون لها خدم. كانت تحضِّر الطعام، تتحدث مع النسوة الأخريات وتخبرني جميع شائعات القرية. كنت أركب الخيل وأصيد الطرائد وأقدمها لنينو لنأكل أغرب أنواع الأطعمة التي كان يبتكرها خيالها أو يطرحها تذوقها.

هكذا كانت تمضي أيامنا: في الصباح الباكر، كنت أراقب نينو تجري حافيةَ القدمين إلى النبع وهي تحمل إبريقاً خزفياً فارغاَ. ثم أراقبها تعود وهي تضع عقب قدميها الحافيتين بعناية على الصخور الحادة. كانت تحمل إبريق الماء على كتفها الأيمن وهي ممسكة به بإحكام بيديها النحيلتين. حدث مرة واحدة فقط أن تعثرت في أيامها الأولى وأوقعت الإبريق، فبكت بمرارة. كان ذلك مهيناً جداً، لكن النساء الأخريات واسينها. كانت نينو تذهب كل يوم مع جميع نساء القرية لإحضار الماء. كنَّ يمشين في طابور إلى أعلى الجبل. ومن بعيد كنت أستطيع رؤية ساقي نينو العاريتين وعينيها اللتين تنظران بجدية نحو الأمام. لم تكن لتنظر إليَّ كما كنت أتجاوزها بنظراتي. فقد فهِمتْ نينو مباشرة قوانين الجبال التي تنص على ألّا يُظهِر المرء مطلقاً محبته أمام الآخرين مهما كانت الظروف. ثم تأتي نينو إلى الكوخ المظلم، وتغلق الباب وتضع الإبريق أرضاً وتقدم لي كأساً من الماء وتحضر من الزاوية الخبز والجبن والعسل. كنا نأكل بأيدينا كجميع الناس في الآوِلْ. أتقنت نينو سريعاً فن جلوس القرفصاء الصعب. وعندما ننهي طعامنا، كانت تلعق أصابعها فتظهر أسنانها البيضاء المتلألئة. قالت لي: «تقتضي العادة هنا أن أغسل لك قدميك الآن، ولكن بما أننا وحدنا، وبما أنني ذهبت إلى النبع، فعليك أن

تغسل لي قدميّ». وضعتُ في الماء هاتين اللعبتين المضحكتين اللتين تسميهما بالقدمين؛ رشَّتْ بهما الماء، فطارت بعض القطرات إلى وجهي. كنا نجلس في فناء السطح، وكنت أستلقي على الوسادات بينما تستلقي نينو قرب قدمي تدندن بأغنية أو تنظر إلي. أما أنا فلم أتعب مطلقاً من النظر إلى وجه مادونتي نينو.

كانتْ تربض كل ليلة في السرير تحت الشراشف كالحيوان الصغير: «هل أنت سعيد، علي خان؟» سألتني ذات ليلة.

«سعيد جداً، وأنت؟ ألا زلت ترغبين بالعودة إلى باكو؟»

«أوه، كلا»، قالت بجدية، «أريد أن أثبت أنني أستطيع فعل ما تفعله جميع النساء الآسيويات: خِدمةُ زوجي».

وعندما يطفأ المصباح الزيتي، كانت تستلقي وهي تحدق في الظلمة وتفكر بأشياء هامة: هل عليها بالفعل وضع كل تلك الكمية من الثوم على الخروف المحمر؟ هل كانت ثمة علاقة غرامية بين الشاعر روستفيلي والملكة تامار؟ وما الذي سيحدث لو أصيبت فجأة بألم أسنان رهيب وهي تعيش في القرية؟ ولماذا برأيي ضربتْ المرأة في المنزل المجاور زوجها بعصا المكنسة بتلك القسوة الرهيبة؟ «الحياة مليئة بالغموض»، قالت بحزن، ثم غلبها النعاس. كانت تستيقظ في الليل فترتطم بمرفقي وتدمدم بفخر وغرور: «أنا نينو»، ثم تكمل نومها. كنت أغطي كتفيها النحيلين بالبطانية وأفكر: «نينو، أنت حقاً جديرة بحياة أفضل من هذه التي تعيشينها في هذه القرية الداغستانية».

ذهبتُ في أحد الأيام إلى أقرب مدينة صغيرة وكانت تدعى شنساش، وعدتُ محملاً بفاكهة الحضارة وبمصباح نفطي وغراموفون وشال حريري. أشرقَ وجه نينو حين رأت الغراموفون، ولكن من المؤسف أنني لم أجد في المدينة بأسرها سوى اسطوانتين إحداهما رقصة جبلية والأخرى لحن عايدة.

تابعنا سماعهما المرة تلو المرة حتى لم نعد نستطيع تفريق أحدهما عن الأخرى. أتانا القليل من أخبار باكو وبفترات متباعدة. كان والدا نينو يتضرعان إلينا للذهاب إلى مكان أكثر حضارة، ويهددانا أحياناً بلعننا. أتى والد نينو مرة واحدة فقط، وعندما رأى كيف تعيش ابنته، انفجر قائلاً: «بالله عليكما، ارحلا بعيداً في الحال. من المؤكد أن نينو ستمرض في هذه البرية».

«لم أشعر في حياتي أفضل مما أنا عليه الآن»، قالت نينو، «ألا تدرك يا أبي أننا لا نستطيع الرحيل، فأنا لا أريد أن أترمَّلَ منذ الآن».

«ولكن هناك بلدان محايدة، إسبانيا مثلاً. لا يستطيع أي ناتشاراريان الوصول اليكم هناك».

«ولكن يا أبي، كيف نصل إلى إسبانيا؟»

«عن طريق السويد».

«لن أذهب إلى السويد»، قالت نينو بغضب. عاد الأمير إلى باكو وبدأ بإرسال طرود شهرية من الملابس الداخلية النسائية والكعك والكتب. احتفظت نينو بالكتب وأعطت الباقي للآخرين. أتى والدي ذات مرة، فاستقبلته نينو بابتسامة خجلة، شبيهة بابتسامتها أيام المدرسة عندما كانت تواجه معادلة بعدة عوامل أجنبية. لكن المعادلة حلت سريعاً.

«هل تطبخين؟»

«أجل».

«وتحضرين الماء؟»

«أجل».

«لقد أتعبني الطريق الطويل، هل تغسلين قدمي؟»

أحضرت نينو إبريق الماء وغسلت قدميه.

«شكراً»، قال والدي وأخرج من جيبه صفاً من اللؤلؤ الزهري ووضعه حول عنق نينو. ثم تذوَّق الطعام الذي أعدته نينو وأطلق حكمه: «لديكَ زوجة صالحة يا علي خان، ولكنها طاهية سيئة، سأرسل لك طاهياً من باكو.

«أرجوك لا تفعل»، صاحت نينو، «أريد أن أخدم زوجي». ضحك والدي وأرسل لها زوجاً من الأقراط الألماسية الكبيرة.

كانت الأمور هادئة جداً في قريتنا، إذ لم يحدث سوى مرة أن أتى كازي مُلّا راكضاً ليخبرنا بالنبأ الكبير: لقد أمسكوا بأحد الغرباء المسلحين في ضواحي الآوِلْ، كان أرمنياً بلا ريب. اضطربت القرية بأكملها، فقد كنت ضيفهم، وسيكون موتي لطخة عارٍ لا تمحى على شرف الجميع. خرجتُ لألقي نظرة على الرجل، كان أرمنياً بحق، ولكن كان من الصعب التأكد بالطبع ما إذا كان من عائلة ناتشاراريان أم لا. عقد حكماء القرية اجتماعاً وتناقشوا بالأمر وقرروا منح الرجل مكاناً للاختباء ومن ثم تعقبه، فإن كان من عائلة ناتشاراريان فسيُحذِّر الآخرين، وإن لم يكن فسيعلم الله نيّات الرجل الطيبة ويغفر له.

في مكان ما على كوكب آخر، كانت هناك حرب تدور رحاها، لكن لم نكن نسمع أو نرى أي شيء منها. كانت جبالنا مليئة بالأساطير والحكايات الخرافية من زمن شامل. لم تأتِ أخبار الحرب إلينا مطلقاً، ولكن الأصدقاء كانوا يبعثون الينا بالجرائد من وقت لآخر، وكنت أرميها بعيداً من دون أن أقرأها. «هل مازلت تذكر أنه ما تزال هناك حرب مشتعلة؟»، سألت نينو ذات يوم. ضحكتُ وأجبت: «بصراحة يا نينو، لقد نسيت كل شيء عن الحرب». لا يمكن أن تكون هناك حياة أفضل من هذه التي أعيشها الآن، حتى لو كانت مجرد فاصل زمني بين الحاضر والماضي: هدية من الله إلى علي خان شيرفانشير أتت بمحض المصادفة.

ثم أتت الرسالة. أحضرَها إلى منزلنا راكبٌ منهكٌ على جوادٍ يثير عاصفة من الغبار. لم تكن من والدي ولا من سيد، بل كتب عليها: «من أرسلان آغا إلى علي خان».

«ماذا يمكن أن يريد؟» سألت نينو بدهشة.

قال راكب الخيل: «هناك رسائل كثيرة في طريقها إليك يا خان. لقد أعطاني أرسلان آغا الكثير من النقود لأنه أراد أن تصل رسالته قبل الجميع».

«هذه نهاية الحياة في الآوِلْ»، فكرت وأنا أفتح الرسالة، ثم قرأتها: «باسم الله أحييك علي خان. كيف أنت؟ وأحصنتك؟ وخمورك؟ والناس الذين تعيش معهم؟ أنا بخير وكذلك أحصنتي وخموري وناسي. اسمعني: حدثت أشياء هامة في مدينتنا، فالسجناء خرجوا من السجن وهم الآن يتجولون بحرية. أسمعك تسأل: أين الشرطة؟ انظر: الشرطة الآن حيث كان المساجين، في السجن قرب البحر. وماذا عن الجنود؟ لم يعد هناك من جنود أيضاً. أراك تهز برأسك يا صديقي وتتساءل كيف يسمح الحاكم بهذا؟ دعني أقلْ لك: البارحة قرر الحاكم العاقل الهرب، فقد تعب من حكم أناس سيئين هكذا، وترك وراءه زوجاً قديماً من السراويل وعقدة شريط القبعة. أنت الآن تضحك علي خان وتظن أنني أكذب، ولكن يا للمفاجأة فقد أتى الوقت الذي لا أكذب فيه. أستطيع سماعك تسأل: لماذا لا يرسل القيصر قوة شرطة جديدة وحاكماً جديداً؟ دعني أقول لك: لم يعد هناك من قيصر أيضاً. لا أدري ماذا يدعى هذا الشيء، ولكننا جَلَدنا المدير البارحة ولم يتدخل أحد. أنا صديقك، علي خان، ولذلك أود أن أكون أول من يخبرك كل ذلك، مع أن هناك أناساً كثيرين في المدينة يكتبون لك اليوم. هذا هو الوضع: ذهب جميع أفراد عائلة ناتشاراريان إلى بلدهم، ولم يعد هناك شرطة. السلام عليكم علي خان. أنا صديقك وخادمك أرسلان آغا».

نظرت عالياً، بدا وجه نينو شديد الشحوب. «علي خان»، قالت بصوت يرتجف، «الطريق أمان، سنذهب، سنذهب».

كررت هذه الكلمات المرة تلو الأخرى بنشوة غريبة. تعلّقتْ برقبتي ونشجت: «سنذهب»، وضربت بقدمها العارية وشماً على الرمال في الفناء. «نعم يا نينو، بالطبع سنذهب». كنت سعيداً وحزيناً في الوقت نفسه. لمعت الحجارة الجرداء بلون أصفر رائع، وكانت الأكواخ الصغيرة معلقة في الهاوية بشكل قعبري، بينما دعت المآذن الصغيرة بصمت للصلاة والتأمل. كان ذلك يومنا الأخير في الآوِلْ.

21

ظهر مزيج من تعابير الخوف والفرح على وجوه الحشود، وامتدت رايات قرمزية ذات شعارات فارغة من أحد جوانب الطريق إلى الجانب الآخر. اجتمعت نسوة السوق في الزوايا يطالبن بحرية هنود أمريكا أو رجال الغابات في أفريقيا. انقلبت مجريات الأحداث في الجبهة، فقد اختفى الدوق الكبير وبدأت مجموعات من الجنود ذوي الثياب الرثة بالتسكع في المدينة. كان هناك بعض حالات إطلاق النار في الليل، أما في الصباح فكانت الحشود تسطو على المتاجر.

انحنتْ نينو فوق الأطلس وقالت: «أبحثُ عن بلد يعيش بأمان». وتجاوزت أصابعها عدداً كبيراً من الحدود المتعددة الألوان.

«ربما موسكو أو بطرسبورغ»، قلت لها ساخراً. هزّتْ كتفيها، ثم اكتشفت أصابعها النرويج.

«أنا واثق أنه بلد آمن»، قلت لها، «ولكن كيف نصل إلى هناك؟»

«لن نصل»، تنهدت نينو. ثم قالت: «أمريكا؟»

«الغواصات الألمانية»، قلت لها مبتهجاً.

«الهند، إسبانيا، الصين، اليابان؟»

«إما أنهم يحاربون أو أننا لا نستطيع الوصول إلى هناك».

«علي خان، نحن عالقون في مصيدة فئران».

«أنت محقة تماماً يا نينو، لا فائدة من الهرب. علينا أن نجد طريقة نجعل فيها المدينة تفكر ببعض العقلانية، على الأقل حتى يأتي الأتراك».

«ما فائدة الزواج من بطل»، قالت نينو بملامة، «أنا لا أحب الرايات والشعارات والخطابات. إن استمر ذلك فسأذهب إلى عمك في فارس».

«لن يستمر ذلك»، قلت لها هذا وغادرت المنزل.

عُقد الاجتماع في الجمعية الخيرية الإسلامية. ولكن لم يكن بين الحضور أي من أولئك الرجال الأنيقون الذين اهتموا كثيراً بمصير شعبنا عندما تم الاجتماع في منزل والدي، بل ازدحمت الغرفة بالشبان ذوي العضلات المفتولة. التقيت عند الباب إلياس بيغ الذي عاد من الجبهة مع محمد حيدر. أَحَلَّهم تنازل القيصر عن العرش من قَسَمهم، وهكذا عادا وقد أصبحا أسمرين، فخورين وقويين. لقد أفادتهم الحرب، فقد بدت عليهما هيئة من ألقى نظرة خاطفة على عالم آخر وسوف يحملها في قلبه للأبد. قال إلياس بيغ: «علي خان، علينا أن نفعل شيئاً، العدو على بوابات المدينة».

«أجل، علينا الدفاع عن أنفسنا».

«كلا، بل علينا الهجوم». ثم صعد إلى المنصة وتكلم بصوتٍ عالٍ آمر: «أيها المسلمون! سأوضح وضع مدينتنا مرة أخرى. تمزقت الجبهة إلى فتات منذ بدأت الثورة(*). يعسكر الروس الفارون من الجندية من كل الأحزاب قرب باكو وهم مسلحون ويشتهون الغنائم. هناك تشكيلة مسلمة عسكرية وحيدة في المدينة، إنها تشكيلتنا «فرقة المتطوعين الوحشية». نحن أقل عدداً من الروس ولدينا عدد أقل من الأسلحة. أما التشكيلة العسكرية الثانية في مدينتنا فهي التشكيلة العسكرية للحزب الأرمني القومي داشناك تيتون ويقودها ستيبا ليلاي وأندرونيك وقد قدَّموا لنا اقتراحاً. إنهم يشكلون جيشاً

(*) المقصود الثورة البلشفية في روسيا عام 1917 .

مكوناً من الأرمن القاطنين هنا ويريدون أخذ هذا الجيش إلى كاراباخ وأرمينيا، وقد وافقنا على تشكيل هذا الجيش ورحيله إلى أرمينيا. لذلك سنبعث نحن والأرمن إنذاراً إلى الروس نطلب فيه ألا يمر أي جندي أو لاجئ روسي في مدينتنا. فإن رفض الروس إنذارنا فسنحصل نحن والأرمن معاً على مطالبنا بالطرق العسكرية. أيها المسلمون، انضموا إلى الفرقة الوحشية، احملوا أسلحتكم فالعدو على أبوابنا». استمعت وقد شممت رائحة الدم والحرب. كنت قد تدربت منذ عدة أيام على كيفية استعمال الرشاش على أرض العرض العسكري، والآن ستوضع معرفتي الجديدة قيد التنفيذ. كان محمد حيدر واقفاً بجانبي يلعب بحزام الخرطوش. التفتُّ إليه وقلت: «تعال إلى منزلي مع إلياس بيغ بعد الاجتماع، سيد مصطفى سيأتي أيضاً، يجب أن نتناقش في هذا الأمر». أومأ لي موافقاً فذهبت إلى المنزل.

قدم رفاقي وهم مسلحون، حتى سيد مصطفى وضع خنجراً في حزامه الأخضر. وأعدّت نينو الشاي. كان هناك صمت غريب بداخلنا. وبدت المدينة في عشية المعركة كئيبة وغير مألوفة. كان الناس مايزالون يجوبون الشوارع يقضون أعمالهم أو يتمشون، ولكن ذلك كله بدا غير حقيقي وزائفاً كما لو كانوا يشعرون بأنه الحياة ستغدو سخيفة عما قريب.

«ألديك عددٌ كاف من الأسلحة؟»، سأل إلياس بيغ.

«خمس بنادق، ثلاثة مسدسات، رشاش واحد وذخيرة، وهناك قبو للنساء والأطفال».

رفعت نينو رأسها وقالت بحزم: «لن أذهب إلى القبو، سأدافع عن بلدي معكم». بدا صوتها قاسياً وحازماً.

قال محمد حيدر بهدوء: «نينو، نحن سنطلق النار وأنت ستضمدين الجروح».

أحنتْ نينو رأسها وأرخت كتفيها: «يا الهي، ستصبح شوارعنا ساحة

معركة، وسيصبح المسرح المقر الرئيسي. قريباً سيغدو اجتياز شارع نيقولاي مستحيلاً كصعوبة الذهاب إلى الصين. علينا أن نغير سياستنا أو أن نمتلك جيشاً إذا أردنا الذهاب إلى معهد القديسة تامار. أستطيع أن أراكم تزحفون على بطونكم عبر حدائق الحاكم وأنتم مدججون بالسلاح، وسيكون هناك رشاشات في البحيرة التي اعتدنا أنا وعلي خان اللقاء فيها. نحن نعيش في مدينة غريبة».

«أنا واثق أنه لن يكون هناك قتال»، قال إلياس بيغ، «فالروس سيقبلون إنذارنا».

ضحك محمد حيدر ضحكة عريضة: «نسيتُ أن أخبركم أنني التقيت أسد الله وأنا في الطريق إلى هنا. قال بأن الروس قد رفضوا الإنذار وطلبوا بأن نسلم جميع أسلحتنا. لكنهم لن يحصلوا على سلاحي».

«إذاً هي الحرب علينا وعلى حلفائنا الأرمن»، قال إلياس بيغ.

كانت نينو صامتة وهي تنظر من النافذة. عدّلَ سيد مصطفى عمامته وقال: «الله الله، أنا لم أذهب إلى الجبهة كما أنني لست بذكاء علي خان، ولكنني أعرف القانون. إنه لأمر سيئ أن يعتمد المسلمون على ولاء الكفار في القتال. وعلى العموم فمن السيء الاعتماد على أي أحد. هذه هي القوانين وهذه هي الحياة. من هو قائد الفرق الأرمنية؟ ستيبا لالاي! أنا أعرفه. في عام 1905 قتل المسلمون والديه. كيف يستطيع نسيان أمر كهذا؟ كما أنني لا أصدق أن الأرمن سيقاتلون معنا ضد الروس. من هم هؤلاء الروس؟ إنهم مجرد لصوص رعاع وفوضويون. إن اسم قائدهم هو ستيبان شوميان وهو أرمني أيضاً. إن فرصة أن يصير الأرمن الفوضويين والأرمن القوميين أصدقاء أكبر من إمكانية أن يصير الأرمن القوميون والمسلمون القوميون أصدقاء. هذا هو سر روابط الدم. سيكون هناك صدع، كما هو مؤكد إن القرآن على صواب».

«سيد»، قالت نينو، «الأمر لا يتعلق فقط بالدم بل أيضاً بالمنطق. فإن انتصر الروس فلن يعاملوا ستيبا ليلاي وأندرونيك معاملة طيبة».

ضحك محمد حيدر بصوتٍ عالٍ وقال: «المعذرة يا أصدقاء، كنت فقط أفكر كيف سنعامل الأرمن لو ربحنا. وإن احتل الأتراك أرمينيا فأنتم بالطبع لا يمكنكم أن تتخيلوا أن ندافع عنها».

شعر إلياس بيغ بالسخط: «هذه ليست طريقة للتحدث أو حتى للتفكير، ستُحَل القضية الأرمنية ببساطة: ستهاجر كتيبة ليلاي إلى أرمينيا مع عائلاتهم. وبعد سنة من الآن لن يبقى أرمني واحد في باكو. سيكون لهم بلدهم ويكون لنا بلدنا. سنكون ببساطة شعبين يعيشان جنباً إلى جنب».

قلت له: «إلياس بيغ، سيد على حق، أنت تنسى سر رابطة الدم. لقد قتل المسلمون والدي ستيبا ليلاي، وسيكون وغداً إن نسي واجبه تجاه دمه».

قال إلياس بيغ: «أو سيكون سياسياً، يا علي خان، سياسياً يستطيع التحكم بنداء الدم لينقذ شعبه من أن ينزف حتى الموت. إن كان ذكياً، فسوف يقف بجانبنا، بجانب مصالح شعبه». تشاجرنا حتى حل المغيب، ثم قالت نينو: «سواء كنتم سياسيين أم مجرد رجال، أتمنى أن تكونوا جميعكم هنا سالمين ومعافين بعد أسبوع من الآن، لأنه إذا جرى قتال في المدينة...». ثم صمتت نينو.

استلقت نينو بجانبي في تلك الليلة ولكنها لم تنم. كانت شفتاها مفترقتين ورطبتين، وهي تحدق بصمت خلال النافذة. عانقتها فالتفتتْ إليَّ وسألتني: «هل ستقاتل يا علي خان؟»

«بالطبع يا نينو».

«نعم»، قالت نينو، «بالطبع». وفجأة أمسكتْ بوجهي بين يديها

وضغطته على صدرها وقبلتني بصمت وعيناها مفتوحتان على مداهما. ثم تملكتها عاطفة وحشية وضغطت نفسها باتجاهي وقد امتلأت بالرغبة والإذعان والخوف من الموت. بدا وجهها وكأنها في عالم آخر، عالم عليها أن تَلِجَهُ بمفردها. وفجأة استلقت على ظهرها وأمسكت برأسي ليصبح قريباً من عينيها وقالت برقة شديدة لدرجة أنني بالكاد سمعتها: «سنسمي الطفل علي». ثم لزمت الصمت ثانية والتفتت عيناها باتجاه النافذة. ارتفعت المئذنة القديمة برشاقة وعناية تحت ضوء القمر الشاحب. كان خيال حائط القلعة القديمة قاتماً ومهدداً. ومن بعيد سُمِع صوت حديد يدق فوق الحديد. كان أحدهم يشحذ خنجره وقد بدا وكأنه يطلق الوعود. ثم رن الهاتف، فنهضتُ وتعثرتُ في الظلمة. أتى صوت إلياس بيغ من خلال السماعة: «لقد انضم الأرمن إلى الروس وهم يطالبون المسلمين بإلقاء أسلحتهم في الثالثة بعد ظهر الغد كحد أقصى. رفضنا ذلك بالطبع، سيكون موقعك على الرشاش عند الحائط، يسار بوابة زيزياناشفيلي. سأرسل لك ثلاثين رجلاً آخرين، أَتمِمْ جميع الاستعدادات للدفاع عن البوابة». أغلقتُ السماعة. جلستْ نينو في الفراش وحدّقتْ بي. أخرجتُ خنجري وفحصتُ حافته الحادة.

«ما الأمر يا علي؟»

«العدو عند البوابة يا نينو». ارتديت ملابسي وناديت الخدم. أتوا وكانوا أقوياء، خُرقاء، وذوي أكتاف عريضة، فأعطيت كلاً منهم مسدساً، ثم نزلت إلى الأسفل لأرى والدي. كان واقفاً أمام المرآة والخادم ينظف معطفه الشركسي.

«أين موقعك يا علي؟»

«في بوابة زيزياناشفيلي».

«هذا جيد، سأكون في الجمعية الخيرية من ضمن الهيئة». ثم طقطق

سيفه ولمس شاربه بأصابعه. «كن شجاعاً يا علي، لا ينبغي للعدو أن يصل إلى البوابة. فإن وصل إلى الساحة خارج الحائط، استعمل رشاشك. أسد الله سيحضر الفلاحين من القرى وسيهاجم مؤخرة العدو في شارع نيقولاي». ثم وضع مسدسة في القراب وطرفت عينه بتعب: «سيبحر آخر قارب إلى فارس في الثامنة، على نينو أن تركبه بالتأكيد، فالروس سيغتصبون جميع النساء إن ربحوا».

عدتُ إلى الغرفة حيث كانت نينو تتحدث على الهاتف. سمعتها تقول: «لا يا ماما، سأبقى هنا، أنت تعرفين أنه ليس هناك من خطر حقيقي. شكراً بابا، لا تقلق، لدينا كفايتنا من الطعام. نعم شكراً لك، أرجوك لا تقلق، أنا لن آتي، لن آتي». رفعتْ صوتها عندما نطقت بالكلمة الأخيرة وكأنها بكاء. أغلقت السماعة، فقلت لها: «أنت محقة يا نينو، لن تكوني بأمان في منزل والديك أيضاً، سيغادر آخر مركب إلى فارس في الساعة الثامنة، وضّبي أغراضك».

احمر وجهها بشدة: «هل سترسلني بعيداً يا علي خان؟»

لم أر نينو تحمر هكذا في حياتي: «ستكونين بأمان في فارس يا نينو. إن انتصر العدو فسيغتصبون جميع النساء».

رفعتْ رأسها وقالت بتحدٍّ: «لن يغتصبوني يا علي خان، ليس أنا، لا تقلق».

«اذهبي إلى فارس يا نينو، أرجوك، ما زال هناك وقت».

«توقف عن ذلك»، قالت بقسوة، «علي، أنا خائفة للغاية من العدو، من المعركة، ومن جميع الأشياء الرهيبة التي ستحدث، ولكنني سأبقى هنا. أنا لا أستطيع مساعدتك ولكنني أنتمي إليك. يجب أن أبقى هنا وهذا كل ما في الأمر». قبّلتُ عينيها وشعرت بفخر شديد. إنها زوجة صالحة، حتى عندما تتحداني. غادرتُ المنزل، وقد كان الفجر ينبثق والغبار يتناثر في الهواء.

ربض خدمي خلف الفتحات في جدار القلعة، وقد جهزوا مسدساتهم. وراقب رجال إلياس بيغ الثلاثون ساحة الدوما الفارغة. قبعوا هناك بشواربهم السوداء ووجوههم السمراء خُرقاء صامتين ومتوترين. بدا الرشاش بفوهته الصغيرة أشبه بالأنف الروسي المتفاخر والعريض. لفّنا الهدوء، وركضت دوريات الاتصال من وقت لآخر بمحاذاة الحائط بهدوء وقد أحضروا برقيات قصيرة. وفي مكان ما، تابع الرجال المسنون ورجال الدين التفاوض آملين في حدوث معجزة المصالحة في آخر دقيقة.

أشرقت الشمس وانبعثت الحرارة من السماء الرصاصية لتغرق في الصخور. نظرتُ باتجاه منزلي، فرأيت نينو تجلي على السطح وقد أدارت وجهها باتجاه الشمس. أتتْ في منتصف النهار إلى الحائط وقد أحضرت الطعام والشراب. نظرتْ إلى الرشاش بفضول وخوف، ثم قبعتْ بصمتٍ في الظل إلى أن أرسلتُها إلى المنزل. أصبحت الساعة الآن الواحدة. أنشدَ سيد مصطفى من المئذنة صلواته الحزينة والوقورة، ثم انضم إلينا وقد جر بندقيته وراءه بطريقة غريبة، وكان قد أدخل القرآن في حزامه. نظرتُ بمحاذاة ساحة الدوما، خارج الجدار. كانت قلةٌ من الناس تسير مسرعة خلال الغبار وقد أخفضت أجسامها بقلق كما لو كانوا يخشون هجوماً مفاجئاً. وكانت امرأة محجبة تركض متعثرة خلف أبنائها الذين يلعبون في منتصف الساحة. واحد، اثنان، ثلاثة. هدرت أجراس ساحة المدينة لتكسر الصمت. وفي اللحظة ذاتها، كما لو كانت هذه الأجراس قد فتحت الباب بمعجزة نحو عالم آخر، سمعنا أولى الطلقات من ضواحي المدينة.

22

لم يظهر القمر في تلك الليلة. انزلق القارب الشراعي بهدوء فوق مياه بحر قزوين الباهتة. تناثرت فوقنا من وقت لآخر رغوة صغيرة من رذاذ المياه المالحة والمرة، وامتد الشراع الأسود فوقنا كطائر عملاق فارداً جناحيه. استلقيتُ على اللوح الخشبي الثقيل في القارب وقد لففت نفسي بجلد الغنم. أدار النوتي التاكيني وجهه العريض الأمرد نحو النجوم. رفعت رأسي وقد لامستْ يدي الفروَ المعقوص. سألت: «سيد مصطفى؟» فمالَ وجهه المجدر فوقي وقد انزلقت حبات السبحة الحمراء بين أصابعه كما لو كانت يداه المعتنى بهما تلعبان بقطرات الدم وقال: «أنا هنا علي خان، تمدد بهدوء». رأيتُ دموعاً في عينيه، فجلستُ وقلتُ له: «لقد مات محمد حيدر. رأيت جسده مُلقى في شارع نيقولاي، وقد قطعوا أنفه وأذنيه».

أدار سيد وجهه نحوي: «أتى الروس من بيلوف وحاصروا المتنزه، بعد أن ناوشتَهم أنتَ في ساحة الدوما».

«نعم»، لقد تذكرتُ، «ثم أعطى أسد الله الأمر بالهجوم فتقدمنا ونحن مسلحون بالحراب والخناجر، وقرأتَ أنتَ سورة ياسين».

«وشربتَ من دم العدو. أتعلم من كان يقف في زاوية آشوم؟ كان هناك جميع أفراد عائلة ناتشاراريان، لقد أبيدوا عن بكرة أبيهم».

«تمّت إبادتهم؟»، رددت ذلك، «كان لدي ثمانية رشاشات فوق سطح آشوم، كنا نسيطر على الحي بأكمله».

فَرَكَ سيد جبينه وبدا وجهه كما لو كان مغطى بالرماد. «استمرت جلجلة القتال هناك في الأعلى، وقال أحدهم أنك قد مت. سمعته نينو فلم تنطق بكلمة. جلستْ في غرفتها صامتة. ثم سُمع صوت قعقعة القتال، فغطّتْ وجهها بيديها وصرخت: «أوقفوا هذا، أوقفوا هذا، أوقفوا هذا». استمرَّ هدير الرشاشات ثم نفدتْ ذخيرتنا. لكن العدو لم يعرف ذلك، فظن بأنه فخ. لقد مات موسى ناجي أيضاً خنقاً بيَدَيَّ لالاي». لم يكن هناك من شيء أستطيع قوله. حدّق التاكي، ابن صحراء الرمال الحمراء، بالسماء وقد رفرف قفطانه الملون في النسيم. سألني سيد: «سمعت بأنك كنت في قلب المناوشات في بوابة زيزياناشفيلي، أكنت هناك بالفعل؟ أنا كنتُ عند الجانب الآخر من الحائط».

«أجل كنتُ هناك. وكانت هناك سترة من الجلد الأسود؛ ثقبتها بخنجري فانقلبت حمراء. لقد ماتت ابنة عمي عائشة أيضاً». بدا البحر كالمرآة وانبعثت رائحة القطران من القارب الذي لم يكن له اسم، وقد انطلق مبحراً في شواطئ صحراء الرمال الحمراء التي لا اسم لها. قال سيد برقّة: «وضعنا الأحجبة في ملابسنا، نحن أهل الجامع. ثم أخذنا خناجرنا وهاجمنا العدو. قتِلَ معظمنا، لكن الله لم يدعني أمتْ. إلياس حي أيضاً، إنه يختبئ في مكان ما في البلاد. يا للطريقة التي نهبوا بها منزلك! لم تبقَ سجادة واحدة ولا أية قطعة أثاث أو آنية فخارية. لم يبقَ سوى الجدران العارية». أغلقتُ عيني، كنت أتألم بحرقة. رأيت العربات وهي مكتظة بالأجساد الميتة، ونينو تحمل حزمة في الظلام على شاطئ بيبي إيبات المشبع بالنفط. ثم رأيت المركب والرجل من الصحراء. ونثر برج جزيرة نارجين أضواءه، في حين اختفت المدينة في الظلام، وبدت هياكل النفط السوداء كحارس سجن متجهم. والآن أنا مستلقٍ هنا وقد لففت نفسي بجلد الغنم والألم المبرح يمزق صدري. جلستُ. كانت نينو مستلقية في ظل قطعة صغيرة من قماش الشراع، وكان وجهها ضيقاً وشاحباً جداً. أمسكتُ بيدها الباردة وشعرتُ

بأصابعها ترتجف بعض الشيء. وقف والدي خلفنا بجوار النوتي، وسمعتُ جملة هنا وأخرى هناك: «... إذاً أنت حقاً تعتقد أن المرء يستطيع أن يغير لون عينيه ساعة يشاء في واحة تشاردشوي».

«نعم يا خان، هناك مكان واحد في العالم يستطيع المرء فيه فعل ذلك: إنه واحة تشاردشوي. لقد تنبأ رجل تقي...».

قلت: «نينو، إن والدي يناقش معجزات واحة تشاردشوي. هكذا يجب أن يكون المرء إن أراد العيش في هذا العالم».

«لا أستطيع»، قالت نينو، «لا أستطيع علي خان، لقد صار لون الغبار أحمر في الشوارع بسبب الدماء». ثم غطّت وجهها بيديها وبكتْ من دون أن تصدر صوتاً، وارتجف كتفاها. جلستُ قربها وفكرتُ في ساحة الدوما خارج الجدار العظيم وبجسد محمد حيدر الملقى في شارع نيقولاي، الشارع نفسه الذي كان يمشي فيه كل تلك السنوات في طريقه إلى المدرسة، كما فكرتُ في السترة الجلدية السوداء التي تحولت فجأة إلى اللون الأحمر. شعرت بالألم لبقائي حياً. بدا صوت والدي وكأنه قادم من بعيد: «هل توجد أفاعٍ في جزيرة تشيلكين؟».

«نعم يا خان، إنها سامة وطويلة للغاية... ولكن لم ترها عين بشرية. غير أن رجلاً تقياً من واحة ميرف قال ذات مرة...». لم أستطع احتمال ذلك أكثر فصعدتُ إلى عجلة القيادة وقلت: «أبي، ماتت آسيا ومات أصدقاؤنا، وأصبحنا منفيين وقد حل علينا غضب الله، وأنت تتحدث عن الأفاعي في جزيرة تشيلكين». كان وجه والدي هادئاً، فمال على الدقل(*) ونظر إليَّ مطولاً ثم قال: «لم تمت آسيا، بل تغيرت حدودها فقط، تغيرت للأبد. باكو الآن أوروبا ولم يحدث ذلك بمحض المصادفة، لم يعد هناك آسيويون في باكو».

(*) الدقل: صاري المركب. م.

«أبي، لقد دافعت عن آسيا بالرشاش والحربة والخنجر لمدة ثلاثة أيام».

«أنت رجل شجاع يا علي خان، ولكن ما هي الشجاعة؟ الأوروبيون شجعان أيضاً. أما أنت وجميع الرجال الذين قاتلوا معك، فلم تعودوا آسيويين. أنا لا أكره أوروبا، فهي لا تعنيني. أما أنت فتكرهها لأن هناك شيئاً أوروبياً في داخلك. لقد ذهبتَ إلى مدرسة روسية وتعلمت اللاتينية ولديك زوجة أوروبية، فكيف يمكنك أن تبقى آسيوياً؟ لو كنتَ قد انتصرتَ في هذه المعركة، لوجدت نفسك تقدم أوروبا إلى آسيا من دون أن تقصد أو تدرك ذلك. لا يهم ما إذا كنا نحن أم الروس من يبني المعامل والطرقات. لا يمكن للأمور أن تستمر كما كانت. أن تكون آسيوياً صالحاً، لا يعني أنه عليك قتل الكثير من الأعداء ولا يعني الرغبة الوحشية بالدماء».

«إذاً، ماذا يعني أن تكون آسيوياً صالحاً؟»

«أنت نصف أوروبي علي خان، ولهذا تسألني عن ذلك. لا أستطيع شرح الأمر لك لأنك لا ترى سوى الأشياء المنظورة في الحياة. أنت توجه وجهك نحو الأرض ولهذا تؤلمك هزيمتك، ولهذا أيضاً يظهر ذلك جلياً عليك». ثم لزمَ والدي الصمتَ وقد بدت عيناه منعزلتين. كان يعرف ما هو أبعد من هذا العالم الواقعي، كما كان كبقية أهل باكو وفارس المسنين، واعياً لعالم آخر يستطيع الانعزال فيه حيث لا يمكن الوصول إليه فيه. لم يكن لدي سوى شعور مبهم عن مملكة هذا العالم الآخر المسالم، الذي يجعل المرء قادراً على دفن الأصدقاء ويمكنه مع ذلك التحدث مع النوتي عن معجزات جزر تشاردشوي. طرقتُ باب هذا العالم ولكن لم يُسمح لي بالدخول، فقد كنتُ شديد الانهماك في واقعنا المؤلم. إذاً، لم أعد آسيوياً ولا يوجد من يلقي عليَّ بالملامة بسبب ذلك، كما بدا أن الجميع قد أدركوا ذلك. شعرتُ بالاشتياق للعودة إلى الوطن ثانية، إلى آسيا بلد الأحلام، ولكنني أصبحت

غريباً. وقفتُ وحيداً في القارب أنظر إلى المرآة السوداء: (البحر). مات محمد حيدر، ماتت عائشة، دُمِّرَ منزلنا، وأنا أبحر إلى بلاد الشاه، إلى الهدوء الكبير في فارس. فجأةً وقفت نينو بجانبي وقالت: «فارس، ما الذي ستفعله هناك؟»

«سنستريح».

«نعم، نستريح. أريد أن أنام يا علي خان لمدة شهر أو سنة. أريد أن أنام في حديقة مليئة بالأشجار الخضراء وحيث لا يوجد إطلاق نار».

«أنت ذاهبة إلى البلد المناسب لذلك، لقد نامت فارس لآلاف السنين ولم يحدث الكثير من إطلاق النار هناك». ذهبنا إلى ظهر المركب حيث نامت نينو في الحال. تمددتُ مستيقظاً لفترة طويلة وأنا أنظر إلى ظل سيد وهو يصلي وقطرات الدم في أصابعه. كان عارفاً بالعالم الخفي الذي يبدأ عندما يختفي الواقع. أشرقت الشمس وقبعت فارس خلفها. شعرنا بهوائها بينما كنا نأكل السمك ونشرب الماء وقد جلسنا فوق اللوح الخشبي الثقيل على القارب. كان التاكيني يتحدث مع والدي وينظر إليَّ بلا مبالاة وكأنني مجرد شيء.

في مساء اليوم الرابع رأينا شريطاً أصفر في الأفق، وقد بدا كغيمة ولكنه كان بلاد فارس. ثم توسع الشريط فرأيت أكواخاً طينيةً ومراسيَ فقيرة. كان ذلك انسلي، مرفأ الشاه. ألقينا المرساة على الرصيف البحري الخشبي العتيق، وقدِمَ إلينا رجل يرتدي معطفاً صباحياً وقد لمعت شارة الأسد الفضي على قبعته المصنوعة من جلد الغنم، وارتفعت الشمس المشرقة خلفه. مشى اثنان من الشرطة البحرية خلف الضابط بأقدامٍ عاريةٍ وأسمالٍ باليةٍ. نظر الضابط إلينا بعينين دائريتين كبيرتين وقال: «أرحِّبُ بكم كما يرحب الطفل بأول شعاعٍ شمسي في ليلة مولده. ألديكم وثائق؟»

قال والدي: «نحن عائلة الشيرفانشير».

«هل أسد السلطانة شيرفانشير الذي فُتِحت له بوابة الشاه الألماسية محظوظ لدرجة أن يكون له الدم نفسه الذي يجري في عروقكم».

«إنه أخي». ثم نزلنا من المركب فرافقنا الرجل، وعندما وصلنا إلى المخزن قال: «لقد توقع أسد السلطانة قدومكم فأرسل آلته التي هي أقوى من الأسد وأسرع من الأيل وأجمل من الصقر وأكثر أماناً من القلعة فوق الصخرة». انعطفنا نحو زاوية، حيث وقفتْ سيارة فورد كسيحة تلهث من الربو وقد رُتِّقتْ إطاراتها في أماكن عدّة. ركبنا، فبدأ المحرك بالارتجاف، وبدت عينا السائق تنظران خلال المسافات البعيدة كما لو كان كابتن باخرة تعمل على الخط في المحيط. لم تأخذ السيارة سوى نصف ساعة لتبدأ الإقلاع، ثم بدأنا رحلتنا إلى طهران من خلال مدينة رشت.

23

انسلي ـ رشت ـ الشوارع والقرى ونَفَس الصحراء الذي يحرقهم. ومن وقت لآخر كان (أبي جسيد) يظهر في الأفق وكأنه شبح، أبو جسيد، ماء الشيطان، سراب فارس. قادنا الطريق الكبير إلى رشت بمحاذاة قاع النهر. لكن لم يكن هناك من نهر، وكُسِيَ القاع بالطين. ولم تكن هناك من مياه تجري في أنهار فارس، بل برك وبريكات موحلة هنا وهناك. تقف الصخور على الشطآن الجافة وقد ألقتْ بظلالها على الرمل وبدت كعمالقة ما قبل التاريخ بمعدتها الكبيرة نعِسةً وقانعةً. ثم أتى صوت قافلة جمالٍ من بعيد. أبطأت سيارتنا، فاستطعنا رؤية الجمال تمشي بخطىً واسعة بمحاذاة سلسلة الجبال المنحدرة. مشى قائد القافلة في المقدمة حاملاً عصا في يده وقد تبعه رجال يلبسون الثياب السوداء. تابعت الجمال مسيرها بخطىً واسعة، قوية ومضطربة. رنَّتْ الأجراس الصغيرة المعلقة في رقابها ببطء مع كل خطوة، وتدلت أكياس طويلة وقاتمة من على جانبي ظهور الجمال. أكانوا يحملون الحرير من أصفهان، أم الصوف من جيلجان؟ توقفت السيارة. كان هناك مئة أو مئتا جثة معلّقة وقد لُفَّتْ بملاءات سوداء. تجاوزتنا الجمال كساقٍ في حقل ذرة لامستها الريح برفق. حملت القافلة أحمالها خلال الصحارى والجبال والوهج الأبيض في البادية القاسية، وخلال الواحات الخضراء والبحيرات الكبرى. سينخسُ الأجسادَ موظفون مدنيون ذوو طرابيش حمر ثم تتابع القافلة مسيرها ثانية باتجاه قبب مدينة كربلاء المقدسة. سيتوقفون قرب مدفن الشهيد حسين، وستحمِلُ أيادٍ حريصةٍ الأجسادَ إلى القبر الذي

حفر من أجلها، حيث توارى الثرى في رمال كربلاء إلى أن يُنفخ في البوق وتستيقظ من نومها. انحنينا لهم وغطيتا أعيننا بأيدينا وصحنا: «صلِّ من أجلنا في قبر القديس، فأجاب قائد القافلة: «نحن أنفسنا بحاجة للدعاء». ثم تابعت القافلة مسيرها بصمت كالخيال، كأبي جسيد، سراب الصحراء العظيمة...

سرنا في شوارع رشت حيث أخفت الغاباتُ والطينُ الأفقَ. يشعر المرء هنا وكأن قروناً طويلةً قد مرّت منذ أُنشئت هذه المدينة التي تبدو بيوتها الطينية في الأزقة الضيقة كما لو أنها خائفة من الامتدادات الواسعة. كان الطين والفحم المتوهج اللونين الوحيدين الموجودين. وكان كل شيء صغيراً، وربما خاضعاً للقَدَر بطريقة رمزية. ارتفع فجأة جامعٌ وسط الأكواخ، وارتدى الرجال على رؤوسهم الحليقة قبعات دائرية تبدو كاليقطينة. أما وجوههم فتبدو كالقناع. وانتشر الغبار والأوساخ في كل مكان، ليس لأن الفرس يحبون الغبار والأوساخ بشكل خاص وإنما لأنهم يتركون كل شيء كما هو لأنه سيتحول في النهاية إلى غبار. استرحنا في بيتٍ صغيرٍ للشاي، وقد انبعثت رائحة الحشيش من الغرفة. نظرَ الرجال في الغرفة إلى نينو نظرات جانبية، ووقف أحد الدراويش في الزاوية وقد لفَّ نفسه بالأسمال البالية فاتحاً فمه واللعاب يسيل من شفتيه، وكان يحمل في يديه زبدية من النحاس، وقد نظرَ إلى الجميع وإلى لا أحد، كما لو كان يصغي لحضورٍ غير مرئي أو ينتظر إشارة من ذلك الشيء غير المنظور، مُشيعاً صمتاً لا يحتمل. ثم قفز فجأة وفتح فمه ثم صاح: «أرى الشمس تشرق من الغرب»، فارتعدت الجموع. ثم وصَلتْ إلى الباب رسالة من الحاكم: «يأمر سعادته بحارس بسبب المرأة العارية». كان يعني نينو التي لم تكن ترتدي حجاباً. بقيتْ نينو هادئة لأنها لم تكن تتحدث الفارسية. قضينا الليلة في منزل الحاكم. في الصباح أسرجَ الحرس خيولهم ليرافقونا طوال الطريق إلى طهران لأن نينو رفضت ارتداء الحجاب، فهي بالتالي تعتبر عارية، ولكن الحراسة كان لها سبب آخر أيضاً،

ألا وهو وجود العصابات التي كانت تجوب البلاد. جَرَّتِ السيارة نفسها خلال الصحراء ببطء شيئاً فشيئاً. تجاوزنا منطقة كازفين بآثارها القديمة حيث جمع الشاه شابور جيوشه، وحيث عقد سيفيفيد جلسةً ضمّتْ الحواريين والفنانين ومن يحميهم.

التوى الطريق متعرجاً كالثعبان في الثمانين والسبعين والستين ميلاً التالية، ثم ظهرت بوابة طهران بآجرها الناعم المتعدد الألوان. وجثمت الأبراج الأربعة بقوة مواجهة الثلج في ديمافند البعيدة. والقنطرة السوداء العربية التي نقشت عليها كلمات حكيمة، نظرت إليَّ وكأنها عيون شيطان. تجول المتسولون متدروشين بأحزانهم المرعبة وقد استلقوا في الغبار تحت البوابة الكبيرة وهم يرتدون الأسمال البالية. امتدت إلينا أيديهم ذوات الأصابع الأرستقراطية النحيلة، وغنوا عن روائع مدينة طهران الملكية بأصوات نادبة وحزينة. أتوا منذ زمن بعيد إلى المدينة ذات القبب المتعددة وقد امتلؤوا بالآمال. أصبحوا الآن مغبرين وقد استلقوا في الغبار يغنون ألحاناً حزينة عن المدينة التي رفضتهم. وجدت السيارة الصغيرة طريقها خلال متاهة الأزقة عبر ساحة المدفع متجاوزة بوابة الألماس الملكية، ومن ثم خرجت ثانية إلى الشارع العريض في ضواحي شيرمان. كانت بوابة شيرمان مفتوحة على مصراعيها، وعندما دخلناها تنشقنا عطر الورود قادماً نحونا وكأنه غيمة، وبدا القرميد الأزرق على الحيطان وكأنه بارد وودود. تمشينا بسرعة خلال الحديقة حيث كانت النافورة تلقي بقطرات الماء الفضية إلى الهواء، وبدت الغرفة القاتمة بستائر النوافذ وكأنها بئر بارد. ارتمينا، نينو وأنا، على الوسادات الناعمة وغرِقنا في التو في سباتٍ لا ينتهي.

غفونا، ثم استيقظنا، ثم هجعنا، وحلمنا، ثم أكملنا نومنا. كان رائعاً أن نكون في هذه الغرفة الباردة بنوافذها ذات الستائر. غطى الأرضية عدد لا يحصى من الوسائد والحصائر، وسمعنا في نومنا صوت عندليب يغني. كان غريباً أن نهجع في هذا البيت الكبير بعيداً عن الخطر وعن حائط باكو

العتيق. مضت الساعات بهدوء، وتنهدت نينو من فترة لأخرى، وجلست بنعاس ثم رمت برأسها على معدتي، ورميت برأسي على الوسادات الناعمة المعطرة برائحة الحرملك الفارسي الذكية. شعرت بكسلٍ لا متناهٍ وعانيت لساعات من حكّةٍ في أنفي، ولكنني كنت متراخياً لدرجة أنني لم أرفع يدي لأحكه. توقف الحك أخيراً، وغرقت في النوم ثانية. وفجأة استيقظتْ نينو، ثم نهضتْ وقالت: «علي خان، أكاد أموت من الجوع». خرجنا إلى الحديقة حيث أزهرت شجيرات الورد حول نافورة الماء، ولامست أشجار السرو السماء. وهناك وقف طاووس بذيله الدائري، المتعدد الألوان، بلا حراكٍ وهو ينظرُ إلى غروب الشمس. ومن بعيد ارتفعت ذروة ديمافند مواجه شمس الغروب. صفقت بيدي، فأسرع إليَّ مخصي ذو وجه ينفح بالغرور، وتبعته امرأة تتعثر تحت ثقل السجادات والوسادات. جلسنا في ظل السرو، وأحضر المخصي الزبادي والماء ثم ملأ السجاد بأطباق المطبخ الفارسي الشهية. «حسناً، أظن أنني أفضل الأكل بيدي على سماع صوت الرشاش»، قالت نينو، ثم وضعت يدها اليسرى في زبدية الرز البخاري. بدا وجه المخصي مذهولاً من شدة الفزع ونظر بعيداً لئلا يرى خزي سيده. أوضحتُ لنينو كيفية أكل الرز في فارس وذلك باستعمال ثلاثة أصابع من اليد اليمنى. ضحكتْ للمرة الأولى منذ تركنا باكو، فشعرتُ بالهدوء والسكينة. كان رائعاً وجودنا في قصر شيرمان في بلاد الشاه الهادئة والمسالمة، بلاد الشعراء المخلصين والحكماء. فجأة سألتْ نينو: «أين عمك أسد السلاطنة وجميع حريمه؟»

«في قصره في المدينة على ما أعتقد ونساؤه الأربع معه. أما الحرملك؟ فهذا هو الحرملك، هذه الحديقة والغرف المحيطة بها».

ضحكتْ نينو: «إذاً أنا مسجونة في الحرملك رغم كل شيء، لقد فكرت بأن شيئاً كهذا سيحدث». أتى مخصي آخر عجوز ذو وجه نحيل

وسألنا إن كنا نرغب بأن يغني لنا، فرفضنا عرضه. طَوتْ ثلاث فتيات السجاجيد وأخذت المرأة العجوز بقايا الطعام. كما بدأ ولد صغير بإطعام الطاووس.

«من هؤلاء الناس يا علي خان؟»

«إنهم خدم».

«يا إلهي، كم خادماً لدينا هنا؟». لم أكن أعلم فناديت المخصي، ففكر بالأمر ملياً بينما كانت شفتاه تتحركان بصمت. وكانت النتيجة أن ثمانية وعشرين شخصاً يعنونَ بالحرملك.

«كم عدد النساء هنا؟»

«بقدر ما تريد يا خان. أما في الوقت الحاضر فلا يوجد سوى تلك التي تجلس بجوارك. ولكن لدينا الكثير من الغرف. أسد السلاطنة في المدينة مع نسائه، وهذا الحرملك لك». ثم جلس على وركه وتابع حديثه بكثير من الوقار: «اسمي جاهجا قولي، وأنا حارس شرفك يا خان، أستطيع القراءة والكتابة والحساب، أعرف كل شيء عن الإدارة وعن معاملة النساء، تستطيع الاعتماد علي. أرى أن هذه المرأة متوحشة ولكنني سأعلمها كيفية التصرف مع مرور الوقت. أخبرني عن موعد عادتها الشهرية لأستطيع تدوين ذلك عندي وتذكره. يجب أن أعلم ذلك لأستطيع الحكم على مزاجها، لأنني واثق أنها ستكون في مزاج متعكر. سأغسلها وأحلق لها بنفسي. أستطيع أن أرى أن لديها شعراً حتى تحت إبطها. إنه لأمر رهيب كيف تهمل بعض البلدان مسألة تثقيف نسائها. سأطلي أظافرها باللون الأحمر غداً وسوف أنظر في فمها قبل أن تذهب للنوم».

«يا للسماوات، ولم ذلك؟»

«أسنان النساء الفاسدة تؤدي إلى رائحة فم كريهة، لذلك عليَّ أن أرى أسنانها وأشم رائحة أنفاسها».

«بماذا يبرر هذا المخلوق؟»، سألت نينو.

«انه يزكّي طبيباً للأسنان، يبدو أنه شخص غريب الأطوار».

بدا صوتي وكأنني مُحرجٌ بعض الشيء. قلت للمخصي: «جاهجا قولي، أرى أنك شخص ذو خبرة ويعلم كل شيء عن الثقافة، لكن زوجتي حامل ويجب أن تُعامل بعناية شديدة، ولذلك سندع مسألة تثقيفها حتى تضع مولودها». شعرت بنفسي وقد احمر وجهي. كان صحيحاً أن نينو حامل، ومع ذلك فقد كذبت. «أنت حكيم جداً يا خان»، قال المخصي، «فالنساء الحوامل يتعلمن ببطء شديد. بالمناسبة، لدي دواء لجعل المولود ذكراً، ولكن...»، نظر إلى قوام نينو النحيل متفحصاً، «أعتقد أنه مازال لدينا الكثير من الوقت لذلك».

سمعت وقع العديد من الشباشب خارجاً على الشرفة، وتبادلت النسوة والمخصيون العديد من الإشارات الغريبة. خرج جاهجا قولي ثم عاد وقد طوى وجهه بجدية: «خان، إن المبجل، حافظ سيد مصطفى، العالِم يود رؤيتك. لم أكن لأجرؤ على إزعاجك وأنت تتمتع بحريمك ولكن سيد رجل علم من سلالة الرسول. إنه ينتظرك في الجناح الرئيسي». رفعت نينو رأسها عندما سمعت اسم سيد، فسألت: «سيد مصطفى؟ ادعه للدخول، سنحتسي الشاي سوية». نجتْ سمعة عائلة شيرفانشير من الدمار الكلي فقط لأن المخصي لا يفهم الروسية. إنه لأمر يفوق الخيال أن تستقبل زوجة الخان رجلاً آخر في الحرملك!! قلت بحرج وببعض الخجل: «لكن سيد لا يستطيع القدوم، فهنا الحرملك».

«أوه، كم لديهم عادات مضحكة هنا، حسناً سنراه في الخارج».

«نينو، أخشى أن... لا أدري كيف أشرح لك الأمر... أترين، الأمور مختلفة بعض الشيء هنا في فارس. ما أعنيه هو... إن سيد رجل، أليس كذلك؟»

فتحت نينو عينيها على مداها: «أتعني أنه لا ينبغي لسيد أن يراني، سيد نفسه الذي اصطحبني طيلة الطريق إلى داغستان؟»

«أخشى أن الأمر كذلك يا نينو، على الأقل في الوقت الراهن».

«حسناً»، قالت نينو فجأة ببرود، «من الأفضل أن تذهب الآن».

ذهبتُ مغتَمّاً، ثم جلستُ في المكتبة الكبيرة مع سيد واحتسينا الشاي. أخبرني عن عزمه على الذهاب إلى مشهد ليبقى هناك مع عمه الشهير حتى تتحرر باكو من الكفار، فوافقته على خطته الجيدة. كان سيد رجلاً مهذباً ولذلك لم يسأل عن نينو أو حتى يلفظ اسمها. فجأةً، فُتِحَ الباب، «مساء الخير يا سيد». كان صوت نينو ثابتاً، ولكنه يبدو مكتئباً. قفز سيد مصطفى وأظهر وجهه المجدر شيئاً كالذعر. جلست نينو على الحصيرة: «هل ترغب بفنجان آخر من الشاي؟». سمعنا من الرواق أصوات عدد لا يحصى من الشباشب تعدو جيئة وذهاباً. لقد انهار شرف عائلة شيرفانشير للأبد. احتاج سيد لبضعة دقائق ليتعافى من الرعب الذي تملّكه. قطبت نينو جبينها وقالت: «لم أشعر بالخوف من الرشاشات ولن أخاف من مخصييك». وهكذا جلسنا معاً لعدة ساعات لأن سيد لم يكن مجرد رجل مهذب، بل كان لبقاً أيضاً. وقبل أن نذهب للنوم، اقترب المخصي مني بِذُلّ وقال: «سيدي، عاقبني، كان يتوجب عليَّ مراقبتها. ولكن من كان يتوقع أنها بهذه الوحشية، يا لها من متوحشة، إنها غلطتي». عبر وجهه عن أعمق مشاعر تقريع الذات.

24

كان ذلك غريباً. عندما أُطلِقتْ آخر الرصاصات في شواطئ بيبي إيبات المشبعة بالنفط، ظننت أنني لن أعرف السعادة ثانية. لكنني الآن، وبعد أربعة أسابيع فقط قضيتها في حدائق شيرمان المعطرة شعرت بسلام تام. أحسست كما لو كنت في منزلي وعشت كالنبتة أتنشق الهواء البارد في هذا المكان الهادئ قرب طهران. لم أذهب إلى المدينة كثيراً، كنت أمضي إليها بين الفينة والأخرى لزيارة الأقارب وللتنزه في متاهة البازار الداكنة برفقة خدمي، حيث الأزقة الضيقة، والأكشاك التي تشبه الخيم، والأضواء التي تحترق في الزوايا المعتمة، والناس الذين يرتدون الثياب الواسعة والبناطيل العريضة والأسمال البالية. وكان البازار مغطى بسقف مقبب، كمظلة صُنعتْ من طين. بحثت عن الزهور والجوز والسجاد والمناديل والحرير والمجوهرات. وجدت أباريق بنمط ذهبي وقلادات وأساور قديمة مخرمة. كما وجدت عطوراً منتقاة بعناية ووسادات صُنعت من الجلد المغربي. انزلقت النقود الفضية الثقيلة إلى جيوب التجار. أصبح خدمي محملين بروائع الشرق التي ستكون جميعها لنينو. لا أستطيع تحمل رؤية وجهها مذعوراً هناك في حديقة الزهور. انحنت ظهور الخدم تحت وطأة أحمالهم. تابعت السّير، فرأيت في إحدى الزوايا من يبيع نسخاً من القرآن مجلدةً بجلدٍ ناعمٍ. كذلك شاهدت لوحات منمنمة: فتاة تجلس تحت شجرة سرو وبجانبها أمير بعينين لوزيتين، وملك يصطاد ورمح وأيل هارب. وطقطقت النقود الفضية

ثانية. وأبعد بقليل، انحنى تاجران حول طاولة منخفضة وقد أخذ أحدهما نقوداً معدنية كبيرة من جيبه وأعطاها للآخر الذي تفحصها بعناية وعضها ثم وزنها في قبانات صغيرة ومن ثم رمى بها في كيس كبير. ربما وضع التاجر يده في جيبه مئة مرة، ألف مرة، أو حتى عشرة آلاف مرة قبل أن يتم دفع الدين. كانت حركاته رصينة وجليلة. التجارة! ألم يكن محمد نفسه تاجراً؟

البازار متاهة. جلس حكيم في الكشك الذي يلي مكان التاجرين، وهو يقلب صفحات كتاب. بدا وجهه كصخرة كُسيتْ نُقوشها البالية بالطحالب. كانت أصابعه الطويلة والنحيلة طويلة الأُناة ودقيقة. فاحت من صفحاته الصفراء البالية رائحة زهور سيراس، وأغاني العنادل الفارسية، وألحان فرحة ورؤية العيون اللوزية والرموش الطويلة. قلّبتْ يدي الرجل العجوز الجميلة صفحات الكتاب بمحبة. سمعت همسات، صخباً، وصياحاً. وبدأت أُساومُ على سجادة قديمة ذات ألوان رقيقة من كرمان، فنينو تعشق الخطوط الملساء في حياكة هذه الحدائق. كان أحدهم يبيع بالقرب مني ماء الورد وزيت الورد. مُزجتْ آلاف من الورود معاً لتُكَوِّنَ قطرة ثمينة من زيت الورد، كما جمعت أزقة البازار الضيقة آلاف الناس، وكنت أرى نينو في مخيلتي وهي تنحني فوق زبدية صغيرة مليئة بزيت الورد.

شعر خدمي بالإنهاك، فقلت «خذوا كل هذه الأشياء بسرعة إلى شيمران، وسآتي فيما بعد». اختفى الخدم بين الجموع. انحنيت ودخلت خلال بابٍ منخفضٍ إلى صالة شاي فارسية مكتظة بالناس. جلس رجل ذو لحية حمراء في منتصف الصالة يقرأ بعينين شبه مغلقتين إحدى قصائد الحب التي نظمها حافظ. تنهد المستمعون وابتهجوا إلى أقصى حد. ثم قرأ الرجل من الجريدة: «اخترع أحدهم في أميركا آلة تستطيع إحضار الكلام إلى السامع. استقبل صاحب الجلالة الإمبراطورية، شاهنشاه، الذي يفوق بهاؤه الشمس وتصل أراضيه إلى الزهرة، وعرشه أعلى من العالم، استقبل في قصره

في باغاشاه الملك الذي يحكم إنكلترا في الوقت الحالي. وُلِدَ في اسبانيا طفل بثلاثة رؤوس وأربعة أرجل. اعتبر العامة ذلك نذير شؤم». طقطق لسان المستمعون بذهول. طوى ذو اللحية الحمراء جريدته. ثم سمعنا أغنية أخرى، وكانت هذه المرة عن الفارس رستم وولده سوراب. كنت بالكاد أستمع، وأنا أنظرُ إلى الشاي الذهبي الساخن: إن الأمور ليست كما ينبغي أن تكون.

كنت راضياً، فأنا في فارس أعيش في قصر. ولكن نينو تعيش في القصر نفسه وهي أبعد ما تكون عن الرضا. كانت سعيدة بالفعل في داغستان مع أنها اضطرت لتحمُّل كل منغصات الحياة في البرية. أما هنا، فلم تستطع أن تتأقلم مع الأتيكيت الفارسي. كانت تريد أن تمشي معي في الشوارع، مع أن الشرطة تمنع ذلك بشدة. فالرجل وزوجته لا يستطيعان الخروج سوية، كما لا يستطيعان استقبال الضيوف معاً. كانت تطلب مني أن أريها المدينة وتغضب عندما أحاول إقناعها بالعدول عن ذلك: «أتمنى أن أعرّفكِ على المدينة يا نينو ولكنني لا أستطيع إظهارك للناس». فتنظرُ إليَّ بعينيها الكبيرتين الداكنتين بملامة وحيرة. كيف أستطيع إفهامها أن زوجة الخان لا تستطيع المشي ببساطة في الشارع بلا حجاب؟ اشتريت لها أفخر أنواع الحجابات: «انظري نينو، كم هي جميلة، وكيف تحمي من الشمس والغبار، كم أتمنى أن أرتدي واحداً أنا أيضاً». كانت تبتسم بحزن وتضع الحجابات بعيداً: «إن تغطية وجه المرأة يحط من قدرها يا علي خان. سوف أحتقر نفسي إن ارتديتها». أظهرتُ لها قوانين الشرطة فمزقتها. أمرت بإحضار عربة مغلقة بنوافذ من الكريستال. أخذتها في جولة خلال المدينة، فشاهدتْ والدي في ساحة المدفع وأرادت أن تلقي عليه التحية. كان الأمر رهيباً واضطررت لشراء نصف البازار لمصالحتها... والآن، أجلسُ هنا وحيداً مع نفسي، أنظرُ في فنجان الشاي. تكاد نينو تموت من الأسى دون أن يكون بإمكاني مساعدتها. تريد التقاء زوجات وبنات المغتربين الأوروبيين، ولكن لا

فائدة من ذلك، فزوجة الخان لا يمكنها أن تختلط بنساء الكفار لأنهن سيشعرن بالأسف من أجلها لكونها مضطرة للعيش في الحرملك، وفي النهاية ستشعر هي نفسها أنها لن تستطيع احتمال الأمر أكثر من ذلك.

ذهبتْ منذ عدة أيام لرؤية عماتي وبناتهن ثم عادتْ وهي شديدة الذهول. صاحت بيأس: «علي خان، أردنَ أن يعرفنَ كم مرة في اليوم تشرفني بممارسة الحب معي. قلنَ لي بأنك معي على الدوام، فقد عرفن ذلك من أزواجهن، ولا يستطعن أن يتخيلن أننا نفعل أي شيء آخر. لقد قدّمن لي تعويذة ضد الشياطين وحجاباً يقيني بالتأكيد ضد أية منافسة. سألتني عمتك سلطانة خانم عما إذا كنتُ أشعر بالتعب من كوني زوجة وحيدة لرجل شاب. كما رغبن جميعهن في معرفة ما الذي أفعله لإبقائك بعيداً عن الصبية الراقصين. أرادت ابنة عمك سواتا أن تعرف إن كنت تعاني من مرضٍ قذر. قلن لي إنني أُحسد يا علي خان. شعرت وكأنهن يلقين بالقذارة فوقي». واسيتها بأفضل ما استطعت، لكنها جلست في الزاوية كطفلٍ خائفٍ واستمرت بالنظر فوق كتفها بذعر. استغرق الأمر وقتاً طويلاً لتهدأ.

بردَ الشاي. جلستُ هنا في صالة الشاي ليرى الناس أنني لا أقضي كل وقتي في الحرملك، فقضاء كل الوقت مع الزوجة يعتبر عادة سيئة. وبدأ أبناء عمي يمزحون معي منذ الآن بهذا الخصوص. للمرأة حق ببضعة ساعات من الرجل في اليوم فقط. ولكنني كل شيء بالنسبة لنينو: فأنا الجريدة والمسرح ودائرة المعارف والزوج. أنا كل ذلك معاً، ولهذا لا أستطيع أن أدعها تجلس في المنزل وحدها. ولهذا السبب أيضاً اشتريت كل البازار تقريباً لأن عمي أقام الليلة حفلة كبيرة على شرف والدي، سيحضرها أميرٌ إمبراطوري. وعلى نينو أن تبقى في المنزل وحيدةً لا رفيق لها سوى المخصي الذي يريد تثقيفها.

غادرتُ البازار وعدت إلى شيمران. جلستْ نينو في الصالة الكبيرة

المغطاة بالسجاد والبسط وهي مستغرقة في التفكير تنظر إلى جبال الأقراط والأساور والمناديل الحريرية والعطور. قبّلتني بصمت وبلطف، فغرق قلبي في اليأس. أحضر المخصي شربات(*) باردة ونظر إليَّ بطريقة تنم على عدم الموافقة، إذ لا ينبغي للرجل أن يدلل زوجته بهذه الطريقة. تبدأ الحياة في فارس ليلاً، فالنهار ثقيل الوطأة بالحر والتراب والغبار. أما عندما يخيم الظلام، فتنسل روح حياة جديدة إلى الناس فيصبح الفكر حراً وسهلاً وتنطلق الكلمات بطلاقة. وتبدأ طقوس فارس الغريبة المسماة تيشاشوت بالظهور. أحبُّ طريقة الحياة هذه وتعجبني، فهي مختلفة عنها في كل من باكو وداغستان وجورجيا. قدم حوذيا عمي الاحتفاليان في الساعة الثامنة إلى منزلنا. كان هناك اثنان منهما: واحد لوالدي والآخر لي، فهكذا يقتضي الأتكيكيت. وقف ثلاثة من الخدم أمام كل حوذي ومنادون وراكضون وهم يحملون مصابيح تلقي الضوء على الوجوه المحتفى بها. مهمة هؤلاء الرجال منذ كانوا صبية صغاراً هي الركض أمام العربة والصياح بطريقة تنم على الأهمية: «احذر». كانت الشوارع فارغة، ومع ذلك كان على الراكضين أن يتابعوا الصياح «احذر». لأن هذا أتيكيت أيضاً. سرنا في الأزقة الضيقة متجاوزين عدداً لا ينتهي من الحيطان الطينية الرمادية. قد يكون خلف تلك الحيطان أكواخ، قصور، أو ربما ثكنات ومكاتب. لكن الحيطان الطينية وحدها تواجه الشوارع لتحمي خصوصية الحياة الفارسية. بدت قبب البازار الدائرية في ضوء القمر الأبيض وكأنها عدد لا يحصى من لُعب البالونات جمعتها معاً يد خفية. توقفنا عند بوابة نحاسية مقوسة وجميلة نُصبتْ فوق حائطٍ عريضٍ. فتِحتْ البوابة ودخلنا إلى فناء القصر.

عندما كنت آتي بنفسي إلى هذا القصر في الأيام العادية، كان يقف

(*) شربات: لون من الطعام مرطب له طعم الفاكهة ويكون مجلداً بالألماس بدلاً من القشدة. (قاموس المغني الأكبر).

في البوابة رجل عجوز بمعطفٍ بالٍ، ولكن مدخل القصر غُطيَ الليلة بأكاليل الزهور والمصابيح الورقية، وانحنى ثمانية رجال عندما توقفت عربتنا. قُسِمَ فناء القصر الضخم إلى قسمين، ففي القسم الأول كان الحرملك حيث نافورةٌ للماء وغناء العندليب. وفي الجهة الخاصة بالرجال لم يكن هناك سوى بركة مستطيلة تسبح فيها الأسماك بكسل.

ترجلنا من العربة، فأتى عمي إلى الباب لاستقبالنا. غطّتْ يده الصغيرة وجهه عندما انحنى لنا ورافقنا إلى المنزل حيث يوجد في الصالة الكبيرة حيطان خشبية منقوشة وأعمدة مُذَهبة. كانت الصالة تعج بأناس يرتدون قبعات سوداء من جلد الغنم وعمائم وأثواباً عريضة صنعت من مادة رقيقة وقاتمة. جلس في وسط القاعة رجل مسن ذو أنف كبير معقوف وشعر رمادي وحاجبين كأجنحة الطيور. كان ذلك الرجل صاحب السمو، الأمير الإمبراطوري. وقف الجميع عندما دخلنا. حيينا الأمير أولاً ومن ثم بقية المدعوين قبل أن نغرق في الوسادات الناعمة، فتبعنا الآخرون. جلسنا صامتين لدقيقة أو أكثر، ثم وقفنا جميعنا وانحنيا ثانية لبعضنا بعض. أخيراً، جلسنا بشكل نهائي، وساد صمت مهيب. أحضر الخدم كؤوساً زرقاء باهتة من الشاي المعطر، ودارت في الغرفة سلال من الفواكه. كسر الأمير الإمبراطوري الصمت قائلاً: «سافرتُ بعيداً وأعرفُ بلاداً كثيرة ولكن لا يوجد في أي مكان دراق وخيار بجودة هذا الموجود في فارس». ثم قشَّرَ خيارة ورش عليها الملح وأكلها ببطء وبدت عيناه شديدتي الحزن.

قال عمي: «سموكم على حق. لقد سافرتُ إلى أوروبا ودهشتُ كم كانت فواكه الكفار صغيرة وبشعة».

«أشعر دوماً بالرضا عندما أعود إلى فارس»، قال رجل يمثل الإمبراطورية الفارسية في البلاطات الأوروبية. «لا شيء في هذه الأرض يجعلنا نحن

الفرس نشعر بالغيرة: يستطيع المرء حقاً أن يقول: هناك فقط الفرس والبرابرة في هذا العالم».

«ربما يستطيع المرء أن يعد بعض الهنود»، قال الأمير. «عندما كنت في الهند منذ بضع سنوات، التقيت بعض الناس المتحضرين الذين اقتربوا تقريباً من مستوى حضارتنا. ولكن من السهل أيضاً ارتكاب الخطأ، فقد عرفت هندياً كريم المنشأ واعتقدت أنه واحد منا ولكن اتضح في نهاية المطاف أنه بربري. لقد دعاني لتناول وجبة طعام في منزله، تصوروا أنه أكل الأوراق الخارجية للخس».

ذُعرنا عند سماعنا ذلك. وبصوت رقيق ومتعب قال الملا ذو الوجنتين الغائرتين والذي يرتدي عمامة ثقيلة: «الفرق بين الفرس وغير الفرس هو الآتي: نحن وحدنا من يقدر الجَمَال».

«صحيح، صحيح»، قال عمي. «فأنا أُفضل قصيدة جميلة على مصنع صاخب في أي وقت. كما أنني غفرت لأبي سيد هرطقته لأنه أول من قدم أجمل شكل من الأبيات إلى أدبنا ألا وهي الرباعيات».

تنحنح عمي ثم أنشد:

«قبل أن تقفل الجوامع والمدارس للأبد

لا يمكن للرجال الذين يبحثون عن الحقيقة أن يكونوا صالحين

قبل أن تصبح العقيدة والكفر واحداً للابد

لا يمكن لاي رجل ان يكون مسلماً للابد»

«رهيب»، قال الملا. «رهيب، ولكن هذا النغم...». ثم كرر بمحبة «لا يمكن لأي رجل أن يكون مسلماً للأبد». ثم نهض الملا وأمسك بِمَرَشّ الماء

الفضي ذي العنق الطويل الرفيع وبدأ يتمايل خارجاً، ثم عاد بعد قليل ووضع المرش على الأرض. نهضنا جميعاً لتهنئته لأن جسده تخلص من كل المواد الزائدة.

سأل والدي: «أصحيح يا صاحب السمو أن رئيس الوزراء يوسف الدولة على وشك أن يوقع معاهدة جديدة مع إنكلترا؟»

ابتسم الأمير: «عليك أن تسأل أسد السلطانة عن هذا الموضوع، مع أن الأمر لم يعد سراً».

«سيفعل»، قال عمي، «إنها معاهدة ممتازة، فمن الآن فصاعداً، سيصبح البرابرة عبيدنا»

«حقاً؟ وكيف ذلك؟»

«إنه كالآتي: الإنكليز يحبون العمل ونحن نحب الأمان، هم يحبون القتال ونحن نحب السلام. ولذلك وصلنا إلى اتفاق بأن لا نقلق بخصوص أمن حدودنا، فستقوم إنكلترا بحمايتها وستبني الطرق والمنازل وفوق هذا كله ستدفع لنا، لأن إنكلترا تعلم أننا نحن بشكل رئيسي من قدَّم الحضارة إلى العالم».

رفع ابن عمي بهرام خان شيرفانشير رأسه وقد كان جالساً بجانب عمي، ثم قال: «أتظن أن إنكلترا تقدرنا فقط من أجل حضارتنا أم من أجل نفطنا؟»

«كلاهما يضيء العالم وكلاهما يحتاج للحماية»، قال عمي بلا مبالاة، «وبالطبع فنحن لن نصبح جنوداً».

«ولم لا؟»، كنت أنا من طرح السؤال هذه المرة، «لقد قاتلت من أجل شعبي وقد أقاتل ثانية». نظر إليَّ عمي نظرة عدم الموافقة، ووضع الأمير

فنجانه أرضاً وقال بغطرسة: «لم أكن أعرف أن هناك جنوداً بين أفراد عائلة الشيرفانشير».

«ولكنه ضابط يا صاحب السمو».

«الأمر سيّان يا أسد السلطانه. ضابط»، كرر ذلك بسخرية ومطَّ شفتيه إلى الأمام. لزمتُ الصمت، فقد نسيت أن كون المرء جندياً يعني في عيون النبلاء الفرس أنه من طبقة دنيا. كان ابن عمي بهرام خان الوحيد الذي يبدو أن له أفكاراً مختلفةً عن الآخرين، فقد كان شاباً. أمّا مشير الدولة الذي كان يجلس بجانب الأمير، وهو رجل من النبلاء تقلّدَ العديد من الأوسمة، فقد بذلَ مجهوداً ليخبر الأمير مفصلاً كيف تتمتع إيران بحماية الله الخاصة، وكيف أنها لم تعد بحاجة إلى السيف ليضيء في العالم، لأنها أثبتت جدارتها منذ زمن سحيق. ثم أنهى كلامه قائلاً: «في غرفة كنوز الملك نموذج كرة أرضية ذهبية، وقد طُعِّمَ كل بلد في هذه الكره بجوهرة مختلفة. لكن إيران هي البلد الوحيد المرصع بأكثر أنواع الألماس صفاءً ولمعاناً. هذا أكثر من مجرد رمز، إنه الحقيقة».

فكّرتُ في الجنود الأجانب المتمركزين في البلاد وفي عناصر الشرطة التي ترتدي الأسمال البالية في مرفأ انسلي. هذه هي آسيا التي ألقت بسلاحها أمام أوروبا، خائفة من أن تصبح هي نفسها أوروبية. يحتقرُ الأميرُ الجنودَ، ومع ذلك فهو سليل الشاه الذي قاتل أجدادي تحت لوائه ليصبحوا من الذين احتلوا تفليس. في تلك الأيام، كانت إيران تعلم كيفية استخدام الأسلحة دون أن تفقد اعتبارها. لكن الزمن تغير، وتفسخت إيران، ولم تعد كما كانت عندما حكمها الفنان صفيڤيد. الأمير يفضل القصيدة على الرشاش ربما لأن معلوماته عن القصائد أكثر من معلوماته عن الرشاشات. كان الأمير مُسناً كعمي، وكانت إيران تموت ولكن برشاقة. خطرت لي قصيدة لعمر الخيّام:

«رقعة شطرنج مصنوعة من الليل والنهار
يستخدمها القدر ليلعب لعبته
مع الرجال فيرفعهم أو يدفعهم، ثم
يعيد كلاً منهم إلى حيث كان يهجع»

لم أدرك وأنا مستغرق عميقاً في أفكاري أنني نطقت بالأبيات بصوت عالٍ. أصبح وجه الأمير أكثر رقة: «أظن أنك أصبحت جندياً بمحض المصادفة تقريباً». ثم حدثني بطريقة من تعطّفَ عليَّ ونزل من عليائه: «أرى أنك رجل مثقف. لو كان عليك اختيار مصيرك، فهل كنت ستفكر جدياً بأن تصبح جندياً؟». انحنيت وقلت: «أنت تسألني يا صاحب السمو عما كنت سأختاره؟ إنها أربعة أشياء: شفاه كالزمرد الأحمر، صوت القيثار، النصيحة الحكيمة، والخمر الأحمر». أعادت أبيات داكيكي الشهيرة اعتباري في نظر الجميع، حتى أن الملا ذا الوجنتين الغائرتين ابتسم لي بلطف.

فُتِحتْ أبواب غرفة الطعام في منتصف الليل، فدخلنا الغرفة. كانت هناك أغطية كبيرة على السجاد ووُضعتْ في منتصف الغرفة زبدية نحاسية كبيرة من البيلاف(*)، ووُزعَتْ حولها أرغفة من الخبز الأبيض الكبير المسطح وعدد لا يحصى من الزبادي المختلفة الأحجام، التي كانت إما فارغة وإما مليئة بأطباق الطعام المتنوعة التي أغرتنا. وقف الخدم في الزوايا بلا حراك وكأنهم تماثيل وهم يحملون المصابيح التي أصدرت أضواءً باهتة. جلسنا وبدأنا بخدمة أنفسنا، كلٌ بالتسلسل الذي يعجبه. أكلنا بسرعة كما تقتضي الأعراف، لأن الأكل هو الشيء الوحيد الذي تقوم به فارس بسرعة. ألقى المُلّا دعاءً قصيراً، وجلس ابن عمي بهرام بجانبي وأكل كمية قليلة من الطعام ثم نظر إليَّ بفضول وسألني: «هل أحببت فارس؟»

(*) البيلاف: طعام شرقي من رز ولحمة وتوابل. م.

«نعم، كثيراً».

«إلى متى تنوي البقاء هنا؟»

«حتى يدخل الأتراك باكو».

«أنا أحسدك يا علي خان»، كان صوته مليئاً بالإعجاب، ثم لف قطعة مسطحة من الخبز وملأها بالرز. «لقد جلستَ خلف الرشاس ورأيتَ الدموع في وجوه أعدائك. أما سيف إيران فقد صدئ. نحن نتحمس لقصائد كتبها الفردوسي منذ أربعمئة سنة خلت، ونستطيع التمييز بسهولة بين بيت شعر كتبه داكيكي وآخر نظمه روداكي، ولكننا لا نعرف كيف نبني طريقاً ملائمة لسيارة بمحرك أو كيف نقود فوجاً عسكرياً».

رددت قائلاً: «طرقاً ملائمة لسيارة بمحرك»، ثم فكرت بحقول البطيخ في ضوء القمر، والطريق الذي يقود إلى مارداكجاني. من حسن الحظ أنه لم يكن هناك في آسيا من يعرف كيف يبني هذه الطرق وإلا لما استطاع حصان كاراباخ أن يلحق أبداً بسيارة أوروبية.

«وما حاجتك إلى طرق لسيارات بمحركات، بهرام خان؟»

«لنقل الجنود في الشاحنات، مع أن رجال دولتنا يعتقدون أننا لا نحتاج إلى الجنود، ولكننا نحتاجهم بالفعل. كما نحتاج إلى رشاشات ومدارس ومستشفيات ونظام ضريبي منظم جيداً وقوانين جديدة وأناس مثلك. أبيات الشعر القديمة هي آخر ما نحتاجه. إيران تتمزق إلى أجزاء بينما يجلس الرجال المسنون ويلقون الشعر. ولكن لدينا أغانٍ أخرى الآن. أتعرف أبيات الشاعر أشرف الذي يعيش في جيلجان؟». انحنى للأمام ثم ألقى الأبيات برقة: «تهاجم الأحزان والمآسي بلدنا، انهضوا. اتبعوا تابوت إيران. ذبحتْ هذه الحالة العقيمة شباب فارس. صار القمر أحمر واحمرّت الحقول والهضاب والوديان من دمائهم».

سيقول الأمير: «نغم رهيب، وسيشعر أن إحساسه بالجمال قد جُرِحَ بعمق».

«هناك قصيدة أخرى، حتى أنها أكثر جمالاً»، قال بهرام خان بعناد، «نظمها شاعر يدعى ميرزا آغا خان». اسمع هذا: «أرجو أن تنجو إيران من مصير يحتم عليها أن يحكمها كافر. لا ينبغي مطلقاً أن تتشارك العروس إيران السرير مع العريس الروسي. ولا ينبغي مطلقاً لجمالها الخارق أن يصبح ألعوبة اللوردات الإنكليز».

«لا بأس بهذا»، قلت له مبتسماً. يبدو أن إيران الشابة تختلف عن إيران العجوز، بشكل رئيسي من خلال نظم القصائد السيئة. «ولكن قل لي، بهرام خان، ما الذي تنوي أن تحققه؟»

جلس بثبات على البساط الأحمر الباهت وأجاب: «هل رأيت ساحة ميداني؟ يقبع هناك مئة مدفع قديم وصدئ، وقد وجهت فوهاتها إلى زوايا العالم الأربع. أتعلم أن هذه الآلات الغبية المغبرة هي الأُسلحة الوحيدة في إيران؟ وليس هناك حصن واحد ولا رجلُ حربٍ واحد، ولا يوجد عملياً أي جندي، طبعاً باستثناء الكوساك الروس والمعاطف الحمر الإنكليزية وأربعمئة باهادوران بدين من حرس القصر. انظر لعمك أو الأمير، أو كل هؤلاء النبلاء المبجلين بألقابهم الرفيعة: عيون باهتة، أيادٍ ضعيفة، مسنون وصدئون كالمدافع في ساحة ميداني. لم يبق لهم الكثير من الوقت ليعيشوه، وقد حان الوقت لرحيلهم. بقيت البلاد لوقت طويل في أيدي الأُمراء والشعراء المتعبة. تشبه فارس يد المتسول الممدودة وأنا أريد لها أن تكون قبضة رجل شاب محكمة. إبقَ هنا علي خان. لقد سمعت عنكَ كيف كنت آخر من بقي وراء الرشاش ليدافع عن حائط باكو القديم، وكيف قتلت عدوك بأن عضضته في عنقه في ضوء القمر. سيكون لك هنا أكثر من حائط قديم لتدافع عنه وأكثر من رشاش واحد. أليس ذلك أفضل من الجلوس في الحرملك أو شراء كنوز

البازار؟». لزمتُ الصمتَ واستغرقتُ في التفكير. طهران! أقدم مدينة في العالم أو «روغاري» كما يسميها البابليون وتعني مدينة الملوك. غبار الأساطير القديمة، ذهب القصور القديمة الباهت، أعمدة بوابة الألماس الملتوية، الخطوط الباهتة على السجاجيد القديمة، والأنغام الهادئة للرباعيات القديمة، كل ذلك أمامي، هنا في الماضي والحاضر والمستقبل.

«بهرام خان، لنفترض أنك حصلتَ على ما تريد، أنك بنيتَ الطرق الإسفلتية والحصون وأرسلت أسوأ الخدم إلى أحدث المدارس، ولكن ما الذي سيبقى من روح آسيا آنذاك؟»

«روح آسيا؟»، ابتسم وقال، «سنبني بيتاً كبيراً في نهاية ساحة المدافع حيث سنُؤوي فيه روح آسيا: أعلام الجوامع، مخطوطات الشعراء، اللوحات المنمنمة، والصبية الراقصين لأنهم أيضاً من روح آسيا. وسنكتب على بوابة البيت بالكتابة الكوفية الأكثر زخرفة كلمة «متحف». يستطيع عمك أسد السلطانة أن يصبح القيِّم على المتحف كما يستطيع جلالة الأمير الإمبراطوري أن يكون المدير. هل ستساعدنا على بناء هذا الصرح الرائع؟»

«سأفكر في الأمر، بهرام خان».

انتهت وجبة العشاء، فجلسَ الضيوف في مجموعاتٍ غير رسمية. نهضتُ وخرجتُ إلى الشرفة المفتوحة حيث الهواء البارد والمنعش. تنشقت من الحديقة عطر زهور فارس، جلستُ وانزلقت السبحة بين أصابعي ونظرتُ إلى الليل. قبعتْ شيمران هناك خلف قبب البازار الطينية، حيث تستلقي عزيزتي نينو مغطاة بالبسط والوسادات. كانت على الأغلب نائمة وشفتاها مفتوحتان بعض الشيء وعيناها متورمتان من الدموع. تملكني حزن عميق، فكنوز البازار بأكملها لم تكفِ لإعادة الابتسامة لعيني نينو.

فارس، أينبغي أن أبقى هنا بين المخصيين والأمراء والدراويش والحمقى،

لأبني الطرق الإسفلتية وأشكِّل الجيوش وأقرِّب أوروبا خطوة أخرى إلى قلب آسيا؟ شعرت فجأة أنه لا شيء في هذا العالم عزيز عليَّ كابتسامة نينو. متى رأيت ابتسامتها لآخر مرة؟ كان ذلك منذ زمن بعيد، ذات يوم في باكو عند الحائط القديم. رأيت في ذاكرتي الحائط المغبر ثانية، وسمعت ابن آوى يعوي على القمر تحت بوابة الذئب الرمادي، في رمال الصحراء التي تغطي البادية قرب باكو. تخيلت كذلك التجار وهم يساومون قرب برج ميدن، وكيف تصل عندما تمشي بمحاذاة شارع نيقولاي، إلى معهد الملكة القديسة تامار. وقفتْ نينو تحت الأشجار في ساحة المعهد وكتاب التمارين في يدها وعيناها الكبيرتان ذاهلتان. اختفى فجأة عطر الزهور الفارسي وظهر بدلاً منه هواء صحراء باكو النقي ورائحة البحر الباهتة والرمل والنفط، كل ذلك ظهر حولي. ناديت وطني كما ينادي الطفل أمه. شعرت بكآبة لأن هذا الوطن لم يعد موجوداً. لم يكن عليَّ مطلقاً أن أترك مدينتي حيث جعلني الله أولد. كنتُ مقيداً بمدينتي كما كان الكلب مقيداً بوجاره. ارتفعت عيناي إلى السماء، كانت نجوم فارس كبيرة وبعيدة كالجواهر في تاج الشاه. لم أشعر قط بالغربة هنا كما شعرت بها في هذه اللحظة، فأنا أنتمي لباكو حيث تنظر عينا نينو الباسمتان إليَّ في ظل الحائط القديم.

لمس بهرام خان كتفي: «علي خان، هل تحلم؟ هل فكرت بما قلته لك؟ هل ستساعد في بناء بيت إيران الجديد؟»

«ابن العم بهرام خان، أنا أحسدك. لا يعرف سوى اللاجئ ماذا يعني الوطن بالنسبة إليه. لا أستطيع بناء إيران لأنني شحذت خنجري على حائط باكو».

نظرَ إليَّ بحزن وقال بالعربية «مجنون» التي تعني عاشقاً ومخبولاً في آن معاً. جمعتنا دماء مشتركة ولهذا خمّن سري. نهضت، وانحنى أصحاب المقامات الرفيعة أمام الأمير في الصالة الكبيرة. رأيت يديه ذات الأصابع

الذابلة والأظافر الحمراء. لا، لم أُخلق لعرض أبيات الفردوسي أو تنهدات حافظ عن الحب ولا أمثال سعدي. ذهبتُ إلى الصالة وانحنيت فوق يد الأمير. كانت عيناه حزينتين، غائبتين، وتنذران بِشرٍّ القدرِ المتوعد. ثم توجهتُ إلى شيمران دونما مهرب وفكرتُ بالساحة، حيث تقبع المدافع، وبعيني الأمير المتعبتين وبهدوء نينو وإذعانها وبلغز الدمار.

25

تداخلت الألوان في الخريطة بعضها ببعض وقد تعقدت وتشابكت. اختلطت أسماء المدن والأنهار وسلاسل الجبال فأصبحت عملياً غير قابلة للقراءة. وَضعتُ الخريطة على الأريكة حيث كنتُ أجلس والأعلام الملونة الصغيرة في يدي. كانت لدي جريدة أيضاً كُتبتْ في مقالاتها أسماء المدن وسلاسل الجبال والأنهار بصورة مربكة كتلك التي في الخريطة. انحنيت فوق قطعتي الورق هاتين أحاول جاهداً أن أستخرج الاسم الصحيح من أخطاء الجريدة والخريطة العصية على القراءة. وضعتُ علماً صغيراً في دائرة صغيرة طبع قربها كلمة (غاندشا). لكن آخر خمسة حروف طبعت ثانية على جبل سانغولداك. بحسب الجريدة، فإن المحامي فتح علي خان من غوجا في غاندشا، أعلن أذربيجان حكومة مستقلة. يمثل صف الأعلام الخضراء الصغيرة شرقي غاندشا، الجيش الذي أرسله إنفِر باشا ليحرر بلدنا. وكان فوج نوري باشا يتقدم من اليمين باتجاه مدينة آغداش. أما في اليسار فقد احتل جيش مرسال باشا وديان أليسو، بينما كانت الكتيبة الجديدة لمتطوعي أذربيجان تقاتل في المنتصف. صارت الخريطة الآن واضحة وقابلة للقراءة، فقد كان الطوق التركي يغلق ببطء حول باكو التي احتلها الروس، وأصبحت الأعلام الصغيرة الخضراء بحاجة لبعض التعديل، ومن ثم ستُحشر الأعلام الحمراء معاً في كتلة واحدة في البقعة الكبيرة التي كتب عليها «باكو».

وقف المخصي جاهجا قولي خلفي بصمت وتابع لعبتي الغريبة باهتمام

شديد، فبالنسبة إليه، كانت تحركات الأعلام تلك على الورقة الملونة سحراً غريباً يقوم به ساحر عظيم. ربما أخطأ في فهم مبدأ السبب والنتيجة فظن بأن كل ما عليَّ فعله لأحرر وطني من الكفار هو ضمان مساعدة القوى الخارقة للطبيعة وذلك بأن أزرع الأعلام الخضراء الصغيرة في البقعة الحمراء التي تمثل باكو. لم يشأ إزعاجي في هذا العمل السري الذي كنت أقوم به، لكنه قدم إليَّ تقريره كما يُلزمه الواجب بصوت جدي ورتيب: «آه يا خان، لقد خدشتْني ورمتْ الزبدية عليَّ عندما حاولت طلاء أظافرها بالحناء مع أنني اشتريت أغلى أنواع الحناء. وباكراً هذا الصباح قُدتُها إلى النافذة وأمسكت برأسها بلطفٍ شديدٍ بين يدي وطلبت منها أن تفتح فمها. هذا بالطبع واجبي ياخان، أقصد العناية بأسنانها، ولكنها سحبت نفسها بشدة إلى الخلف ورفعت يدها اليمنى وضربتني على خدي الأيسر. لم يؤلمني ذلك كثيراً ولكنني فقدت اعتباري. اعذر عبدك يا خان، ولكنني لا أجرؤ على إزالة الشعر عن جسدها. إنها امرأة غريبة، فهي ترفض تعليق أية تعويذة ولا تأخذ الاحتياطات اللازمة لحماية طفلها. لا تغضب مني يا خان إذا كان المولود بنتاً، بل اغضب من نينو خانم. لا بد أن روحاً شريرة تتملكها، فهي ترتجف عندما ألمسها. أعرف امرأة تعيش قرب جامع عبد العظيم، خبيرة في طرد الأرواح الشريرة. ستكون فكرة جيدة لو طلبت منها المجيء إلى هنا. تصور يا خان أنها تغسل وجهها بالماء البارد كل صباح لتفسد بشرتها، كما أنها تنظف أسنانها بفرشاة قاسية تجعل اللثة تنزف، بدلاً من أن تنظفها باستعمال السبابة اليمنى بعد أن تغمسها في المرهم المعطر كما يفعل الجميع. إن الروح الشريرة هي فقط من يمكنها إعطاءها أفكاراً غريبة كهذه».

لم أكن أصغي حقاً. كان يأتي إلى حجرتي كل يوم ليقدم لي هذه التقارير الرتيبة. كان مضطرباً بالفعل، فقد كان إنساناً صادقاً أراد أداء واجبه، كما شعر بالمسؤولية تجاه طفلي المستقبلي. كانت المعركة دائرة بينه وبين نينو، معركة هزلية ولكنها عنيدة. كانت تُلقي بالوسادات فوقه وتمشي فوق قمة

حائط المنزل العريض دون أن ترتدي حجاباً وتلقي بتعويذاته من النافذة، كما كانت تغطي الحائط بصور أبناء عمومتها الجورجيين الذكور. كان يقدم لي تقريراً عن ذلك كله وهو حزين وخائف. وفي كل مساء كانت نينو تجلس قربي على الأريكة وتعد الخطط لمعركتها في اليوم التالي: «ما رأيك علي خان؟»، سألتني وفركت ذقنها مستغرقة في التفكير، «هل أسكب الماء ليلاً على وجهه بواسطة خرطوم المياه، أم ألقي بقطة فوقه في الصباح؟ لا، أعرف ما سأفعله، سأقوم بالتمارين الرياضية كل يوم قرب النبع في الحديقة وسأجعله يقوم بها أيضاً، فَوَزنه يزيد. أو ربما سأفعل ما هو أفضل، سأدغدغه حتى يموت، سمعت أن بإمكانك قتل الناس بأن تدغدغهم، وهو سريع التأثر بالدغدغة». غرقتْ نينو في خططها السوداء الانتقامية حتى استغرقت في النوم. وفي اليوم التالي، قدم لي المخصي تقريره وهو مذعور: «علي خان، نينو خانم واقفة قرب النبع وتقوم بحركات غريبة جداً بذراعيها وساقيها. أنا خائف، يا إلهي، إنها تثني جسدها للأمام والخلف كما لو كان جسدها خالياً من العظام، ربما تُصلّي لربٍّ مجهول. طلبت مني تقليد حركاتها ولكنني مسلم ملتزم يا خان، كما أنني أرمي بنفسي على الغبار من أجل الله فقط. أشعر بالخوف الشديد من أجل عظامها ومن أجل سلامة روحي».

إن فصل المخصي من الخدمة لن يحل المشكلة، لأنه ينبغي على مخصي آخر أن يحل مكانه. لا يمكن تصور المنزل من غير مخصي، ولا أجد غيره من يستطيع الإشراف على النساء اللواتي يقمن بأعمال المنزل، كما لا يستطيع أحد غيره القيام بالحسابات وحفظ النقود ومراقبة النفقات. المخصي هو الوحيد من يمكنه فِعْلُ ذلك فهو غير قابل للرشوة لأنه لا يملك رغبات. لذلك لم أَنطقْ بكلمة، بل نظرت للخطوط الخضراء، للأعلام الصغيرة حول باكو. تنحنح المخصي وقد تحمس للقيام بواجبه: «هل أطلب من المرأة من جامع عبد العظيم القدوم؟»

«ولِمَ يا جاهجا قولي؟»

«لتطرد الأرواح الشريرة من جسد نينو خانم». تنهدتُ، فأنا لا أعتقد أن المرأة الحكيمة من جامع عبد العظيم نَد للأرواح الأوروبية.

«لا أظن أن ذلك ضروري يا جاهجا قولي، فأنا أعرف كيف أقوم بذلك بنفسي، سأرتبُ لكل شيء في الوقت المناسب. لكن عليَّ الآن أن أركز قوتي على هذه الأعلام الصغيرة». لمعت عينا المخصي بنظرات الفضول والخوف:

«سيتحرر بلدك عندما تتقدم الأعلام الخضراء لتضغط باتجاه الأعلام الحمراء، أليس كذلك يا خان؟»

«أجل يا جاهجا قولي»

«لماذا لا تضع الأعلام الخضراء حيث ينبغي لها أن تكون؟»

«لا أستطيع فعل ذلك يا جاهجا قولي، فقوتي ليست كافية للقيام بذلك»

نظر إليَّ بقلق: «عليك أن تصلي لله ليمنحك القوة. ستبدأ مُحَرَّم في الأسبوع المقبل، فإن صليت لله خلال هذا الشهر، فسيعطيك ذلك القوة بالتأكيد». طويتُ الخريطة وكنت محتاراً وحزيناً، ثم ضقت ذرعاً بثرثرة المخصي. لم تكن نينو في المنزل، فقد قدِمَ والداها إلى طهران وكانت تمضي ساعات في الفيلّا التي استأجرتها العائلة المرموقة حيث التقت هناك بالأوروبيين وحاولتْ إبقاء الأمر سراً، ولكنني بالطبع سمعت بذلك وتظاهرتُ بأنني لا أعرف شيئاً لأنني شعرت بالحزن الشديد من أجلها. وقفَ المخصي بلا حراك منتظراً أوامري. فكرتُ بصديقي سيد مصطفى الذي قَدِمَ إلى طهران لبضعة أيام. لم أكن أراه إلّا نادراً فقد كان يقضي أوقاته في المسجد وقبور الأتقياء كما كان يتبادل الأحاديث الحكيمة مع الدراويش ذوي الأسمال البالية. قلت أخيراً: «جاهجا قولي، إذهبْ إلى سيد مصطفى، إنه يعيش قرب جامع سيباهليسار، واطلب منه أن يشرفني بزيارته». ذهب

المخصي وصرتُ وحدي. لم تكن قوتي كافية في الواقع لإحضار الأعلام الخضراء إلى باكو. ففي مكان ما في السهب في بلادي، كانت القوات التركية تقاتل ومعها فِرَق المتطوعين الأذريين المجتمعين تحت راية أذربيجان الجديدة. كنت أعرف الراية كما أعرف عدد الفِرَق والمعارك التي خاضوها. كان إلياس بيغ معهم وكنت أتوق للذهاب معه إلى ساحة القتال في الصباح البارد، لكن الحدود كانت مغلقة في وجهي، فالقوات الإنكليزية والروسية كانت تحميها، وقد أقيمتْ متاريس من الرشاشات والجنود ووضعتْ أسلاك شائكة على الجسر العريض الذي يجتاز نهر الأراكس ويربط إيران بالمسرح الحربي. وهكذا انكفأتْ إيران على نفسها جانحة للهدوء كما تتقوقع البزاقة داخل صَدَفتها. لم يستطع أي رجل، أو فأر أو حتى ذبابة اجتياز المنطقة المهلكة حيث يدور قتال وإطلاق نار رهيب، وحيث لم تُلقَ أية أبيات من الشعر. قدِمَ الكثير من اللاجئين من باكو ومن بينهم الثرثار أرسلان آغا. كان يذهب من صالة شاي لأخرى ويكتب مقالات يُشبِّه فيها انتصار الأتراك بانتصارات الإسكندر العظيم. مُنعتْ إحدى هذه المقالات من النشر لأن مراقب المطبوعات اشتبه في أن يكون تمجيد الإسكندر الذي هزم فارس ذات يوم يشكل ذَماً لها بشكل غير مباشر. ومنذ ذلك اليوم أصبح أرسلان يشير لنفسه كشهيد قناعاته. قدِمَ إليَّ وأخبرني بأدق التفاصيل عن الأعمال البطولية التي كان من المفترض أنني قمت بها دفاعاً عن باكو. رأى في خياله فيالق الأعداء تمشي أمام رشاشي لأسحقها بلا رحمة. أما هو فقد أمضى وقته خلال المعركة في قبو مكتب للطباعة حيث كان مشغولاً بكتابة خطابات وطنية تثير الحماسة ولكن لم يتم إلقاؤها قط. قرأها لي وطلب مني أن أشرح له شعور البطل في معركة يلتحم فيها الخصمان. قدَّمتُ له الحلويات حتى اختنق ثم رافقته إلى الباب. ترك وراءه رائحة حبر الطباعة ودفتراً كبيراً وجديداً كان من المفترض أن أكتب فيه شعور البطل. نظرتُ إلى الصفحات البيضاء وفكرتُ في نظرةِ نينو الحزينة والغائبة وبحياتي المعقدة، فأخذت القلم

ليس لأصف شعور البطل بل لأدوِّنَ على الورق الطريق الذي قادنا نينو وأنا إلى حدائق شيمران المعطرة حيث فقدتْ ابتسامتها.

جلستُ هناك أكتب بقلم خيزران البامبو الفارسي. وضعتُ الصفحات غير المنتظمة بالنظام الذي بدأت به عندما كنت في المدرسة فأطل الماضي عليّ حتى دخل سيد مصطفى الحجرةَ وضغطَ بوجهه المجدر على كتفي. قلت له: «سيد، أصبحت حياتي معقدة. الطريق إلى الجبهة مغلقْ، ونينو نسيتْ الضحك وأنا أريق الحبر بدلاً من الدماء. ما الذي ينبغي عليَّ فِعْله سيد مصطفى؟». نظر صديقي إليّ بهدوء وتفحُّص. كان ثوبه أسود وأصبح وجهه نحيلاً، وانحنى جسده الهزيل تحت وطأة الأسرار. جلسَ سيد وقال:

«أنت لا تستطيع فِعلَ شيء بيديك، علي خان. لكن للإنسان أكثر من مجرد اليدين. انظرْ إلى ثوبي وستعلم ما أعنيه. يُحكمُ الرجل من قبل غير المنظور. لامِس السِّر وستشعر بقوة الله».

«لا أستطيع فهمك يا سيد مصطفى، إن روحي تتألم وأنا أبحث عن طريق للخروج من الظلمة».

«أنت تتجه للعالم الأرضي يا علي خان، وتنسى العالم غير المرئي الذي يحكم الكون. في عام 680؛ سنة الطيور سقط الحسين، حفيد الرسول قرب كربلاء وقد طارده أعداؤه. لقد كان الـمُخلِّص والسر. وبدمه، علّمَ الله القدير شروق الشمس وغروبها. هناك اثنا عشر من الأئمة يحكموننا نحن الشيعة: كان أولهم علي وآخرهم هو إمام اليوم الأخير، غير المرئي، والذي يقود الشعب الشيعي حتى في يومنا هذا. إنه يُرى في أعماله ومع ذلك لا يمكن الوصول إليه: هذا هو الإمام الغائب. أراه في إشراقة الشمس ومعجزة البذور والبحر الهادر، وأسمع صوته في هدير الرشاش وتنهدات المرأة وهبوب الرياح. والإمام الغائب يأمر بأن يكون النَّدْبُ مصير الشيعة، ندب دم الحسين الذي أُريقَ في وادي كربلاء. يخصص شهر واحد في السنة للندب، وهذا الشهر هو محرم. فدَعْ كل من يتألم يصرخ في شهر محرم. وفي العاشر من

شهر محرم يتحقق قَدَر الشيعة، لأنه يوم الشهيد. إنه العذاب الذي أخذه الحسين على عاتقه، وعلى أتباع الحسين المخلصين بدورهم أن يأخذوا على عاتقهم هذا العذاب. فمن فعل ذلك، سيحظى بجزء من المباركة. ولذلك يُمارس المؤمن الورع طقوس الحزن والعذاب الذي مُورس ضد الإمام الحسين في الشهر الحرام(*)، وبالألم الذي يبتلي نفسه به الرجل الذي يعاني المشكلات، يهتدي إلى طريق النعمة الإلهية وفرحة الخلاص، هذا هو سر محرم.

«سيد»، قلت له بتعب ونزق، «سألتك كيف أستطيع إعادة السعادة إلى بيتي لأنني أشعر وكأن نفسي مليئة بالرعب والتشاؤم، وأنت تقص علي القصص الحكيمة من دروس الديانة التي تعلمناها في المدرسة. هل أذهب إلى الجوامع وأسلخ ظهري بالسلاسل الحديدية؟ أنا ورع وأقوم بواجباتي الدينية، كما أؤمن بسر غير المرئي، ولكنني لا أعتقد أن الطريق إلى سعادتي يمر عبر شهادة الحسين التقي».

«ولكنني أعتقد ذلك يا علي خان، لقد سألتَني عن الطريق فأظهرته لك، أنا لا أعرف طريقة أخرى. يريق إلياس بيغ دمه في غاندشا، ولكنك لا تستطيع الذهاب إلى غاندشا، ولذلك عليك تكريس دمك لغير المنظور الذي سيطالبك به في عاشوراء. لاتقل لي إن التضحيات المقدسة هي شيء غير معقول، فليس هناك أي شيء غير معقول في وادي الدموع هذا. قاتلْ من أجل الوطن خلال شهر محرم كما يقاتل إلياس بيغ في غاندشا». لزمتُ الصمت، ثم قاد الحوذي العربة إلى الفناء فرأيت وجه نينو يبدو ضبابياً من خلال النوافذ الكريستالية. فُتِحَ باب الحرملك، وفجأة أصبح سيد مصطفى متلهفاً للمغادرة: «تعال في الغد إلى جامع سيباهلسار لنتحدث ثانية».

(*) يُقال إن هذه الطقوس السنوية لدى الشيعة هي من أجل تعلم الصلابة وحب الاستشهاد في سبيل الحق كما فعل إمامهم الحسين بن علي. وحسب معلوماتنا فإن بعض المرجعيات الدينية الشيعية قد أفتت بإلغاء الضرب بالسيف على الرأس وأبقت على البكاء ولطم الصدر بالأكف. الناشر.

26

جلسنا على الأريكة يفصل بيننا لوح النرد المُطعّم بعرق اللؤلؤ والمغطى بقطع من العاج. منذ تعلمتْ نينو هذه اللعبة ونحن نرمي بالنرد متراهنين على التومان أو الأقراط أو القبلات أو أسماء أولادنا في المستقبل. خسرتْ نينو فدفعت ديونها ورمت بالنرد ثانية. لمعتْ عيناها بحماس، ولمست يداها قطع العاج كما لو كانت جواهر ثمينة. تنهدتْ قائلة: «ستسبب لي الدمار يا علي»، ثم قدمت لي الثمانية تومانات التي كنت قد ربحتها للتو. كما دفعت بلوح النرد بعيداً ووضعت رأسها على ركبتي وهي تنظر إلى أعلى السقف مستغرقة في التفكير. وقد غرقتْ في أحلامها.

كان يوماً رائعاً فقد كانت نينو سعيدة وراضية كل الرضى عن تحقيقها لانتقامها. هذا ما حدث: دوى المنزل منذ الصباح بعويل وتأوهات عدُوّها جاهجا قولي، فقد أتى إلى الحجرة بوجنتيه الغائرتين وقسمات وجهه الذي يتلوى من الألم، ثم قال ووجهه يبدو وكأنه على وشك الانتحار: «إنه ألم الأسنان». لمعت تعابير النصر والفرح على وجه نينو، فقادته إلى النافذة ونظرت داخل فمه، ثم رفعت حاجبيها وهزت برأسها كما لو كانت قلقة. أحضرتْ خيطاً قوياً ولفته حول سن جاهجا قولي المجوف وأوثقته إلى الجانب الآخر من مقبض الباب المفتوح. ثم قالت: «الآن»، وأسرعت إلى الباب وصفقته خلفها مغلقة إياه. سمعنا صوت صرخة رهيبة، فقد سقط المخصي على الأرض وهو خائف حتى الموت يحدق بسنه الذي طار باتجاه الباب

متخذاً شكل قوس أنيق. «قل له علي خان إن هذه هي نتيجة تنظيف الأسنان بسبابة اليد اليمنى». ترجمت ما قالته كلمة بكلمة. التقط جاهجا قولي سنه من الأرض، لكن تَعطُّش نينو للانتقام لم يرتوِ بعد: «قل له علي خان إنه لم يشفَ بعد، فمازال أمامه الكثير. عليه الذهاب إلى السرير ووضع الكمادات الساخنة على وجنتيه لمدة ست ساعات، وعليه أيضاً أن يمتنع تماماً عن أكل الحلويات لمدة أسبوع على الأقل». ذهب جاهجا قولي بعيداً وقد سكن ألمه ولكنه كان محطماً. قلت لها: «يجب أن تشعري بالخجل من نفسك يا نينو، فقد انتزعت الشيء الأخير الذي كان هذا المسكين يستمتع به». «إنه يستحق ذلك»، قالت نينو بلا رحمة، ثم أحضرت لوح النرد فخسرتْ اللعبة وهكذا تحقق ميزان العدالة.

أما الآن فقد نظرتْ إلى الأعلى وهي تداعب ذقني بأصابعها: «متى ستُحرَّر باكو يا علي؟»

«في نحو أسبوعين على ما أظن».

«أربعة عشر يوماً»، ثم تنهدت وقالت «أتعلم؟ لاأطيق صبراً لانتظار باكو والأتراك، فأنت تحب المكان هنا، أما أنا فأشعر بالإهانة كل يوم».

«ماذا تعنين بالإهانة؟»

«يعاملني الجميع وكأنني شيء ثمين جداً وهش، ولكنني لست هشة كما أنني لست بالشيء. أتذكر داغستان؟ كان الأمر مختلفاً جداً هناك. لا، أنا لا أحب المكان هنا. علينا الذهاب إلى مكان آخر إن لم تتحرر باكو. أنا لا أعرف شيئاً عن جميع هؤلاء الشعراء الذين تفخر بهم هذه البلاد ولكنني أعلم أن الرجال يجرحون صدورهم في ذكرى مقتل الحسين ويضربون رؤوسهم بالخناجر كما يجلدون ظهورهم بالسلاسل الحديدية. لقد رحل الكثير من الأوروبيين الليلة من المدينة لأنهم لا يرغبون برؤية شيء كهذا،

يشعرني هذا الأمر بالغثيان. أشعر هنا وكأنني أتعرض لقوة شريرة، لاينفذ المنطق إليها، وقد تهاجمني في أي وقت». رفعت وجهها الرقيق لتنظر إليَّ. كانت عيناها أكثر عمقاً وظلمة من أي وقت مضى، وكان بؤبؤ عينيها كبيراً ونظرتها تبدو وكأنها موجهة إلى داخلها. كانت عيناها وحدهما تفشيان سر حملها.

«هل أنت خائفة، نينو؟»

«مم؟» أبدى صوتها تعجباً صادقاً.

«بعض النساء يشعرن بالخوف».

قالت بجدية: «لا، لست خائفة. أخاف الفئران، التماسيح، الامتحانات والمخصيين، لكنني لا أخاف من ذلك، ربما أخاف أيضاً من نزلة برد أو ألم في الرأس في فصل الشتاء».

قَبّلتُ جفنيها الباردين. وقفتْ ودفعت بشعرها إلى الخلف: «سأذهب لرؤية والدي يا علي خان». فأومأت موافقاً، مع أنني على معرفة تامة أن جميع قواعد الحرملك لا تُحترم في ڤيلّا عائلة كيبياني. فالأمير يستقبل أصدقاءه الجورجيين والديبلوماسيين الأوروبيين، وهناك كانت نينو تشرب الشاي وتأكل البسكويت الإنكليزي وتتحدث مع القنصل الهولندي عن رامبرانت ومشكلات النساء الشرقيات. ذهبتْ، ثم رأيت حوذي العربة ذات النوافذ الكريستالية يخرج من فناء القصر.

أصبحتُ وحدي، أفكر في الأعلام الخضراء الصغيرة والورقة الملونة ذات البضعة إنشات التي تفصلني عن وطني. ازدادتْ الغرفة عتمة شيئاً فشيئاً، ومازالت رائحة نينو المعطرة الخفيفة تنبعث من وسادات الأريكة الناعمة. انزلقتُ إلى الأرض فبحثتْ يدي عن السبحة، ولمع على الجدار الأسد الفضي الذي أمسك بالسيف في برثنه الأيمن. نظرتُ إليه في الأعلى،

فتملكني شعور مفاجىء من الضعف واليأس. كان من المخجل أن أجلس هنا في ظل الأسد الفضي، بينما ينزف شعبي حتى الموت في سهوب غاندشا. أنا أيضاً كنت مجرد شيء، شيء يتمتع بالحماية ويُعتنى ويُهتم به، أحد الشيرفانشير الذي سيُقدّر له أن يحظى عاجلاً أم آجلاً بأحد الألقاب الرائعة وأن يُعبِّر عن أحاسيس رقيقة بعبارات كلاسيكية أنيقة. كنت يائساً، وقد نظر إليَّ الأسد الفضي من على الحائط عابساً. كان الجسر الحدودي فوق الآراكس مغلقاً ولم يستطع أي طريق في أرض إيران أن يقود إلى روح نينو. أمسكتُ بالسبحة بين أصابعي، فقُطع الخيط ثم تدحرجت حبات الكهرمان على الأرض.

سُمعَ من بعيد صوت الطبل الفاتر قادماً من خلال الشفق، منادياً ومتوعداً كتوعد غير المنظور. ذهبت إلى النافذة، لمع الطريق المغبر بآخر إشعاعات الشمس، وأصبحت واعياً لضربات الطبل التي اقتربت والنغم الذي رافقه صراخ متقطع ترددَ مراراً لآلاف المرات: «ياشهيد، ياحسين... آه ويلاه ياحسين(*)». ظهر الموكب عند زاوية الطريق، وقد رفعت الحشود ثلاث رايات ضخمة مطرزة بالذهب، كتب على إحداها بالأحرف المذهبة كلمة «علي»، اسم الإمام الأول للشيعة وابن عم الرسول ورفيقه في الدنيا، أما الراية الأخرى المصنوعة من المخمل الأسود فقد رُسِمَتْ عليها خطوط الكف الأيسر وهو مقطوع وينزف. كان ذلك كف العباس. وعلى العَلَم الثالث الذي بدا وكأنه يغطي السماء، كتبت كلمة واحدة: «حسين»، حفيد الرسول، الشهيد والوريث. مر الحشد ببطء خلال الطريق. تقدم أولاً موكب العزاء بظهورهم العارية وهم يرتدون ملابس الحداد السوداء وقد حملوا سلاسل حديدية ثقيلة ضربوا بها أكتافهم الحمراء النازفة. ثم تقدم خلفهم صف عريض مكون من

(*) بمعنى الويل لقتلتك يا حسين. الناشر.

نصف دائرة من رجال ذوي أكتاف عريضة، يتقدمون خطوتين إلى الأمام ثم يتراجعون خطوة إلى الخلف. دوّتْ صرختهم المبحوحة خلال الطريق: «ياشهيد، ياحسين...». ومع كل صرخة، كانت قبضة يدهم تدق بقوة وبعمق على صدورهم العارية ذات الشعر الكثيف. ثم تبعهم السادة المتحدرون من سلالة الرسول وهم يربطون الأحزمة الخضراء التي تدل على نسبهم إلى بني هاشم عائلة الرسول وقد أحنوا رؤوسهم، وأتى خلفهم صف المطبرين بأكفانهم البيضاء وبوجوههم المتجهمة والصامتة وهم يحملون السيوف في أيديهم: «يا شهيد... ياحسين». ورُفعت السيوف لتطبير رؤوسهم. وسالت الدماء على أكفانهم البيضاء، وسقط أحدهم، فحمله أصدقاؤه بعيداً وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة تعكس البهجة العارمة.

وقفتُ عند النافذة، وفجأة سيطر عليَّ شعور جديد لا يمكن مقاومته، فقد تملكت الصرخة روحي بوعيدها وامتلأتُ بالرغبة في الخضوع الكلي. رأيت قطرات الدم على غبار الشارع وسمعت صوت الطبول منادية ومحررة. كان ذلك سر غير المنظور، بوابة الأحزان التي تقود إلى نعمة المفتدي. ضغطتُ شفتيَّ معاً وأمسكتْ يداي بعتبة النافذة. رأيتُ يد العباس فاختفى العالم المرئي من بين ناظري. سمعت مرة أخرى صوت الطبل الأجوف، ثم أصبحتْ نغمة الصراخ البري داخلي، وصرتُ جزءاً من الحشد. مشيتُ مع الرجال ذوي الأكتاف العريضة وضربت بقبضة يدي على صدري العاري كالمطرقة. أحسست فيما بعد بكآبة الجامع حولي، وسمعت نداء الخطيب الحزين. وضعَ أحدهم سلسة ثقيلة في يدي، فشعرت بالألم الحارق على ظهري. مضت الساعات، وبدت أمامي ساحة عريضة، فخرجتْ من حنجرتي الصرخة القديمة: «يا شهيد... يا حسين...» وحشيةً وسعيدةً. وقفَ درويشٌ بوجهٍ متغضن أمامي وقد ظهرتْ أضلاعه تحت بشرته الجافة. حدّقتْ آلاف العيون المصلّية إلى الخطيب بنشوة، وغنى الحشد. مشى

خلال الساحة حصان يحمل سرجاً ملوثاً بالدم: إنه حصان الحسن المشتبى الشاب. صرخ الدرويش ذو الوجه المغضن صرخة عالية وطويلة بشكل فجائي. طارت زبديته النحاسية ورمى بنفسه تحت حوافر الحصان. تعثرتُ، وقد دقّتْ القبضات الثقيلة على الصدر العاري. صرخ الحشد بابتهاج: «ياشهيد، يا حسين»، وحُمل رجل بعيداً وقد سال الدم على كفنه الأبيض. ثم انضم إلينا من الظلمة عدد لايُحصى من المشاعل، وكان عَلَيَّ أن أتبعها. ثم جلستُ في فناء الجامع ثانية، وكان الناس حولي مرتدين قبعات دائرية وعالية (ترمز لبني هاشم سادة الكعبة) وقد امتلأت أعينهم بالدموع. قرأ أحدهم واقعة مقتل الحسين الشهيد ثم اختنق بحزنٍ مفاجىء. نهضتُ، وكان الجمع يتدفق متراجعاً. كانت الليلة باردة. تجاوزنا الأبنية الإدارية حيث كانت الرايات السوداء ترفرف فوق الساريات على السطح. بدت الصفوف اللامتناهية من المشاعل كنهرٍ يعكس ضوء النجوم. كان السطح ممتلئاً حتى طاقته القصوى، وقد حدقت الأشكال المغطاة خلال الزوايا. حرس بوابات القنصلية جنود وضعوا حرباتهم على أهبة الاستعداد. تجاوزتْ قافلة جِمالٍ(*) صفوف الأشكال المستغرقة في الصلاة. ارتفعت صرخات حزينة وسقطت النساء على الأرض وقد ارتجفت أوصالهن تحت ضوء القمر الشاحب. حملت تلك القافلة الهودج الذي جلست فيه السيدة زينب أخت الحسين. وظهر خلفهم حصان أسود امتطاه الخليفة يزيد بن معاوية قاتل الحسين، وقد غطى وجهه بقناع حربي. انهالت الحجارة عليه عندما ظهر للملأ خلال الساحة لتخطئ قِناعهُ بالكاد، فأسرع ليختبئ في فناء معرض نصر الدين شاه. وفي الغد ستستذكر تشابيه مقتل الحسين الشهيد.

قدِمنا إلى الرواق الألماسي في القصر الإمبراطوري حيث ترفرف هناك

(*) يُفترض أنها تمثل الأسرى من عائلة الحسين.

أيضاً الرايات السوداء فوق الساريات. وقف الباهادوريون، رجال الحرس الإمبراطوري هناك ورؤوسهم محنية وهم يرتدون ثياب الحداد السوداء المصنوعة من الكريب(*). لم يكن الإمبراطور في مكان إقامته بل في قصره الصيفي في باغاشاه. تدفقت الجموع إلى شارع آلايد الدولة. وفجأة رأيت نفسي وحيداً في ساحة المدفع. نظرتْ إليّ فوهات المدافع الصدئة بلا مبالاة. كان جسدي يؤلمني كما لو أنه تمزّقَ بفعل آلاف من ضربات السياط. لمستُ ظهري فشعرتُ بطبقة سميكة من الدم. بدأت الساحة تتأرجح أمام عيني، وعندما بدأت أرى بوضوح ثانية، رأيت حوذياً بلا راكب. نظر إليّ هذا الأخير بشفقة وتفهم وقال لي: «امزجْ روث الحمام بالزيت وضعه على الجرح، إنه مفيد جداً». كان من الواضح أن الرجل خبير بهذا الأمر. سقطتُ على الوسادات وأنا أشعر بالتعب الشديد وصحت: «إلى شيرمان، منزل عائلة شيرفانشير». طقطق الحوذي سوطه ومشينا في الطرق غير الممهدة بشكل متساوٍ. وكان يلتفت إليّ من فترة لأخرى ويقول: «يبدو أنك رجل شديد الورع، أرجوك صلِّ من أجلي أنا أيضاً، فليس لدي الوقت لذلك لأنه يتوجب علي العمل. اسمي سورهاب يوسف».

انهمرت الدموع متدفقة على وجه نينو. كانت تجلس على الأريكة ويداها مثنيتان بيأس. بكت دون أن تخفي وجهها، وقد فتحت فمها وتدلت زواياه للأسفل، وتغضن ما بين وجنتيها وأنفها. نشجتْ مرةً واحدةً فقط وقد ارتجف جسدها الصغير. لم تنبسْ ببنت شفةٍ، لكن انهمرت من رموشها قطرات كبيرة من الدموع لتسقط على وجنتيها ثم لتنحل على وجهها الهش. وقفتُ أمامها وقد مزقني حزنها العميق. لم تتحرك؛ حتى إنها لم تمسح دموعها، وارتجفت شفتاها كالأوراق خلال هبوب رياح الخريف.

(*) الكريب: قماش رقيق جعد. م.

أخذتُ يديها بين يدي. كانتا باردتين، بلا حياة ومنعزلتين. قبّلت عينيها المبتلتين، فنظرت إليّ نظرات شاردة دون أن تعي شيئاً. صحت: «نينو، ما الأمر؟» رفعت يدها إلى فمها وعضتها ثم ألقتها ثانية فاستطعت أن أرى بوضوح علامة أسنانها على راحة كفها.

«أكرهك علي خان». بدا صوتها خائفاً للغاية.

«نينو، هل أنت مريضة؟»

«لا، لست مريضة. أنا أكرهك». سحبتْ شفتها السفلية بين أسنانها، وكانت عيناها كعيني طفل مجروح. نظرتْ بذعر إلى ثيابي الممزقة وكتفيّ العاريين المحمرين.

«ما الأمر يا نينو؟»

«أكرهك». زحفت إلى زاوية الأريكة ووضعت ذقنها على ركبتيها. توقفتْ عن ذرف الدموع ونظرتْ إليّ بعينين حزينتين هادئتين كالغريبة.

«ماذا فعلتُ يانينو؟»

«لقد أظهرت لي روحك، علي خان». تكلمتْ بحزن ورتابة ونعومة كما لو كانت تحلم. «كنتُ في منزل والدي نحتسي الشاي، فدعانا القنصل الهولندي إلى منزله في ساحة المدافع لمشاهدة أشد الطقوس الشرقية رعباً. وقفنا في النافذة، فظهرت سيول المتعصبين في أسفل النافذة. سمعتُ صوتَ الطبل ورأيت الوجوه الموحشة فشعرت بالغثيان. قال القنصل: «إنها طقوس ضرب بالجلد مرعبة، وأغلق النوافذ بسبب روائح العرق القادمة من الشارع. فجأة سمعنا صرخة... وألقى درويشٌ بنفسه تحت حوافر الخيل، ثم مد القنصل يده وأشار: «أليس هذا؟»، لم يكمل جملته. نظرتُ حيث أشار فرأيت أحد المحليين يضرب صدره ويجلد صدره في وسط هؤلاء الـ... كان

هذا الشخص المحلي هو أنت علي خان. شعرت بالخجل، شعرت بالخجل حتى الموت من كوني زوجة أحد المتعصبين الـ... استطعتُ أن أرى جميع حركاتك، وشعرت بنظرة القنصل المليئة بالشفقة. أظن أننا احتسينا الشاي فيما بعد أو ربما تناولنا العشاء، لست أذكر. فقد تدبرتُ أمري بحيث بقيتُ على قدميَّ لأنني رأيت فجأةً الهاوية التي تفصلنا. علي خان، لقد دمر الحسين الشاب سعادتنا. أنا أنظر إليك الآن كمتعصب... وسأراك بهذه الصورة على الدوام». جلست هناكَ صامتةً، محطمةً ومتألمةً لأنني حاولتُ أن أجد الوطن والسلام من خلال غير المنظور.

«وماذا الآن يا نينو؟»

«لا أدري، لن نستطيع أن نكون سعداء ثانية. أريد الذهاب بعيداً إلى مكانٍ أستطيع فيه النظر ثانية إلى وجهك بحيث لا أرى صورة الرجل المجنون في ساحة المدفع. دعني أذهب علي خان».

«الى أين يا نينو؟»

«آه، لا أعلم»، لمست أصابعها ظهري المجروح، «لماذا؟ آه، لمَ فعلت ذلك؟»

«فعلته من أجلك يا نينو، ولكنك لن تفهمي ذلك».

«أجل»، قالتها وقلبها يتفطر حزناً، «أريد الذهاب بعيداً. أنا تعبة جداً علي خان، فآسيا مقرفة».

«هل تحبينني؟»

«أجل»، قالت بيأس وسقطت يداها في حجرها. أخذتها بين يدي وحملتها للغرفة، ثم نزعت عنها ثيابها، فتكلمت باضطراب وبخوف مريع، قلت لها:

«نينو، بضعة أسابيع فقط، ثم نذهب إلى الوطن، إلى باكو».

أومأتْ برأسها تعبةً وأغمضتْ عينيها، ثم غلبها النعاس فأمسكتْ بيدي وضغطتها على أضلاعها. جلستُ وقتاً طويلاً بهذه الوضعية وأنا أحس بقلبها ينبض على راحة يدي، ثم نزعتُ ثيابي أنا أيضاً واستلقيت قربها. كان جسدها حاراً وقد استلقت هناك على جانبها الأيسر ورفعتْ ركبتيها كالأطفال وأخفتْ رأسها تحت الغطاء.

استيقظتْ باكراً وتَخَطَّتني واثبةً من السرير لتهرعَ إلى الحمّام حيث جلستْ لوقتٍ طويلٍ تغتسل وتنثر المياه هنا وهناك ولا تدعني أدخل. ثم خرجتْ حاملةً زبديةً تحتوي على مرهم وهي تتجنب النظر إليَّ. دهنتْ ظهري بالمرهم وهي تشعرُ بالذنب. «كان عليك أن تضربني علي خان»، قالت لي كفتاة صغيرة صالحة.

«لم أستطع فعل ذلك، فقد ضربت نفسي خلال النهار بأكمله ولم تتبق لي أية قوة».

وضعت المرهم بعيداً، ودخل المخصي وقد أحضر الشاي، فشربته نينو بسرعة ونظرتْ إلى الحديقة وهي صامتة وتشعر بالإحراج. فجأةً نظرتْ بثباتٍ في عينيَّ وقالت: «لا فائدة علي خان، أنا أكرهك وسأستمر بكرهك طالما نحن في فارس، لا أستطيع السيطرة على ذلك». نهضنا وذهبنا خارجاً إلى النبع، وهناك استعرض الطاووس نفسه أمامنا، وقاد حوذي والدي العربة بضجيج إلى فناء القسم الخاص بالرجال. نظرتْ نينو إليَّ جانباً وقالت لي بخجل: «أستطيع رمي النرد حتى مع الرجل الذي أكره». أحضرتُ لوح النرد وبدأنا برمي النرد بكآبة. ثم انحنينا فوق حافة النبع ونظرنا إلى انعكاس وجوهنا على الماء. غمرت نينو يدها في الماء فتشوهت صورتنا بفعل تموجات الماء. «لا تحزن علي خان، أنا لا أكرهك أنت ولكنني أكره هذا البلد الغريب

بأناسه الغريبين. سينجلي ذلك عندما نعود ثانية إلى الوطن، وعندما...».
وضعتْ رأسها على الماء لوهلة ثم رفعته ثانية وتساقطت قطرات صافية على وجنتيها إلى أسفل ذقنها. «أنا واثقة أنه سيكون صبياً، ولكن ما تزال هناك سبعة أشهر أخرى». أنهت كلامها وهي تشعر بالفخر والتفوق. اذاً، يتوقف مصيرنا الآن على تقدم الأفواج باتجاه باكو فوق سهول أذربيجان المتوهجة تحت أشعة الشمس، تلك المدينة التي طالما عانت الاحتلال والعذاب الأبدي الذي سببته هياكل النفط. جففتُ وجه نينو وقبّلتُ وجنتيها الباردتين، ثم ابتسمت. عاد ثانية قرع طبول الحرب والحزن على الحسين الشهيد قادماً من بعيد. أمسكتُ بيد نينو وسحبتها بسرعة إلى المنزل. ووضعتُ أقوى إبرةٍ في الغرامافون. فسُمِعَ صوت «الذهب» من لحن «فاوست» التي ألفها غونود قوياً ويكاد يصم الآذان. كان بالتأكيد أعلى صوت اسطوانة على الاطلاق. وبينما تشبثت نينو بي وهي ترتجف من الرعب، غطى صوت الصرخة القديمة «ياشهيد، يا حسين» على كل ما عداه.

27

تحدثت الأخبار في البازارات وبيوت الشاي والوزارات عن تقدم جيش إنڤِر باشا واحتلاله باكو خلال الأيام الأولى من خريف فارس. ورسى آخر المدافعين الروس عن المدينة في مرافئ فارس وتركمانستان وقد فُصِلوا عن وحداتهم وهم يتضورون جوعاً. أخبروا الآخرين أن العلم الأحمر ذا الهلال الأبيض يرفرف منتصراً فوق القلعة القديمة. نشر أرسلان آغا في صحف طهران مقالات ملونة عن دخول الأتراك إلى باكو، فمنع عمي أسد الدين نشر هذه المقالات لأنه اعتقدَ أنه بذلك يسدي خدمة للإنكليز ولأنهم يكرهون الأتراك. ذهب والدي لرؤية رئيس الوزراء، فوافق هذا الأخير بعد قليل من التردد، على إعادة فتح خط الشحن البحري بين باكو وفارس، فسافرنا إلى انسلي. ثم استقبلت السفينة البخارية نصر الدين جموع اللاجئين على متنها لتبحر بهم إلى بلادهم.

وقفَ جنودٌ بقبعاتِ فروٍ عالية عند رصيف باكو البحري. حيّانا إلياس بيغ رافعاً سيفه، وألقى الكولونيل الإنكليزي خطبةً محاولاً تخفيف لفظ كلمة اسطامبول التركية ليجعلها تبدو أقرب ما يكون إلى لهجتنا. ثم وصلنا إلى منزلنا المدمر كلياً بفعل الإغارة عليه، وأصبحت نينو خلال بضعة أسابيع مجرد ربة منزل، تتحدث مطولاً مع النجارين وتقيم في متاجر المفروشات كما تقطب جبينها مركزة وتأخذ مقاسات غرفتنا. عقدت جلسات غامضة مع المعماريين وامتلأ منزلنا بضجيج العمال ورائحة الدهان والخشب والجص. كانت نينو مشرقة وسط هذا الضجيج ومدركة مسؤوليتها لأنني أطلقت

يدها لاختيار المفروشات وورق الجدران والديكورات. وفي المساء كانت تقدم تقريرها بخجل ولكن بسعادة: «لا تغضب من عزيزتك نينو يا علي. لقد طلبتُ أسِرّة، أسِرّةً حقيقيةً بدلاً من الأرائك. سيكون ورق الجدران بلونٍ فاتح وستأتي بسجاد ملائم للأرضية. أما حجرة الطفل فستكون بيضاء تماماً. سيكون كل شيء هادئاً ومختلفاً تماماً عن الحرملك في فارس». طوقتْ رقبتي بذراعيها ثم فركت وجهها على وجنتي لأن ضميرها كان يؤنبها، ثم أدارت رأسها جانباً وسحبت لسانها الصغير وحاولت لمس أنفها به. كانت دائماً تفعل ذلك عندما تواجه موقفاً صعباً، أو امتحاناً أو طبيباً أو جنازة. فكّرتُ في ليلة عاشوراء، فقررت أن أسمح لها بتنفيذ ما تريد، مع أنه يسوؤني المشي على السجاد بحذائي والجلوس على مائدة أوروبية. كان السقف المستوي ذو المنظر المطل على الصحراء هو كل ما بقي لي، إذ لم تقترح نينو أية تعديلات هيكلية عليه. امتلأ البيت بغبار الملاط والضجيج.

جلستُ على السطح مع والدي وقد أدرتُ وجهي وزلقتُ لساني خلال شفاهي كما تفعل نينو. شعرت أنني أبدو مذنباً. قال والدي بلطف: «حسناً، هكذا تجري الأمور، فالبيت مملكة المرأة. تصرفتْ نينو بشكل جيد جداً في فارس، مع أن الأمر لم يكن سهلاً عليها على الإطلاق. إنه دورك الآن. لاتنس ما أخبرتك به: أصبحت باكو الآن وللأبد جزءاً من أوروبا، فعتمة الغرف الباردة والسجاد الأحمر على الحائط هو لفارس».

«وأنت يا أبي؟»

«أنا أنتمي إلى فارس، وسأذهب إلى هناك حالما أرى طفلك. سأعيش في منزلنا في شيمران وسأنتظر أن يأتي يوم تظهر فيه الحيطان البيضاء والأسرة هناك أيضاً».

«عليَّ البقاء هنا يا أبي».

هز رأسه بجدية: «أعلم ذلك، فأنت تعشق هذه المدينة ونينو تحب

أوروبا. ولكنني لا أحب علَمنا الجديد ولا رائحة الإلحاد التي تخيم على المدينة». نظر للأسفل بهدوء ثم بدا فجأة شديد الشبه بأخيه أسد السلطانه: «أنا رجل مسن علي خان ولا أطيق كل هذه الأشياء الجديدة، أما أنت فشاب وشجاع، وعليك البقاء هنا لأن أذربيجان بحاجة إليك».

حين حل الغروب كنت أتجول في شوارع مدينتنا. وقد وقف رجال الدوريات التركية في الزوايا منتصبين بصلابة وبوجوه خالية من التعابير. تحدثتُ إلى الضباط فأخبروني عن جوامع اسطامبول وليالي تاتليسو الصيفية، وعن العَلَم الجديد الذي يرفرف فوق قصر الحاكم القديم، والبرلمان الذي ينعقد في مدرستنا. وبدا أن المدينة القديمة حولت حياتنا اليومية إلى حفلة أنيقة. أصبح المحامي فتح علي آغا رئيساً جديداً للوزراء، فسنَّ القوانين وأصدر الأوامر. أما ميرزا أسد الله، أخ أسد الله الذي أراد قتل جميع الروس، فأصبح وزيراً للخارجية ووقع المعاهدات مع الدول المجاورة، وقد تحمست أنا بشأن التحولات في بلدنا. تحرك شعور الاستقلال السياسي في داخلي بعمق وأحببت شعارنا الجديد والبزات الرسمية والقوانين، ولأول مرة شعرت بأنني في وطني بالفعل. انسلَّ الروس باستحياء بجانبي وحياني أساتذتي القدامى في المدرسة بإجلال. أما في نادي المدينة، فكانت الأوركسترا تعزف الأغاني المحلية خلال الأمسية برمتها، وكان بإمكاننا الاحتفاظ بقبعاتنا على رؤوسنا. كنا إلياس بيغ وأنا نُرفِّه هناك الجنود الأتراك الذين كانوا إما قادمين من الجبهة وإما ذاهبين اليها. أخبرنا هؤلاء عن حصار بغداد وعن المشاق التي واجهوها في صحراء سيناء. تعرفوا الكثبان الرملية في طرابلس والأزقة الموحلة في غاليسيا. وشربوا الخمر متجاهلين بوضوح تعاليم الرسول وتحدثوا عن إنفِر وقدوم الإمبراطورية الطورانية التي ستتوحد في ظلها جميع الشعوب ذات الدماء التركية. استمعت إلى كلماتهم ببهجة وبتعجب وإجلال لأن ذلك كان يبدو غير حقيقي وكأنه خيال، أو كأنه حلم جميل لا ينسى.

ثم حل يوم العرض الكبير. مشتْ ثلة الجنود في المدينة، وامتطى الباشا جواده الكريم وقد غطى صدره بالأوسمة. مشى خلال صفوف الجنود وحيا العَلَم. شعرنا جميعنا بالفخر والامتنان ونسينا جميع الخلافات بين السُّنَّة والشيعة وكنا مستعدين لتقبيل يد الباشا النحيلة والموت من أجل الخليفة العثماني. وقف سيد مصطفى وحده بعيداً عن الحشود وقد عبَّرَ وجهه عن الكره والازدراء. رأى صليباً عسكرياً بلغارياً وسط جميع النجوم والهلالات التي تغطي سترة الباشا، وقد امتعض من وجود هذا الشعار الغريب على صدر مسلم.

جلستُ مع سيد وإلياس في المتنزه بعد انتهاء العرض، حيث كانت أوراق الخريف تتأرجح متساقطة من الأشجار. تشاجر أصدقائي بعنف بشأن الأفكار الرئيسية للدولة الجديدة. فمن خلال الحملات والمعارك في غاندشا وكذلك من خلال أحاديثه مع الضباط الأتراك الشبان وخبرته التي استقاها من الحرب، اقتنع إلياس بيغ تماماً بأن تنفيذ الإصلاحات الأوروبية بأسرع ما يمكن هي الطريقة الوحيدة لإنقاذنا من احتلالٍ روسيٍّ جديد. صرخ بصخب: «أظن أنه من الممكن بناء القلاع والطرق والقيام بإصلاحاتٍ والبقاء مع ذلك مسلمين صالحين». وبوجهٍ متغضّنٍ وعينين متعبتين قال سيد:

«لم لا تذهب أبعد من ذلك إلياس بيغ، وتقول إنه بالإمكان شرب الخمر وأكل لحم الخنزير والبقاء مع ذلك مسلماً صالحاً، فالأوروبيون اكتشفوا منذ القدم بأن الخمر مفيد لصحتك وبأن لحم الخنزير مغُذٍّ. لكن كبير الملائكة في بوابة الجنة لن يصدق ذلك».

ضحك إلياس: «هناك فرق بالتأكيد بين المشي في العرض العسكري وبين أكل لحم الخنزير».

«ولكن ليس هناك فرق بين أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. فالضباط

الأتراك يشربون الخمر علناً أمام الملأ ويشبكون الصلبان على بزاتهم الرسمية».

استمعتُ إلى أصدقائي ثم سألت: «سيد، هل من الممكن أن يكون المرء مسلماً صالحاً وينام مع ذلك على السرير ويأكل بالشوكة والسكين؟»

ابتسم سيد بحنان: «ستكون دائماً مسلماً صالحاً، لقد رأيتك في يوم عاشوراء». لزمتُ الصمتَ ودفع إلياس بيغ بقبعته إلى الخلف.

«أصحيح أن منزلك سيكون أوروبياً بفرشٍ حديثٍ وورق جدران فاتح؟»

«نعم، هذا صحيح إلياس بيغ».

قال بلا تردد: «هذا حسن، فقد أصبحنا عاصمة وسيأتي الكثير من القناصل الأجانب إلى بلدنا، سنحتاج لمنازل نستطيع استقبالهم فيها ولسيدات من بلدنا قادرات على التحدث مع زوجات القناصل. لديك الزوجة المناسبة لذلك يا علي خان، كما لديك المنزل الملائم، يجب أن تعمل في وزارة الخارجية».

ضحكتُ: «إلياس بيغ ، أنت تحكم عليَّ وعلى زوجتي ومنزلي كما لو كنا على وشك بدء سباق في التفاهم العالمي. تبدو وكأنك تعتقد بأنني أبني منزلي للمصالح الوطنية».

«هذا ما يجب أن يكون»، قال إلياس بيغ ذلك بصوت خشن، فجاءني وحي بأنه ربما يكون على حق، بأنه ينبغي أن يخدم كل شيء وكل شخص هذا البلد الجديد الذي نريده أن يكبر من تراب أذربيجان الفقير والمتوهج بالشمس. ذهبتُ إلى المنزل، وعندما رأتْ نينو أنني لم أعترض على الأرضية الخشبية واللوحات الزيتية، ضحكتْ بسعادة ولمعتْ عيناها كتلك الليلة في الغابة عند نبع بيشابور.

تريَّضتُ في الصحراء خلال ذلك الوقت واستلقيتُ هناك لساعات وأنا

مُغطّى بالرمل الناعم، بينما كانت الشمس تغرق في الغرب كما لو كانت تدخل إلى نهرٍ من الدم. مرّتْ الفرق العسكرية التركية بقربي، وكانت وجوه الضباط مضطربة ومتوترة هذه المرة. وبالنسبة إلينا بدأ ضجيج الدولة الجديدة يُخمِد رعد مدافع الحرب العالمية. ولكن هناك في مكان ما في البعيد، تراجعت الفرق البلغارية، حلفاء الأتراك، بسبب انقضاض العدو عليها. «إنه اختراق»، قال الأتراك، «ومن المستحيل إصلاح الجبهة ثانية»، وتوقفوا عن شرب الشمبانيا. لم تكن الأخبار تأتي إلّا بشكلٍ نادرٍ، لكنها عندما تأتي كانت كضربات الصاعقة. ثم قدمَ من مرفأ مودروس البعيد على متن السفينة الحربية آغاميمون رجل ذو ظهرٍ منحنٍ وعينين تنظران للأسفل. كان ذلك الرجل هو حسن رؤوف باشا، سيد بحرية الإمبراطورية العثمانية العليا. انحنى فوق الطاولة ووقع اسمه على قطعة من الورق، فاغرورقت عينا الباشا، الذي كان ما يزال سيد مدينتنا، بالدموع. عُزفتْ مرةً أخرى في الشوارع موسيقا مملكة طوران، لكنها بدت هذه المرة كموسيقا جنائزية. جلسَ الباشا بشكلٍ منتصبٍ على سرجه بكامل بزته الرسمية وقد ارتدى قفازيه الأبيضين المصنوعين من جلد الماعز، وسار مرة أخرى خلال صفوف الجنود. بدت الوجوه التركية وكأنها مخدرة وبلا تعابير، ثم طُويَ علم آل عثمان المقدس ودقت الطبول، فرفع الباشا يده ذات القفاز الأبيض محيياً، وبدأت صفوف الجنود الأترك بالمشي خارج المدينة تاركة وراءها حلمَ صُوَرِ جوامع اسطامبول والأماكن الجميلة في البوسفور والخليفة النحيل الذي يرتدي عباءة الرسول على كتفيه.

وقفتُ بعد عدة أيام في المتنزه عندما ظهرت خلف جزيزة نارجين أولى السفن التي تحمل على متنها قوات الاحتلال الإنكليزية. كان للجنرال الانكليزي عينان زرقاوان وشارب مقلم ويدان عريضتان وقويتان. تدفق النيوزيلنديون والكنديون والاستراليون إلى مدينتنا، ورفرف العلم البريطاني

فوق مدينتنا بجانب علمنا. هاتفني فتح علي خان وطلب مني مقابلته في رئاسة الوزراء. كان جالساً على كرسيه ينظر إليَّ نظرات حادة عندما دخلتُ غرفته. «علي خانِ، لماذا لم تخدم بلدك حتى الآن؟» في الحقيقة لم أكن أدرِ. نظرتُ إلى أكوام الملفات الثخينة المكدسة على مكتبه وأجبت وأنا أشعر بالذنب:

«أنا أنتمي بكل مشاعري الصادقة إلى بلدنا، فتح علي خان، أنا في خدمتك».

«سمعت بأنك تملك موهبة تعلم اللغات الأجنبية، كم من الوقت يلزمك لتعلم الإنكليزية؟»

ابتسمت وأنا أشعر ببعض الإحراج: «فتح علي آغا، لست بحاجة لتعلم الإنكليزية لأنني أتحدثها بالفعل». لزمَ الصمت لأول وهلة، ومالَ برأسه الكبير على ظهر كرسيه المريح ثم سأل فجأة: «كيف هي أحوال نينو؟» صُعقتُ، فها هو رئيس وزرائنا يسألني عن زوجتي، وقد رمى بعرض الحائط بكل قواعد التصرف المحترم.

«شكراً لك سعادة الرئيس، زوجتي بألف خير».

«وهل تتحدث الإنكليزية هي أيضاً؟»

«أجل».

لزم الصمتَ ثانية وهو يداعب شاربه الكبير.

قلت له بهدوء: «فتح علي آغا، أعلم ما الذي تبغيه، سيكون منزلي جاهزاً خلال أسبوعين، كما أن خزانة نينو مليئة بثياب السهرة وكلانا يتحدث الانكليزية. وسأدفع شخصياً ثمن الشمبانيا».

ظهرتْ ابتسامة تحت شاربه: «اعذرني علي خان»، ثمَ أصبحت

ابتسامته أشد رقة، «لم أقصد جرح مشاعرك، ولكننا بحاجة لأناس من أمثالك، إذ ليس لدينا الكثيرون ممن لديهم زوجة أوروبية واسم عريق ومنزل ملائم. لنأخذ حالتي مثلاً على ذلك: لم يكن لدي المال مطلقاً لتعلم الانكليزية، فما بالك بشراء منزل أو الحصول على زوجة أوروبية. كان يبدو تعِباً، فأمسك بقلم وقال: «أنت منذ اليوم ملحق في قسم أوروبا الغربية، قدم نفسك لوزير الخارجية أسد الله، سيشرح لك طبيعة عملك و... أرجوك لا تنزعج... ولكن أتظن أن بامكانك تجهيز منزلك ليكون جاهزاً خلال خمسة أيام؟ أنا خجل بالفعل لأنني أسألك هذا».

«نعم، يا صاحب السعادة»، قلت له بثبات وشعرت كأنني خنتُ ونبذتُ صديقاً قديماً أثق به. ذهبتُ إلى المنزل. كانت يدا نينو قد غطيتا بالجص والدهان وهي تقف على سلم تدق مسماراً لتعلق عليه لوحة زيتية. ستصاب بدهشة كبيرة لو علمت أنها تخدم البلد، ولذلك لم أقل لها شيئاً ولكنني قبلتُ أصابعها الوسخة وسمحت لها بشراء ثلاجة لإبقاء الخمر الأجنبي بارداً.

28

ألديك عمة؟ لا، ليس عندي عمة، ولكن خادمي كسر ساقه اليمنى. أتحب السفر؟ نعم، أحب السفر، ولكنني أفضل أكل الفواكه فقط عند المساء. يا لحماقة هذه العبارات من كتاب «علِّم نفسك الانكليزية».

أغلقتْ نينو الكتاب: «أظن أن لغتنا الانكليزية جيدة بما فيه الكفاية لربح المعركة، ولكن هل جربت شرب الويسكي؟»

صحتُ بها مذعوراً: «نينو، أنت تتكلمين كالكتاب».

«هذا يعني أن تدهور ذهني من السهل فهمه علي خان، سببته رغبة في خدمة الوطن تمَّ فهمها بالشكل الخاطىء. من سيأتي الليلة؟» حاولتْ أن تجعل سؤالها يبدو وكأنها غير مهتمة للأمر ولكنها لم تفلح في محاولتها تلك. أخبرتها بأسماء الضباط والموظفين المدنيين الإنكليز الذين سيشرفوننا بقدومهم الليلة. نظرتْ نينو للأسفل وهي تشعر بالفخر، فهي تعلم أنه لا يوجد أي وزير أو جنرال يمتلك ما لدى زوجها: زوجة مطلعة، ذات تربية غربية وأهل ملكيين ومعرفة باللغة الانكليزية. أمسكتْ بفستان السهرة ثم نظرتْ إلى المرآة وقالت بكآبة: «حاولت شرب الويسكي ولكن طعمه رهيب، إنه مقرف بالفعل، ربما لهذا السبب يمزجونه بالصودا». وضعتُ ذراعي حول كتفيها، فنظرت إليَّ بامتنان: «نحن نعيش حياة غريبة علي خان، فتارة تسجنني في الحرملك وتارة أخرى أصبح الدليل على التقدم الثقافي لبلدنا».

نزلنا إلى غرف الاستقبال حيث وقف الخدم بتعابيرهم التي سيطروا عليها بإحكام، وحيث عُلِّقتْ اللوحات الزيتية التي تصور المناظر الطبيعية والحيوانات. كانت في الزوايا مقاعد مريحة وناعمة ومُلئت المزهريات الموضوعة فوق الطاولة بالورود. دفنتْ نينو وجهها في بتلة الورود العطرة: «هل تذكر، علي خان، كيف خدمتك عندما كنت أحمل الماء من الوادي إلى الآوِلْ؟».

«أية خدمة تفضلين؟»

بدتْ عينا نينو ناعمتين وحالمتين ولم تجبْ. دق الجرس، فارتجفت شفتاها من شدة الإثارة، ولكن كان أول الحضور هما والداها اللامعان وإلياس بيغ الذي أتى بكامل بزته الاحتفالية. تمشى هذا الأخير في الصالة متفحصاً كل شيء ثم أومأ بحماس: «أظن أنه عليَّ أن أتزوج أيضاً، يا علي خان»، ثم قال برزانة، «ألَدَى نينو بنات عم؟»

وقفنا، نينو وأنا، عند الباب نصافح الأيادي الانكليزية القوية. كان الضباط طويلي القامة ذوي وجوه حمراء، وكانت السيدات ذوات عيون زرقاء ويتسمن بأناقة ولكن بفضولٍ شديدٍ. ربما كن يتوقعن أن يخدمهن مخصيون وأن تُرفِّه عنهن الراقصات الشرقيات. ولكنهن وجدن بدلاً من ذلك خدماً مدربين جيداً وقد قُدمتْ الأطباق من الجهة اليسرى، كما عُلِّقتْ على الحيطان صُور أحصنة السباق والمروج الخضراء. حبستْ نينو أنفاسها عندما شاهدت ضابطاً شاباً يشرب كأس ويسكي كاملاً بجرعة واحدة دون أن ينتبه للعرض الذي قدِّم له بشرب المياه الغازية مع الويسكي. تطايرت نبذات من الأحاديث في الصالة هنا وهناك، وبدت بمثل حماقة الجُمَل في كتاب «علِّم نفسك الانكليزية»:

«هل أنت متزوجة منذ فترة طويلة، سيدة شيرفانشير؟»

«سنتين تقريباً»

«نعم، لقد ذهبنا إلى فارس في شهر العسل». «زوجي يعشق ركوب الخيل». «كلا، إنه لا يلعب البولو».

«هل أعجبتك مدينتنا؟» «أنا مسرور للغاية» «أوه، ولكن أرجوك، نحن لسنا متوحشين، فلقد مُنعَ تعدد الزوجات في أذربيجان منذ زمن طويل، أما المخصيون فأنا لا أعرفهم إلّا من خلال قراءة الروايات». نظرت نينو إليَّ من خلال الطاولة وقد ارتجف منخرها الوردي بضحكة مكبوتة. حتى إن زوجة رائد انكليزي سألتها إن كانت قد ذهبت يوماً ما إلى الأوبرا، فأجابت نينو بلطف: «نعم، كما أنني أكتب وأقرأ أيضاً». كسبت نينو الجولة الأولى وقدمت طبقاً من البسكويت إلى تلك السيدة.

انحنى الشبان الانكليز والضباط والموظفون المدنيون لنينو ولمستْ أيديهم أصابعها النحيلة، ونظرتْ عيونهم إلى ظهرها العاري، فنظرتُ بعيداً. وقف أسد الله في إحدى الزوايا وهو يدخن السيجار، كما لو كان كل شيء على ما يرام، فهو لن يعرض زوجته أبداً لعيون كل هؤلاء الغرباء. ولكن نينو جورجية ومسيحية، ولذلك فليس مهماً أن تكون يداها وعيناها وظهرها فريسة لنظرات رجال آخرين. تملكني الخجل والغضب، وتناهى إلى أسماعي مقتطفات من أحاديث بدت لي وقحة وسوقية. أخفضتُ عينيَّ، كانت نينو تقف في نهاية الصالة الأخرى وهي محاطة بالغرباء. قالت فجأة بصوت مبحوح : «شكراً، شكراً لك، أنت لطيف جداً». نظرتُ إليها فرأيتها تحمر بشدة وقد بدت خائفة. ثم اجتازت الصالة متجهة نحوي، لمست كمَّ قميصي كما لو كانت تطلب المساعدة، وقالت بلطف: «علي خان، أنت تشعر الآن بما أحسست به عندما ذهبت لرؤية عماتك وبناتهن في طهران، ماذا يعني كل أولئك الرجال بالنسبة لي؟ أنا لا أرغب أن ينظروا إليَّ هكذا». ثم التفتتْ وأمسكتْ بيد زوجة الرائد وسمعتُها تقول: «عليكِ بالفعل رؤية مسرحنا القومي، فهم يترجمون الآن مسرحيات شكسبير إلى اللغة التترية

وسيتم عرض هاملت في أولى الليالي في الأسبوع المقبل». مسحتُ العرق عن جبيني وفكرتُ بقواعد الضيافة الصارمة، فهناك مثل قديم يقول: «اذا دخل الضيف منزلك وهو يحمل رأس ولدك الوحيد بين يديه، فعليك استقباله». إنه قانون حكيم، ولكن من الصعب الامتثال له في بعض الأحيان».

سكبتُ الويسكي والكونياك في كؤوس كثيرة. دخّنَ الضباط السيجار ولكن لم يضعْ أي منهم قدمه على الطاولة مع أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي توقعناه. «لديك زوجة ساحرة وبيت جميل يا علي خان». أطال هذا الضابط الشاب فترة عذابي. ربما كان سيدهش كثيراً لو علم أن الاعتبارات السياسية وحدها هي من أنقذته من أن ألكم أذنيه. فقد تجرأ هذا الكلب الكافر على مدحِ جمال زوجتي علناً. ارتجفتْ يدي وأنا أسكب له كأساً من الكونياك فطافَ وسقطتْ بعض القطرات منه. جلس في الزاوية موظف مدني مسن ذو شارب أبيض يرتدي قميصاً أبيض تحت سترة العشاء. عرضْتُ عليه بعض البسكويت. كانت أسنانه طويلة وصفراء وأصابعه قصيرة. نظر إليَّ متفحصاً وقال: «يبدو أن هناك اختلافاً حضارياً كبيراً بين فارس وأذربيجان».

«آه، نعم، فنحن نسبقهم بعدة قرون. تذَكَّرْ أن لدينا كماً كبير من الصناعة هنا وسكة حديد. ولكن للأسف فالإدارة الروسية قمعت تطورنا الثقافي. ليس لدينا العدد الكافي من الأطباء والمدرسين ولكنني سمعت أن الحكومة تخطط لإرسال الشبان الموهوبين إلى أوروبا لتعلم ما فاتهم تحت نير الروس». تابعت الحديث بتلك الطريقة لبعض الوقت وكنت على وشك أن أسكب له بعض الويسكي ولكنه رفض، ثم قال:

«كنتُ قنصلاً في فارسٍ لمدة عشرين عاماً، وأشعر بأسف شديد عندما

أرى أشكال الحضارة القديمة الصلبة تتهاوى، وأن يحاول شرقيُّو اليوم تقليدنا واحتقار عادات أسلافهم. ولكن ربما كانوا على حق، فطريقة عيشهم، مع كل شيء، هو أمر عائد لهم. في كل الأحوال، عليَّ الاعتراف بأن بلدك على أهبة الاستعداد للاستقلال كما هي حال جمهوريات أمريكا الوسطى. أعتقد أن حكومتنا ستعترف بحكومتكم». انضممتُ إلى أسد الله الذي كان واقفاً في نهاية الصالة الأخرى مع والدي نينو اللامعين وإلياس بيغ. سأل أسد الله بسرعة:

«ماذا كان يقول لك ذلك الرجل المسن؟»

«قال بأنني أبله، وأخبرني بأن انكلترا ستعترف بنا».

تنفّسَ ميرزا أسد الله الصعداء وقال: «أنت لست أبلهاً يا علي خان، أنت بعيد كل البعد عن ذلك».

«شكراً لك ياسيدي، ولكنني أظن أنني كذلك».

صافحني وغادر، وعندما قبل يد نينو عند الباب، رأيتها تهمس شيئاً في أذنه وتبتسم بصورة غامضة، فأومأ لها، فقد فهم قصدها. غادر الضيوف في منتصف الليل وانبعثت رائحة التنباك والكحول من الصالة الكبيرة... صعدنا إلى غرفتنا ونحن نشعر بالتعب والرضا، ثم تملكتنا حالة غريبة. رمتْ نينو بحذاء السهرة في الزاوية وقفزتْ إلى السرير، ثم وقفتْ على الفراش وتركتْ للزنبرك أن يقذفها في الهواء المرة تلو المرة. ثم جعّدتْ أنفها ودفعت بشفتها السفلى لتبدو كقردٍ لعوبٍ صغيرٍ. كما نفختْ وجنتيها ثم ضغطتْ بسبابتها عليها لتحدثَ صوتاً يشبه الغطس في الماء. وصاحت قائلة: «هل أعجبتُكَ في دور منقذة البلد؟» ثم قفزتْ للأسفل وركضتْ إلى المرآة ونظرتْ إلى نفسها بإعجاب: «نينو خانم شيرفانشير، جان دارك أذربيجان، التي فتنت زوجات الضباط وتظاهرت بأنها لم ترَ مخصياً في حياتها». صفّقتْ بيديها

الصغيرتين ضاحكةً. كانت ترتدي فستان سهرة فاتح اللون ذا فتحة كبيرة في الخلف وتدلّى قرطان كبيران من أذنيها الحساستين، وأضاء عقد اللؤلؤ في جيدها في ضوء المصباح. كان جمالها يأخذ بالألباب. اقتربتُ منها ونظرتُ في عيني أميرةٍ أوروبيةٍ سعيدةٍ. عانقتها وأنا أشعر بأنها المرة الأولى. كانت بشرتها ناعمة ومعطرة، وتلألأت أسنانها خلف شفتيها كما لو كانت حجارة بيضاء. جلسنا على الفراش الأوروبي للمرة الأولى وأخذتُ امرأةً أوروبيةً بين ذراعيَّ. كانت عيناها تطرفان بسرعة وشعرتُ بمداعبة رموشها الطويلة الحميمة على وجنتيَّ، ولم يكن الأمر أكثر روعة من قبل. أمسكتُ بذقنها بين يدي ورفعتُ رأسها. رأيت وجهها البيضوي وشفتيها الرطبتين والعطشتين وعينيها الحالمتين خلف الرموش الجورجية نصف المغلقة. داعبتُ عنقها، فسقطَ رأسها بضعفٍ بين يديَّ، وامتلأتْ شوقاً وإذعاناً. اختفى من أمام ناظري فستان السهرة والسرير الأوروبي الذي قلبتُ أغطيته رأساً على عقب والكتان الهادئ. كانت تجلسُ هناك في آوِلْ داغستان نصف عارية على الحصيرة الضيقة التي تغطي الأرض الطينية. أمسكتْ يداي بكتفيها ثم استلقينا بكامل ثيابنا على السجادة الشاحبة من كرمان عند أقدام سرير الدولة الأوروبي الفخور. نظرتُ إلى وجه نينو فوق السجادة الناعمة حيث تقلّصَ حاجباها في ألمٍ ممتع. سمعتُ صوت تنفسها وشعرت بتدويرة فخديها النحيلين الصلبة، ونسيت كل شيء عن الانكليزي المسن والضباط الشبان ومستقبل جمهوريتنا.

استلقينا فيما بعد بهدوء جنباً إلى جنب ننظر إلى المرآة الكبيرة خلف رؤوسنا. «لقد فسد هذا الثوب»، قالت نينو ذلك وكأنها تعبر عن سعادة كبيرة. ثم هزت رأسها على حجري وفكرتْ بصوتٍ عالٍ: «ما الذي ستقوله زوجة الرائد لو رأتنا الآن؟ ربما ستقول: ألا يعرف علي خان لماذا تُستعمَل الأسرّة؟» ثم نهضتْ ورفستْ ركبتي بقدمها الصغيرة وقالت: «أيستطيع

الملحق المبجل أن يتصرف بشكل حسن ويقرر انتزاع ثيابه لأخذ مكانه في السرير الزوجي، ويتبع عادات العالم الدبلوماسي. إذ لم يسمع أحد عن ملحقٍ يتدحرج على السجاد». تذمرتُ ورميتُ بثيابي وأنا أشعر بالنعاس واستلقيت بين الملاءات مع نينو.

مرّتْ الأيام والأسابيع وأتى الضيوف وشربوا الويسكي وامتدحوا منزلنا، وتجلت الضيافة الجورجية كالورود. رقصتْ نينو مع الضباط الشبان وتحدثتْ عن داء النقرس مع الضباط المسنين، وأخبرتْ النساء الانكليزيات عن أيام الملكة تامار وتركتهن يعتقدنَ أن الملكة العظيمة حكمتْ أذربيجان إضافة إلى جورجيا.

جلستُ وحيداً في الغرفة الكبيرة في الوزارة أكتبُ التقارير للدبلوماسيين وأقرأ تقارير ممثلينا في الخارج وأنا أنظر إلى البحر. أتتْ نينو للقائي في المساء وتصرفت كزوجة مرحة. وقد امتلأت بفتنة لامبالية. ظهرت بوادر صداقة تدعو للعجب بينها وبين وزير الخارجية أسد الله. قدمت له الطعام والشراب عندما أتى لزيارتنا كما قدمت له النصيحة عن كيفية التصرف في المجتمع الأوروبي. كنت أراهما في بعض الأحيان وهما يهمسان بغموض في زاوية منعزلة من منزلنا. سألتها: «ما الذي يدور بينك وبين ميرزا؟» لكنها ابتسمت وقالت بأنها ترغب أن تكون أول امرأة ترأس البروتوكول. تكدّستْ رسائل وتقارير ومذكرات أكثر فأكثر على مكتبي. بدأتْ الدولة الجديدة تُبنى بأكبر سرعة ممكنة. أحببتُ فتح الرسائل والوثائق التي تَصَدَّرها شعارنا.

وفي أحد الأيام أحضرَ لي الساعي الجرائد بعد الغداء بقليل. فتحتُ جريدة جمهوريتنا الرسمية ورأيت اسمي مطبوعاً في الصفحة الثالثة بأحرف غامقة: «علي خان شيرفانشير، الملحق في وزارة الخارجية يعين في قنصليتنا

في باريس». ثم تبع ذلك فقرة مطولة تُثني على إمكانياني المتميزة. كان من الواضح أن أرسلان آغا هو كاتب المقال. قفزتُ واقفاً وأسرعتُ خلال غرف الاتصال إلى مكتب الوزير وفتحتُ البابَ بعنفٍ ثم صرخت: «ميرزا أسد الله، ما هذا؟».

ابتسم: «آه، إنها مفاجأة لك يا صديقي، لقد وعدتُ زوجتكَ، فأنت ونينو الشخصين المناسبين لباريس».

رميتُ الجريدة على الأرض وقد تملكني سخطٌ شديدٌ، وصرخت: «ميرزا، ليس ثمة قانون في البلاد يجبرني على ترك وطني لسنوات بلا انقطاع».

نظرَ إليَّ وقد صُعقَ بشدة: «ما الأمر بحق السماء يا علي خان؟ إن معظم الناس في وزارتنا يُسَرّون كثيراً للحصول على منصب في الخارج، وأنت الشخص الملائم لذلك».

«ولكنني لا أرغب في الذهاب إلى باريس، وإن أجبرتني فسأستقيل. أنا أكرهُ الغربَ، تلك الشوارع الغريبة والناس والعادات. ولكنني أفترض أنك لن تفهم ذلك أبداً».

قال بتهذيب: «لا، ولكنك تستطيع البقاء هنا إن أصريت على ذلك».

هرعتُ إلى المنزل وصعدتُ أعلى الدرج وأنا ألهثُ. «نينو»، قلت لها، «لا أستطيع فعل ذلك، لاأستطيع». تلاشت الألوان من وجهها وارتجفت يداها.

«ولكن لمَ لا يا علي خان؟»

«نينو، أرجوكِ، حاولي أن تفهميني. أنا أحب السقف المستوي فوق رأسي كما أحب الصحراء والبحر. أحب هذه المدينة، الحائط القديم،

والجوامع في الأزقة القديمة، وقد أموت بعيداً عن الشرق كالسمكة خارج الماء». أغلقت عينيها لوهلة، ثم قالت:

«أنا آسفة». بدا صوتها حزيناً ويائساً، فشعرتُ وكأن أوتار قلبي تتمزق. جلستُ وأمسكتُ بيدها:

«اسمعي، سأكون تعيساً في باريس بمقدار تعاستك في فارس، فهذه المرة سأكون أنا من يشعر أنه مُعرّض لقوة شريرة. أتذكرينَ كيف كنتِ تشعرين في حرملك فارس، سيكون العيش في أوروبا مستحيلاً بالنسبة إليَّ كما كان العيش في آسيا مستحيلاً بالنسبة لك. لنبقَ في باكو حيث يلتقي الشرق والغرب. أنا لا أستطيع الذهاب إلى باريس حيث لاتوجد الجوامع أو الحائط القديم أو سيد مصطفى. يجب أن أشعر بآسيا من فترة لأخرى إن كان عليَّ تحمل كل تلك الوجوه الغريبة القادمة إلى هنا. سأكرهكِ في باريس كما كرهتِني في عاشوراء. ليس حالما نصل هناك ولكنني سأفعل يوماً ما، ربما بعد حفلةٍ بالثياب الرسمية أو حفلة راقصة، سأكرهك فجأة في هذا العالم الغريب الذي تحاولين إقحامي فيه عنوة. ولهذا أود البقاء هنا، وليكن ما يكون. لقد ولدتُ في هذا البلد وأود أن أموت فيه». لم تنطق بكلمة واحدة. انحنت باتجاهي عندما توقفتُ وداعبتْ شعري: «سامح عزيزتك نينو، يا علي خان، كنتُ حمقاء للغاية، لست أدري لماذا اعتقدتُ أنه من الأسهل عليك لا عليَّ أن تتغير. سنبقى هنا ولن أنطق بكلمة أخرى عن باريس. تستطيع الاحتفاظ بمدينتك الآسيوية وسأحتفظ ببيتي الأوروبي». قبلتْني بحنان وقد لمعتْ عيناها.

«نينو، هل من الصعب أن تكوني زوجتي؟»

«لا، علي خان، ليس ذلك صعباً على الإطلاق، فهو لا يتطلب إلّا بعض المنطق والتفهم». داعبتْ أصابعها وجهي. إنها امرأة قوية عزيزتي نينو،

أعلم أنني قد دمّرتُ حلم حياتها. أجلستها على ركبتي: «نينو، عندما تضعين مولودك، سنذهب إلى باريس، لندن، برلين أو روما. ما يزال لدينا شهر عسل قادم، وسنبقى حيث تشائين لصيفٍ طويل، وسنذهب ثانية إلى أوروبا كل صيف. أنت تعلمين أنني لست طاغيةً، ولكنني أرغب بأن أكون في البلد الذي أنتمي اليه، لأنني ابن صحرائنا وشمسنا ورملنا».

«نعم»، قالت نينو، «كما أنك ابن جيد أيضاً، سننسى أوروبا، ولكن الطفل الذي أحمله لن يكون ابن الصحراء أو الرمال، بل سيكون فقط ابن علي ونينو».

«أجل»، قلت لها وقد علمتُ أنني وافقتُ على أن أكون والد طفل أوروبي.

29

«كانت ولادتكَ صعبة يا علي خان، إذ لم نكن نستدعي الأطباء الأوروبيين لنسائنا في تلك الأيام». جلس والدي معي على سطح منزلنا وكان صوته رقيقاً وكئيباً: «عندما اشتدت آلام المخاض على والدتك، أعطيناها مسحوقاً مطحوناً من الفيروز والألماس، ولكنه لم ينفعها. وعندما وُلدتَ، وجّهنا حبل السرة قريباً من الحائط الشرقي للغرفة ووضعنا سيفاً وقرآناً لتصبح تقياً وشجاعاً. ثم ارتديتَه فيما بعد حول عنقكَ كتعويذة، كنتَ طفلاً معافى، ولكنك حين بلغتَ الثالثة من عمرك رميت بالتعويذة فبدأتَ تمرض حينها. حاولنا في البداية إغراء المرض بالرحيل عنك وذلك بوضع الخمر والحلويات في غرفتك، كما جعلنا ديكاً ملوناً يركض إلى الغرفة ويخرج منها، لكن المرض لم يبارحك. ثم أتى رجل حكيم من الجبال وأحضر بقرةً. ذبحنا البقرة ففتح الرجل الحكيم معدتها ونزع أحشاءها، ثم وضعك داخل معدة البقرة، وأخرجناك بعد ثلاثة ساعات حيث أصبحت بشرتك شديدة الحمرة، ومنذ ذلك اليوم لم تمرض في حياتك». سمعتُ صوتَ صرخةٍ مكبوتةٍ قادمةٍ من المنزل، فجلستُ منتصباً وبلا حراك، وركزت جل طاقتي على الاستماع. ثم أتتْ صرخةٌ أخرى طويلة وحزينة. «إنها تلعنك الآن»، قال والدي بهدوء. «تلعن جميع النسوة أزواجهنَّ عندما يضعن مولودهن. في الماضي، كانت المرأة تذبح خروفاً بعد الولادة وترش دمه على حصيرة زوجها ومولودها لتبعد عنهما اللعنات التي أطلقتها خلال المخاض».

«كم من الوقت سيستغرق ذلك يا والدي؟»

«خمس ساعات، ست ساعات، وربما عشر فوركاها ضيقان». ثم لزمَ الصمت. ربما كان يفكر بزوجته، أي والدتي التي ماتت أثناء ولادتي. ثم وقف والدي وقال لي: «تعال». وذهبنا باتجاه سجادتي الصلاة المعلقتين في منتصف السطح وقد وجهت نهايتاهما العلويتان باتجاه الكعبة. نزعنا حذائينا ووقفنا فوق السجادتين وفردنا أيدينا وقد غطينا مؤخرة اليد اليسرى براحة اليد اليمنى: «هذا كل ما نستطيع فعله، ولكنه أهم من حكمة الأطباء». ثم انحنى إلى الأمام ونطق بالصلاة باللغة العربية: «بسم الله الرحمن الرحيم». تبعتُ خطواته، ركعتُ على السجادة ولمس جبيني الأرض: ﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين﴾. جلستُ على السجادة ويداي تغطِّيان وجهي. كان مازال باستطاعتي سماع صرخات نينو قادمة من الأسفل، ولكنني تجاوزت مرحلة التفهم، فقد كانت شفتاي تنطق بآيات القرآن كما لو لم تعودا جزءاً مني: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. وضعتُ يدي على ركبتي. كان ذلك في غاية الهدوء. سمعت والدي يهمس: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. لمس وجهي سجادة الصلاة. كنت جالساً عليها وقد اختفت خطوطها الحمراء أمام عيني.

﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾. ثم استلقينا، ظهرانا إلى التراب ووجهانا أمام وجه ربِّنا، ورددنا مرة بعد أخرى كلمات الصلاة، كلمات الله التي أنزلها على الرسول باللغة الأجنبية، لغة العرب البدو. جلستُ على السجادة وقد صالبتُ قدمي والسبحة تنزلق بين أصابعي، وشفتاي تهمس أسماء الله الثلاثة والثلاثين.

لمسَ أحدهم كتفي، فرفعتُ رأسي لأرى وجهاً مبتسماً وأسمع كلمات لم أفهمهما. نهضتُ وشعرتُ بنظرات والدي. مشيتُ بهدوءٍ أسفل الدرج. سحبتُ الستائر في غرفة نينو، وتوجهت نحو السرير. امتلأت عينا نينو بالدموع وكانت وجنتاها غائرتين. ابتسمتْ بهدوء وقالت باللغة التترية، أبسط لغةٍ يتكلمها شعبنا والتي لم تكن تجيد التحدث بها إلّا بالنزر اليسير:

«إنها بنت، علي خان، بنت رائعة، كم أنا سعيدة». أمسكتُ بيدها الباردة وأغمضت عينيها.

«لا تسمح لها بالنوم علي خان، يجب أن تبقى مستيقظة لبعض الوقت»، قال أحدهم ورائي. داعبتُ شفتيها الجافتين، فنظرتْ إليَّ وهي متعبة وهادئة. أتتْ امرأةٌ تلبس المريول الأبيض وأعطتني حزمة. رأيتُ دمية صغيرةً مجعدةً بأصابعَ صغيرةٍ وعينين بلا تعابير. بكتْ الدمية وقد تجعَّد وجهها. قالت نينو بفرح: «كم هي جميلة». ثم مدت أصابعها محاولة تقليد حركات الدمية. رفعتُ يدي ولمستُ الحزمة بخجل، ولكن الدمية كانت قد نامت وقد أصبح وجهها الآن جدياً. «سنسميها تامار، على شرف المدرسة»، أومأت برأسي موافقاً لأن تامار اسم جميل يستعمله المسلمون والمسيحيون على حد سواء. قادني أحدهم خارج الغرفة، وشعرت بنظرات فضولية تتجه صوبي. أخذ والدي بيدي وذهبنا خارجاً إلى الفناء.

قال لي والدي: «لنذهب إلى الصحراء، فسيُسمح لنينو بالنوم قريباً». امتطينا جوادينا وعدونا بقفزاتٍ كبيرةٍ خلال كثبان الصحراء الرملية الصفراء. قال والدي شيئاً، لكنني لم أفهمه. بدا وكأنه يحاول مواساتي. لم أفهم لماذا، فأنا فخور بأن لي ابنة نائمة وجعدة بوجه جدي وعينين بلا تعابير.

مضتْ الأيام كاللؤلؤ في السبحة. ضمّتْ نينو الدمية إلى صدرها وغنّتْ لها في الليل أغاني جورجية هادئة، وهزتْ رأسها وهي مستغرقة في التفكير بفلذة كبدها الصغيرة الجعدة. أما فيما يتعلق بي فقد كانت الأيام قاسية ومتعجرفة كما لم تكن في حياتها، فقد كنت مجردَ رجلٍ لايستطيع إنجاب الأطفال أو حضانتهم أو حتى تنظيف أوساخهم. ولذلك جلستُ في مكتبي في الوزارة حيث كانت تهاتفني لتخبرني بلطف عن أحداثٍ جسامٍ ومآثرٍ ثوريةٍ: «علي خان، لقد ضحكت الدمية وهي تمد يديها باتجاه الشمس».

«إنها دمية ذكية جداً يا علي خان. أريتها الكرة الزجاجية، وهي تنظر إليها بالفعل».

«اسمع علي خان، الدمية ترسم بأصابعها خطوطاً على بطنها، يبدو أنها دمية موهوبة جداً».

ولكن بينما كانت الدمية ترسم خطوطاً على بطنها وتتابع الكرة الزجاجية بعينيها، كان الناس في أوروبا البعيدة يلعبون بالحدود والجيوش والدول. قرأتُ التقاريرَ على مكتبي ونظرتُ إلى الخرائط التي رُسمتْ عليها حدود مستقبلية تثير التساؤل. اجتمع في فرساي رجال غامضون، بأسماء من الصعب لفظها، ليقرروا مصير الشرق. حاول رجلٌ واحدٌ فقط، الجنرال التركي ذو الشعر الأشقر من أنقرة، يائساً الاعتراض على إرادة المنتصرين. ومع أن القوى الأوروبية قد اعترفت ببلدنا، أذربيجان كدولة مستقلة، إلّا أنني لم أستطع مشاطرة إلياس بيغ حماسه، وكان من المحرج بالنسبة لي أن أخيبَ آماله بالأخبار التي تفيد بانسحاب الفوج البريطاني من المنطقة التي هي الآن جمهوريتنا المستقلة.

صاح إلياس بيغ ببهجة: «نحن الآن أحرار للأبد، لن يكون هناك أجانب على ترابنا».

قلتُ له ونظرتُ إلى الخريطة: «انظر هنا يا إلياس بيغ، إن حلفاءنا الطبيعيين هم تركيا وفارس ولكنهما ضعيفان الآن. نحن مُعلّقون في منتصف الهواء، في الشمال مئة وستون مليوناً من الروس يضغطون باتجاهنا وهم متعطشون لنفطنا. لن يجرؤ أي روسي أحمر أو أبيض أن يتخطى حدودنا طالما بقي الانكليز هنا، ولكن عندما يرحل الانكليز، لن يبقى سواك وسواي وبعض الأفواج للدفاع عن البلد».

«هذا لا يهم»، هز إلياس بيغ رأسه بتفاؤل، «لدينا الدبلوماسيون الذين يعقدون معاهدات صداقة مع الروس، ولدى الجيش أشياء أخرى يقوم بها.

هنا،» وأشار إلى الجنوب، «علينا الذهاب إلى الحدود مع أرمينيا، فهناك مشكلات في تلك المنطقة، وقد أمرنا بذلك الجنرال ميشاندر وزير الحربية». كان من غير المجدي محاولة اقناعه أن الدبلوماسية وحدها لا تجدي إن لم تُدعم بذكاء من قبل القوات العسكرية. وهكذا غادر الفوج الانكليزي وامتلأتْ الشوارع بالأعلام الاحتفالية، ومضتْ قواتنا إلى الحدود مع أرمينيا، ولم يبقَ في جالاما، محطتنا مع الحدود الروسية، سوى حرس حدود وبعض الموظفين المدنيين. أما نحن في الوزارة، فبدأنا بإعداد المعاهدات مع الروس البيض والحمر على حد سواء. رحلَ والدي إلى فارس، رافقناه نينو وأنا إلى الرصيف البحري. نظر إلينا بحزنٍ ولم يسألنا إن كنا سنتبعه أم لا.

«ما الذي ستفعله في فارس يا أبي؟»

«سأتزوج ثانية على الأغلب»، قال بطريقة ارتجالية، ثم قبّلنا بأسلوب احتفالي وأضاف باهتمام: «سآتي لزيارتكم من حين لآخر، واذا انهارت الدولة... حسناً، لدي بعض العقارات في مازنداران». صعد على ممر الألواح الخشبية ولوّحَ بيديه لفترة طويلة جداً لنا وللحائط القديم وبرج ميدن. والمدينة والصحراء وقد اختفت جميعها تدريجياً من أمام ناظريه. كان الطقس حاراً في المدينة، وقد أُغلقتْ مصاريع النوافذ حتى منتصفها. قَدِمتْ الوفود الروسية وكانت وجوههم ضجرة وماكرة. وقّعوا بسرعة وبلا مبالاة المعاهدات اللامتناهية التي تحتوي على فقرات وأعمدة وهوامش.

غطى الغبار والرمال شوارعنا، وتسببت الرياح الحارة في رفرفة قطع الأوراق المقصوصة في الهواء، وذهبتْ عائلة زوجتي المرموقة إلى جورجيا لقضاء فصل الصيف، ولم تكن جالاما سوى منطقة مراقبة حدودية يوجد فيها بعض الموظفين المدنيين. التفتُّ إلى الوزير: «يا أسد الله، هناك ثلاثون ألف روسي بمحاذاة جالاما».

«أعرف»، قال بكآبة، «يرى القائد العسكري أنها مجرد مكيدة».

«وماذا لو لم تكن كذلك؟»

نظرَ إليَّ بنزقٍ: «لانستطيع فعلَ شيء أكثر من عقد المعاهدات، وأي شيء آخر يبقى في يد الله». قام بحراسة البرلمان عدة رجال أقوياء وضعوا حرابهم على أهبة الاستعداد. في الداخل كانت الأحزاب السياسية تتشاجر، وفي الضواحي هدد العمال الروس بالإضراب إن لم تسمح الدولة بتصدير النفط إلى روسيا. عجّت المقاهي برجال يقرؤون الجرائد ويلعبون النرد، وتشاجر الأطفال في الغبار الحار. اضطرم لهيب الشمس فوق المدينة وجاء النداء من المآذن: «حي على الصلاة، حي على الصلاة، الصلاة خير من النوم».

لم أخلدْ إلى النوم. استلقيت على السجاد وعيناي مغلقتان، ولكنني ما فتئت أرى أمامي الصورة المفزعة لمحطة جالاما الحدودية التي يهددها ثلاثون ألف روسي. «نينو، الدمية غير معتادة على الشمس، وأنت تعشقين الأشجار والظلال والماء، ألا ترغبين بالذهاب إلى والديك خلال فترة الصيف؟»

«كلا»، قالت نينو بصرامة، «لا أرغب بذلك».

لم أنبس بكلمةٍ أخرى. عقّدتْ نينو حاجبها مستغرقة في التفكير: «ولكن يمكننا الذهاب سوية علي خان، المدينة حارة هنا، أما عقارك في غاندشا، فمحاط بالحدائق والكروم. لنذهب، فأنت هناك في منزلك وتستطيع الدمية الاستلقاء في الظل». لم أستطع إلّا أن أوافق على ذلك، فركبنا القطار، في عربة مزينة بكل المجد بعلم أذربيجان الجديد.

أخذَنا طريق طويل ومغبر من المحطة إلى مدينة غاندشا. أحاطت المنازل المنخفضة بالكنائس والجوامع، وفصلَ نهر جاف حارات المسلمين عن حارات الأرمن. أَريتُ نينو الصخرة التي مات عليها جدي ابراهيم برصاص

الروس منذ مئة عام. وفي عزبتنا الواقعة خارج المدينة كانت الجواميس تستلقي بلا حراك ولم يظهر منها سوى رأسها. وفاحت رائحة الحليب في الهواء، وكانت كل حبة عنبٍ في العناقيد الكبيرة تبدو بكبر عين البقرة. حلقَ المزارعون رؤوسهم من المنتصف وقد مَشّطُوا شعورهم الطويلة إلى اليمين وإلى اليسار. أحاطتْ الأشجار بالمنازل الصغيرة ذات الشرفات الخشبية، وضحكتْ الدمية عندما رأت الأحصنة والكلاب والدجاج.

استقرينا هناك، وبعد أسبوعين متواصلين نسيتُ كل شيء عن الوزارة والمعاهدات ومحطة جالاما. استلقينا على العشب وقد مضغتْ نينو سويقة مرّة. صُبغَ وجهها بلون الشمس وكان صافياً وساكناً كسماء غاندشا. كانت قد بلغت العشرين من عمرها ومازالت نحيلة جداً بالنسبة للذوق الشرقي: «علي خان، الدمية لي وحدي. في المرة المقبلة سيكون المولود صبياً وتستطيع أخذه». ثم بدأتْ بإعداد الخطط لمستقبل الدمية بأدق التفاصيل: «لعب التنس، أكسفورد، دورات اللغات الانكليزية والفرنسية، كلها أوروبية». لم أعلّقْ بشيء فالدمية ما تزال صغيرة جداً وهناك ثلاثون ألف روسي في جالاما. لعِبنا على العشب وتناولنا وجباتنا على السجاد الكبير تحت ظل الأشجار. سبحتْ نينو في النهر في أعلى المكان الذي تستحم فيه الجواميس. قدِمَ المزارعون إلينا وقد وضعوا على رؤوسهم قبعات دائرية صغيرة وانحنوا أمام الخان، كما أحضروا سلالاً من الدرّاق والتفاح والعنب. لم نقرأ أية جرائد كما لم نستلم أية رسائل. فبالنسبة إلينا اختفت الحدود عند عقارنا. وكان الوقت الذي أمضيناه تقريباً كروعة الأيام التي قضيناها في داغستان. وفي إحدى ليالي الصيف الطويلة، سمعنا ونحن نجلس في حجرتنا صوت جواد يعدو بعنف. خرجتُ إلى الشرفة فرأيت رجلاً نحيلاً يرتدي معطفاً شركسياً أسود يقفز من جواده. صحتُ: «إلياس بيغ»، ومددت يدي نحوه مستقبلاً، ولكنه وقف هناك تحت ضوء المصباح الزيتي ووجهه شاحب كالموتى.

قال بسرعة: «الروس في باكو».

أومأتُ وكأنني كنتُ أعرف ذلك منذ وقت طويل. كانت نينو واقفة خلفي فسمعتُ صرختها الضعيفة: «كيف حدث ذلك إلياس بيغ؟»

«أتت قطارات مليئة بالجنود خلال الليل من جالاما، فحاصروا المدينة واستسلم البرلمان. قُبِضَ على جميع الوزراء الذين لم تتسنَ لهم فرصة الهرب وحل البرلمان. انضم العمال الروس إلى أبناء جلدتهم. لم يكن هناك جنود في المدينة وكان الجيش يخسر على الحدود الأرمنية. أنا أجمع الموالين». التفتُّ. كانت نينو قد اختفت داخل المنزل، بينما هرع الخدم لربط العربة بالأحصنة. كانت نينو تحزم الأمتعة وتتحدث برقة إلى الدمية بلغة أجدادها. ثم سرنا خلال الحقول وإلياس بيغ إلى جانبنا. كانت أضواء غاندشا تلمع من بعيد، وشعرتُ لوهلةٍ وكأن الماضي والحاضر قد أصبحا واحداً. وكان إلياس بيغ يضع خنجره في حزامه ويبدو شاحباً وجدياً. أما نينو فبدتْ رابطة الجأش ومعتدة بنفسها، كما كانت تبدو في حقل البطيخ في مارداكجاني منذ زمن طويل. ازدحمت الشوارع وعجّت بأشخاص ذوي وجوه منفعلة وقلقة. وقف الجنود على الجسر الذي يفصل الحارات المسلمة عن الأرمنية وبنادقهم على أهبة الاستعداد، وألقت المشاعل بظلالها على راية أذربيجان، على شرفة مبنى الحكومة.

جلست وقد اتكأت بظهري على حائط جامع غاندشا الكبير وفي يدي صحن من الشوربة، وأنا أنظر إلى الجنود المستلقين في الفناء. كانت الرشاشات تنبح وأصواتها الرهيبة تقتحم طريقها إلى الفناء، ولم يبقَ من عمر جمهورية أذربيجان سوى بضع ساعات. جلستُ هناك بمفردي ودفتري أمامي، كنت أملأه بسطور سريعة لأدون الماضي مرة أخرى. هكذا جرت الأمور منذ ثمانية أيام في فندقنا الصغير في غاندشا.

«أنت مجنون»، قال إلياس بيغ. كانت الساعة الثالثة صباحاً ونينو نائمة

في الغرفة المجاورة. «أنت مجنون»، كرر كلامه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. جلستُ إلى الطاولة وكان رأي إلياس بيغ هو آخر ما يهمني في هذه الدنيا.

«سأبقى هنا، سيأتي الموالون وسنقاتل، لن أهرب من البلد». تكلمتُ برقّةٍ كما لو كنت أحلم. وقف إلياس بيغ أمامي ونظر إليَّ بحزن وفخر.

«علي خان، لقد ذهبنا إلى المدرسة معاً، وقاتلنا الروس معاً في الفُرص الكبيرة. سرتُ خلفكَ عندما طاردتَ ناتشاراريان، وأخذتُ نينو إلى منزلها على صهوة جوادي، كما قاتلنا في بوابة زيزياناشفيلي. أما الآن فينبغي لك أن ترحل لأجل نينو، لأجلك أنت، ولأجل وطنك الذي قد يحتاجك ثانية».

«أنتَ باق هنا إلياس بيغ، وسأبقى أيضاً».

«أنا باق لأنني وحيد في هذا العالم، لأنني أعرف كيف أقود الجنود، ولأنني أقدم لوطني خبرة حملتين عسكريتين. إذهبْ إلى فارس يا علي خان».

«لا أستطيع الذهاب إلى فارس، كما لا أستطيع الذهاب إلى أوروبا». ذهبت إلى النافذة حيث رأيتُ المشاعل تضيء والحديد يصلصل.

«علي خان، لم يبقَ لجمهوريتنا سوى بضعة أيام تعيشها». أومأت بلا مبالاة. مرَّ الناس أمام النافذة وهم يحملون الأسلحة، وسمعت صوت أقدامٍ في الغرفة المجاورة فالتفتُّ. كانت نينو تقف عند الباب وعيناها شبه نعستين.

قلت لها: «نينو، ينطلق آخر قطار إلى تفليس خلال ساعتين».

«نعم، لنذهب علي خان».

«لا، اذهبي أنت مع الطفلة وسألحق بكما لاحقاً. عليَّ البقاء هنا لفترةٍ أطول. ولكن عليكِ الذهاب، فأنت لا تستطيعين البقاء هنا نينو، فلديك طفلة الآن». كنتُ أتحدث بينما كانت المشاعل تضيء في الشوارع وإلياس بيغ

يقف في الزاوية ورأسه منخفض. طارَ النومُ من عيني نينو، فذهبتْ إلى النافذة ببطء ونظرتْ خارجاً، ثم نظرتْ إلى إلياس بيغ، فَرَنَا بنظرته بعيداً. مشتْ نينو إلى منتصف الغرفة وتدلّى رأسها ثم قالت:

«الدمية، وأنت لن تأتي؟»

«لا أستطيع يا نينو».

«لقد ماتَ سلفك على جسر غاندشا، عرفت ذلك الحجر منذ تقدمتُ للامتحان في المدرسة». ثم انهارت نينو فجأة على الأرض وبكتْ كحيوان جريحٍ يعاني من ألم مبرحٍ لدرجةِ الموت. كانت عيناها جافتين وارتجفَ جسمها كله. بكتْ بأعلى طبقة من صوتها، فهربَ إلياس بيغ خارج الغرفة.

«سآتي يا نينو، سآتي، أعدك بذلك، سيستمر الأمر لبضعة أيام فقط». استمرَّ بكاؤها، وفي الشارع، غنى الناس الأناشيد الحماسية لجمهورية تُنازع. هدأتْ نينو لمرة واحدة ونظرتْ إلى الأمام بعينين جامدتين. ثم وقفتْ، فحملتُ الحقيبة والدمية داخل لفافتها ونزلنا أسفل الدرج بصمت. كان إلياس بيغ ينتظر في العربة، فاتجهنا إلى المحطة خلال الشوارع المكتظة.

قال إلياس بيغ: «فقط لثلاثة أو أربعة أيام وعندها يكون علي خان معك ثانية».

«أعلم ذلك»، أومأت نينو بهدوء، «سنبقى في تفليس ثم نذهب إلى باريس. سيكون لنا منزل بحدائق أما الطفل القادم فسيكون صبياً».

«هذا ما سيكون يا نينو، ستجري الأمور تماماً هكذا». كان صوتي واضحاً ومتفائلاً. أمسكتْ نينو بيدي ونظرتْ بعيداً خلال المسافات. بدت سكة الحديد وكأنها ثعبان طويل وقَدِمَ القطارُ من الظلام وكأنه وحش شرير. قبّلتني نينو بسرعة: «إلى اللقاء علي خان، سنلتقي ثانية خلال ثلاثة أيام».

«بالطبع يا نينو، وعندها سنذهب إلى باريس».

ابتسمتْ وبدت عيناها كالمخمل الناعم. وقفتُ هناك على رصيف المحطة وأنا لا أستطيع الحراك كما لو أن أحدهم ثبتني بمسمار إلى الإسفلت الصلب. قادَ إلياس بيغ نينو إلى مقصورتها، فنظرتْ من النافذة وهي تبدو هادئة وضائعة كعصفورٍ صغيرٍ خائفٍ. وعندما بدأ القطار بالمسير لوَّحتْ لي وقفزَ إلياس بيغ من القطار.

عُدنا أدراجنا إلى المدينة التي كانت تشبه الكرنفال، وقدِمَ المزارعون من القرى النائية وقد أحضروا الذخيرة ورشاشاتهم التي كانوا قد خبؤوها. وسمعنا من الزاوية الأخرى من النهر بضع طلقات قادمة من الحي الأرمني. كان ذلك الحي قد صار منطقة روسية، وقد تدفق فرسان الجيش الأحمر إلى البلاد. وفجأة ظهر في المدينة رجل بحاجبين كثّين وأنف معقوف وعينين عميقتين: كان ذلك الشخص هو الأمير منصور ميرزا قادجار. لم يكن أحد يعلم من يكون ومن أين أتى. كانت الحقيقة الوحيدة التي يعلمها الناس هي أنه من عائلة قادجار الإمبراطورية نفسها، وقد تلألأ على قبعته الأسد الفضي. استلمَ القيادة بطريقةِ أحدِ ورثة آغا محمد. تركزت الكتائب الروسية باتجاه غاندشا وامتلأت المدينة باللاجئين من باكو. تحدثَ هؤلاء عن الوزراء الذين أُعدموا وعن نواب البرلمان المسجونين والجثث التي رُبِطتْ بالحجارة ورميتْ في عمق بحر قزوين. «صار جامع تازا بير ملهى، وعندما أتى سيد مصطفى للصلاة على الحائط، ضربه الروس ثم أوثقوه ووضعوا لحم الخنزير في فمه. لكنه تدبر أمره فيما بعد واستطاع الفرار إلى عمه في مدينة مشهد الفارسية، كما قتل الروس أباه». كان أرسلان آغا هو من أخبرني ذلك، ثم وقف أمامي ونظر إلى الأسلحة التي كنتُ أوزعها.

«أريد أن أقاتل أيضاً يا علي خان».

«أنت؟ أيها الخنوص الذي ينثر الحبر؟»

«لست بخنوص يا علي خان، أنا أحب وطني مثل الجميع، لقد هرب

والدي إلى تفليس، أعطني سلاحاً». كان وجهه جدياً وعيناه تومضان. أعطيته أسلحة ومشى في الصفوف التي كنت أقودها للهجوم على الجسر. سيطر الجنود الروس على الشوارع في الجانب الآخر، واشتبكنا في صراع رجلٍ لرجل. رأيت أقنعة عريضة وحراباً مثلثة لامعة، ثم تملكني غضب وحشي. صاح أحدهم: «إلى الأمام»، فأخفضنا حرابنا وامتزجت الدماء بالعرق، فرفعتُ عقب بندقيتي ولامستْ رصاصة كتفي. انفجرت جمجمة روسية تحت وطأة ضربتي، وسقطت أدمغة رمادية إلى التراب. كان خنجري بيدي، وتعثرتُ فوق أحد الأعداء ورأيتُ خلال سقوطي أرسلان آغا وهو يغرز خنجره في عين جندي روسي.

ثم سمعنا من بعيد نداءِ البوق المعدني. كنا مستلقين خلف زاوية الشارع، نطلق النار بشكل عشوائي على المنازل الأرمنية. وزحفنا في المساء عائدين إلى الجسر حيث جلس إلياس بيغ يعبئ الرشاشات بالخرطوش. ذهبنا إلى فناء الجامع فأخبرني إلياس بيغ تحت ضوء النجوم كيف أنه كاد يغرق ذات مرة عندما جرفه التيار وهو يسبح في البحر. ثم تناولنا الشوربة وأكلنا بعض الدراق. أما أرسلان آغا فجلس أمامنا ونزفت دماء من بين أسنانه. زحف في الليل قادماً إليَّ وجسده يرتجف بأكمله.

«أنا خائف جداً يا علي خان، أنا جبان».

«اذاً، ضع سلاحك جانباً واركض عبر المروج إلى نهر بولفا ومن هناك إلى جورجيا».

«لا أستطيع، فأنا أحب وطني كالجميع، حتى لو كنت أملك روح جبان». لزمتُ الصمت، ثم انبثق الفجر، وهدرت البنادق من بعيد ووقف إلياس بيغ قرب المئذنة مرتدياً نظاراته الميدانية ووقف بجانبه أمير عائلة قادجار الإمبراطورية. سمعُ صوت البوق ثانية نادباً ومتحدياً. رفرف العلم فوق المئذنة وبدأ أحدهم بغناء أغنية مملكة طوران. «لقد سمعت شيئاً»، قال رجل ذو

عينين حالمتين ووجه تبدو عليه علائم الموت: «ظهر في فارس رجل يدعى ميرزا، إنه يقود رجالاً كُثُراً ويطارد الأعداء كما يطارد الصياد الأيل. وكمال قابع في أنقرة وقد جمع جيشاً. نحن لا نقاتل بلا جدوى، هناك خمسة وعشرون ألف رجل قادمون لمساعدتنا».

أجبت: «لا، ليس خمسة وعشرين ألف رجل، بل إن مئتين وخمسين مليوناً من المسلمين قادمون، جميع المسلمين في العالم. لكن الله وحده يعلم إن كانوا سيأتون في الوقت المناسب». ذهبتُ إلى الجسر وجلستُ خلف الرشاش. كانت الرصاصات تنزلق من بين أصابعي وكأنها حبات السبحة. جلسَ أرسلانُ آغا بجانبي وقد مرر الرصاص إلى جاري. كان وجهه شاحباً ومبتسماً. حدثتْ تحركات في صفوف الروس وكان رشاشي يطلق النار كالمجنون. نُفِخَ في البوق من هناك إيذاناً ببدء القتال. ثم أتت من الصفوف الأرمنية أخبار عن تقدم بودجني. نظرتُ إلى الأسفل فرأيت قاع النهر الجاف المتصدع، فأجبت على ذلك بإطلاق النار بجنون. سقط الروس كالدُّمى، لكن صفوفاً جديدة ظهرت خلفهم راكضة باتجاه الجسر لتسقط على تراب ضفة النهر. كان هناك الآلاف منهم وبدا خوار رشاشي الوحيد ضعيفاً على جسر غاندشا.

صرخ أرسلان آغا صرخة عالية وكئيبة كالأطفال. نظرتُ إليه. سقط على الجسر والدماء تنزف من فمه. ضغطتُ على زر الرشاش فانهمرت أمطار من الرصاص على الروس، وأطلق بوقهم نداء الهجوم ثانية. سقطتْ قبعتي إلى النهر أو ربما رماها الرصاص أو الريح التي كانت تعصف في وجهي. مزقتْ ياقتي ومعطفي، وكان جسد أرسلان آغا قابعاً بيني وبين العدو: اذاً يستطيع المرء أن يكون جباناً ويموت كالبطل في سبيل وطنه. ومن هناك، دعا البوق للانسحاب، فتوقف صوت الرشاش وجلست هناك على الجسر وأنا مغطى بالعرق وأشعر بالجوع وأنتظر الفرج.

أنا الآن أجلس هنا في ظل الجامع وأحتسي الشوربة. وهناك في الأعلى قليلاً عند مدخل الجامع يقف الأمير منصور، وينحني إلياس بيغ فوق الخريطة. وخلال بضع ساعات أخرى سأقف ثانية على الجسر. لم يبقَ لجمهورية أذربيجان سوى بضعة أيام لتعيشها. كفى. سأنام حتى يدعوني البوق إلى النهر ثانية حيث قدَّمَ سلفي إبراهيم خان شيرفانشير حياته من أجل حرية شعبه.

سقط علي خان شيرفانشير خلف رشاشه على جسر غاندشا في الساعة الخامسة والربع، وهوى جسده في قاع النهر الجاف. نزلتُ إليه. كانت ثماني رصاصات قد اخترقتْ جسده. وجدتُ في جيبه هذا الدفتر. سآخذه إلى زوجته إن شاء الله. دفنّاه في الصباح الباكر قبل بدء الروس هجومهم الأخير. انتهت حياة جمهوريتنا كما انتهت حياة علي خان شيرفانشير.

الكابتن إلياس بيغ، ابن سِيئنال آغا،
من قرية بينيادي قرب باكو

من إصدارات دار الكلمة

مــــايـــــا (رواية)	تأليـف: جوستين غاردر
الجنس ومنابع الموت	تأليـف: وليم ر. كلارك
الجنس وطبيعة الأشياء	تأليـف: ن. ج. بيريل
الجنس في أديان العالم	تأليـف: جفري بارندر
قــوّة الأسطــــــــورة	تأليـف: جوزيف كامبل
الأساطير والأحلام والدين	تحرير: جوزيف كامبل
البطــل بألــف وجـــه	تأليـف: جوزيف كامبل
ليـالٍ هـنديــة (روايـة)	تأليـف: أنطونيو تابوكي
أقـاصيــص شـرقيــــة	تأليـف: مرغريت يورسينار
نيتشة مكافحاً ضدّ عصره	تأليـف: رودولف شتـاينـر
مفهـوم العدل فـي الإسـلام	تأليـف: د. مجيـد خـدّوري
أصحـاب الجلالة - الأهرامات	تأليـف: ف. زامروفسـكـي
أسلافنـا (الڤيسكونت المشطور)	تأليـف: إيتـالـو كـالـيـنــو
موسوعة الجيب لقواعد الإنكليزية	إعـداد: نـورالـديـن البهلــول
هرمس مثلث العظمة (النبي إدريس)	تأليـف: لـويــس مـيـنـــارد
شخصية المولود البكر نشأةً وبلوغاً	تأليـف: كـيـفـيـــن لـيـمـــان

علي ونينو

تجمع هذه الرواية الكلاسيكية الرومانسية والمليئة بالمغامرة بين سحر قصص شهرزاد وروعة الملحمة.

تجري أحداثها عشية الحرب العالمية الأولى في باكو، عاصمة أذربيجان، تلك المدينة التي تتأرجح بشكل متقلقل بين الشرق والغرب. وقعَ علي خان شيرفانشير التلميذ المسلم، الذي ينتمي لعائلة أرستقراطية فخورة بنفسها، في حب نينو كيبياني، الفتاة المسيحية التي تملك إحساساً أوروبياً متميزاً. وليكونا معاً، كان عليهما أن يتغلبا على عداء الدم والفضيحة، متنقلين من شوارع باكو الصاخبة المزدهرة بالنفط ومن الصحارى الجميلة والمقفرة إلى القرى الجبلية النائية، ثم إلى القصر الغني الذي يملكه عم علي في إيران المجاورة. وفي نهاية الأمر يعود الحبيبان إلى باكو. وعندما تهدد الحرب مستقبلهما، يضطر علي للاختيار بين ولائه لاعتقادات أسلافه الآسيويين وبين حبه العميق لنينو. «علي ونينو» رواية حب كلاسيكية خالدة في وجه الحرب.

«علي ونينو» رواية شاعرية، أسطورية، غنية، مثيرة، مسلية، حزينة، متعددة الألوان الصفحة تلو الأخرى.

بلين ديلر

يشعر المرء وهو يقرأ هذه الرواية وكأنه أخرج كنزاً مدفوناً... إنها ملحمة التغيير الثقافي التي تبدو وكأنها أقرب للزمن الحالي من العناوين الرئيسية لصحافة هذا اليوم.

جريدة النيويورك تايمز

رواية رائعة. «علي ونينو» هي أفضل قصة حب قرأتها وواحدة من أفضل المغامرات.

مايكل فيلد، تورونتو غلوب آند ميل

الكلمة

سورية - دمشق - برامكة - شارع فلسطين

ص. ب: 2229 ، هاتف - فاكس: 2126326